القلب البلاغي

في القرآن الكريم

بين المجيزين والمانعين

دكتور

مصطفى السيد جبر

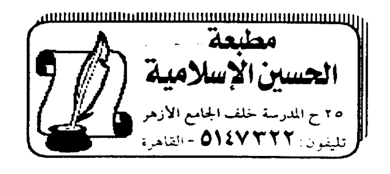
أستاذ مساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ - ٢٠٠٢



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد

فهذا البحث سياحات روحية، ونظرات تأملية فى تفسير بعض النصوص القرآنية، وهو يهدف إلى معرفة النهج السَّوِى فى تفسير هذه الآيات الكريمة بما يتفق مع نظمها القرآنى، أو القلب البلاغى.

ومن المسلم به أن القرآن الكريم هو أسمى مراتب البيان، وأنه أعجز ببلاغية المخلوقات من إنس وجان، وأن علماء العربية على اختلاف ثقافاتهم، وتعدد اتجاهاتهم العلمية بذلوا جهودا مضنية للتعرف على أسرار إعجازه، والوقوف على كنه بيانه، وسحر حديثه، وفريد نظمه.. ولكن يبقى كتاب الله هو الكتاب، لا يحيط بأسرار إعجازه، وفيض بيانه إلا الله رب العالمين. وسبحان من هذا كتابه وكلامه!.

وفى كتب علماء اللغة والبيان وتفسير القرآن خلاف فى تأويل بعض آياته بما يتفق مع نظمها القرآنى، أو القلب البلاغى. الأمر الذى جعلنى أتتبع بالبحث والدراسة كثيرا من هذه التأويلات ثم أنتهى فى هذا البحث إلى أن تفسيرها بما يوافق النظم والصياغة هو المنهج السَّوِىّ والذى يجب أن يكون عليه التفسير.

والذين يقولون بالقلب فى تأويل هذه الآيات يتخذون من مأثور كلام العرب، أو نقول: من أمثلته المتكلفة أو المصنوعة نماذج يقيسون عليها فى

تأويل هذه الآيات القرآنية، وكان الأحرى بهؤلاء العلماء أن يتخذوا من أساليب القرآن ونظمه القاعدة والمصطلح، لا العكس.

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: «ويبدو أننا فى حاجة ماسة إلى إعادة النظر فى قواعد النحو المدرسية، وأحكام الصنعة البلاغية فى ضوء ما هدى ويهدى إليه التدبر الاستقرائى لكتاب العربية الأكبر فى بيانه المعجز، كما ننتفع بجهود المفسرين حين نعرض أقوالهم على القرآن الكريم؛ فنقبل منها ما يحتمله نصا وسياقا، ثم يكون إيرادنا للأقوال الأخرى التى لا يقبلها النص نصاً إلى أوجه الشطط فيها أو التكلف والاعتساف، وتنبيها إلى ما ينبغى من حذر وحرص؛ لاتقاء التورط فى مقحم التأويلات[1]» فهذا ما ينبغى أن يكون طلبا للسلامة فى التأويل.

وإذا كانت البلاغة تعنى «مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته» فإن على البليغ أن يراعى أحوال المخاطبين، فيورد كلامه مطابقا لها من: ذكر وحذف، وتقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وإيجاز وإطناب.. الخ.

واتفق علماء البلاغة على أنه قد يورد الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وذكروا لذلك صورا هى: وضع المضمر موضع المظهر، وعكسه، والالتفات، والأسلوب الحكيم، والالتفات، والقلب.

والعدول إلى هذه الصور لابد أن يكون لأغراض بلاغية، يقتضيها الحال والمقام، والعلماء بينوا المراد بهذه الصور، وذكروا لها الأمثلة من كلام الناس، ومن القرآن الكريم.

وهذا البحث - كما قلت - خاص بدراسة ما ذهب إليه عدد من العلماء عن القلب البلاغى فى بعض الآيات القرآنية. وهو يتكون من مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة. وبيانها على النحو التالى:

---

(١) التفسير البيانى للقرآن الكريم: ٢/٨.

مـقـدمـة : وبينت فيها الدافع إلى كتابة هذا البحث، وخطته .

تمهـيـد: بينت فيه المراد بالقلب البلاغى ، ومواقعه فى الكلام.

الفصل الأول : المجيزون للقلب البلاغى فى القرآن الكريم .

الفصل الثانى : المانعون للقلب البلاغى فى القرآن الكريم .

الفصل الثالث: أسباب الخلاف وأدلته بين المجيزين للقلب البلاغى والمانعين.

الفـصل الرابـع: مع المجـيـزين والمانعين للـقلب البـلاغى فى القـرآن تحليل ومناقشة وتقويم .

خاتمــة : وعرضت فيـها بإيجـاز لما جاء فى هذا البـحث ، ثم بينت أهم نتائجه.

والله المستعان ،

دكتور

مصطفى السيد جبر

تمهيد

المراد بالقلب البلاغي(*) :

أولا : عند علماء اللغة :

تدور كلمة «قلب» فى اللغة حول معان كثيرة، منها : تحويل الشيء وصرفه عن وجهه حسيا كان أو معنويا. وفى القرآن الكريم ﴿وقلّبوا لك الأمور﴾(١). وهذه بعض النصوص:

١- قال الأصمعى (ت٢١٣هـ): وقال الأشرم: أخبرنى أبو عبيدة قال: يقال: نُؤتُ بالحمل إذا نهضْت مثقلا، وناء بى الحملُ: إذا أثقلك وغلبك. وأنشدنى ابن الأعرابى:

إنِّي وجدِّك ما أقْضى الغرَيم إذَا ... حانَ القضاءُ وما رقَّتْ لهُ كبدى
إلاَّ عصَا أرزن(٢) طَارتْ بُرايتُها ... تنُوءُ ضربتُها بالكفِّ والعضُد

أى : تثقل ضربتُها الكف والعضُد

وشبيه بهذا البيت قوله تعالى: ﴿مَا إنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ﴾(٣). أى: تثقلهم»(٤).

فقد فسر الشطر الأخير من قول ابن الأعرابى، وكذلك الآية الكريمة بما يتفق مع النظم، دون قلب.

٢- وقال الجوهرى (ت ٢٩٨) :

يقال : ناءَ به الحِملُ إذا نهض به مُثْقَلا ، وناء به الْحِملُ إذَا أثقله، والمرأة

(*) هذا القلب موضعه الإسناد. أما القلب بين حروف الكلمة مثل: علم، وملع، ولمع وجذب، وجبذ؛ فإنه قلب لغوى، ولا يدخل فى هذا البحث. انظر. الخصائص: ٢/ ٦٩.

(١) سورة التوبة الآية: ٤٨. وأولها: ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبلُ﴾ وهى تبين حلقة من سلسلة غدر اليهود بالرسول ﷺ والمسلمين.

(٢) الأرزن شجر صلب تتخذ منه عِصىّ صُلبة.

(٣) سورة القصص الآية: ٧٦.

(٤) كتاب الأضداد عن الأصمعى (ناء): ٤٨ وهو ضمن: (ثلاثة كتب فى الأضداد).

تنوءُ عجيزتُهـا. أى : تُثقلُها، وهى تنوءُ بعجيزتهـا أى : تنهض بها مُثقلة، وأناءَهُ الْحمل.. أى: أثقلَهُ وأماله كمـا يقال : ذهب به وأذهبهُ بمعنًى. وقوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ قال الفراء[١]: أى لتُنىءُ بالعصـبة. تثقلها»[٢] وقال: «عرضت الحوض على البـعير، وهذا من المقلوب، ومعناه: عرضت الحوض على البعير..»[٣].

فقـد نقل الجـوهرى عن «الفراء» تفـسيـر الآية بما يتفق مع النظـم، وقال بالقلب فى المثال المأثور.

٣- وقال ابن منظور (ت ٧١١ هـ) :

القلب : تحويل الشيء عن وجهه : قلبـهُ يقلبهُ قلْبًا.. وقد انقلب، وقلب الشيء وقلَّبهُ حوَّله ظهرًا لبطن.. وكلام مقلوب[٤].

- وقال : «والعرب تقول: انتصب العودُ مع الحرباء[٥] على القلب، وإنما هو: انتصب الحـرباءُ فى العود. وذلك أن الحـرباء ينتصب، على الحـجارة، وعلى أجذال الشَجر، يستقبل الشمس؛ فإذا زالت زال معها مقابلا لها[٦]..

وقال:« وفى قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ﴾. قال نوءُها بالعصبـة: أن تثقلهم. والمعنى: إن مفاتيحه لتنوء بالعـصبة. أى تميلهم من ثقلها؛ فإذا أدخلتَ الباء قلـت: تنوءُ بهم.. وقال الفراء: وقال رجل من أهل العربية: ما إن العصبة لتنُوء بمفاتيحه؟ فحول الفعل إلى المفاتح».

فقد بين ابن منظور المراد بالقلب، واستشهد عليه بقول العـرب كما ذكر معنى الآية الكريمة بما يتفق مع النظم، واستشهد بقول الفراء.

٤- وقال الفيومى[٧] (ت ٧٧٠هـ):

---

(١) انظر ص : ٢٣ .
(٢) الصحاح (ناء).
(٣) المرجع السابق (عرض)
(٤) لسان العرب : (قلب).
(٥) حكاه أبوزيد عن العرب فى كتاب :« النوادر فى اللغة»: ٤٠٩ .
(٦) لسان العرب: (حرب).
(٧) هو أحمد بن محمد بن علي المقرى الفيومى. نسبة إلى «فيوم» العراق (ت ٧٠٧هـ-١٣٦٨هـ).

«قلبتُه قلبًا من باب ضرب: حولتهُ عن وجهه، وكلام مقلوب: مصروف عن وجهه. وقلبتُ الرداء: حوَّلتهُ، وجعلت أعلاه أسفله.. وقلَّبتُ بالتشديد فى الكل مبالغة وتكثير، وفى التنزيل: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾.

فمادة (قلب) ومشتقاتها يدور معناها حول تحويل الشيء وصرفه عن وجهه، حسيًّا كان أو معنويا، فقد فسر علماء اللغة كثيرا من النصوص بما يتفق مع النظم، وفسر بعضها على القلب واستشهدوا بكلام العرب، وبنصوص من التراث العربى.

ثانيا : عند علماء البلاغة :

والقلب عند علماء البلاغة هو : «أن يجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكانه»(١).

وبينه السبكى (ت ٧٧٣هـ) بقوله: «أى يجعل متصفا كل منها بصفة الآخر وحكمه، لا مجرد الوضع موضعه مع بقاء كل منهما على حكمه الأصلى»(٢).

ويخرج بهذا التعريف الأمور التالية :

أولا : التقديم والتاخير. ففى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾(٣) قدم «له» على «الخلق» مع بقاء الموقع الاعرابى لكل منهما. فـ«له» خبر مقدم، و«الخلق» مبتدأ مؤخر، وكذا الحال فى قوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ﴾(٤).

ثانيا : البناء لما لم يُسمَّ فاعله. ففى نحو: بُنى المنزل، وغُرست الأشجارُ جذف الفاعل، وأسند الفعل إلى ما كان مفعولا به؛ فجرى عليه أحكام الفاعل.

ثالثا : العكس. وهو أن يقدم فى الكلام جزء ثم يؤخر، ويقع على وجوه ومنها :

---

(١) المطول : ١٣٧ ، وانظر. شرح عقود الجمان: ١/ ١٢ .
(٢) عروس الأفراح: ٤/ ١١٢ ضمن (شروح التلخيص).
(٣) سورة الأعراف الآية: ٥٤ . (٤) سورة الروم الآية : ٤ .

- أن يكون بين طرفى جملة، وما أضيف إليه مثل : عاداتُ السادات ساداتُ العادات.

- أو يكون بين متعلقى فعلين فى جملتين، كقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[1].

- ومنها أن يقع بين لفظين فى طرفى جملتين، كقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[2]»[3].

فهذه الوجوه ليست من القلب، ولكنها من العكس، وقد ذكر منه لمحات فى علم البديع.

وهذه الانواع خارجة عن القلب بقولهم فى تعريفه «مع بقاء كل منهما على حكمه الأصلى».

-٢-

وعرف القلب عند بعض العلماء بالتحويل، كما عرف بالعكس أيضا.

- فأبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ) يقول: «ومما فى القرآن مما يجئ مثله فى كلام العرب من التحويل كقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾[5] وإنما العصبة تنوء بالمفاتيح ومن كلام العرب: إن فلانَة لتنوءُ بهـا عجيزتُها. أو يقول: أدخلتَ القلنسوة فى رأسى، وأدخلت الخف فى رجلى..»[6].

وأبو حيان : (ت ٧٥٤هـ) يجعل العكس مرادفا للقلب ؛ ففى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[7] يقول: «.. ولا يجوز ادعاء القلب إلا فى ضرورة الشعر، وأما هنا فالمعنى فى غاية الصحة بلا عكس، ولا

---

(١) سورة يونس الآية : ٣١ . (٢) سورة البقرة الآية: ١٨٧ .

(٣) انظر الايضاح بشرح الشيخ عبد المتعال الصعيدى (بغية الإيضاح : ٤/ ٢٧ .

(٤) انظر. مفتاح العلوم : ٤٦٤-٤٨٩، والإيضاح ٤/ ٢٦ ، والمطول ٤٢٤ .

(٥) سورة القصص الآية: ٧٦ .

(٦) ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد: ٣٨-٣٩. (٧) سورة الرعد الآية: ٣٨.

قلب . . . »(١).

وفي قوله تعالى : ﴿إنما مَثَلُ الحياة الدُّنيا كماء أنزلناهُ من السَّماء فاختلط به نباتُ الأرض﴾(٢) يقول القاضي البيضاوي (ت ٦٩١هـ) «فالتَّف بسببه، وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه، أو نجع في النبات حتى روى ورفً. وعلى هذا كان حقه: فاختلط بنبات الأرض لكن لما كان كل من المختلطين موصوفا بصفة صاحبه عكس؛ للمبالغة في كثرته».

ويبينه الشهاب الخفاجي بقوله: «والمراد بالعكس في كلامه: القلب؛ لأنه يستعمل بمعناه»(٣).

-٣-

ويتردد القلب ضمن مباحث علوم البلاغة: المعاني، والبيان، والبديع، وهذا ما جعل الشيخ مخلوف المنياوي يقول: «ورأيت ابن جماعة(٤) قال في حواشي التبريزي: اعلم أن القلب ذكر في أماكن خمسة. هذا، وهو في المعاني، والثاني في فن البيان في بحث التشبيه المقلوب، والثالث في التجنيس، والرابع في البديع في غير التجنيس، والخامس في بحث السرقة «ثم يعترض على هذا التفريق بقوله: «ولك أن تقول: أي فرق بين هذه الصور القلبية حتى صار بعضها من المحسن الذاتي، ومن صميم البلاغة»(٥).

وهو يقصد بهذا البعض ما ورد من القلب في علمي المعاني والبيان. ولذا فإنه لقي نوعا من العناية والاهتمام.

---

(١) البحر المحيط: المجلد الخامس: ٣٩٧ وانظر كتاب التسهيل لعلوم التنزيل للإمام: محمد بن أحمد بن جزي: ٣/ ١٣٦.

(٢) سورة الكهف الآية: ٤٥.

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي: ٦/ ١٠٥.

(٤) هو محمد عز الدين بن أبي بكر بن عبد العزيز، ولد بينبع. أخذ عن «ناظر الجيش» وغيره. له مؤلفات كثيرة منها: حاشية على المغني لابن هشام، وحاشية على شرح التوضيح. توفي سنة ٨١٩هـ.

(٥) حاشية الشيخ مخلوف المنياوي: ٩٣.

-٤-

ولأسلوب القلب مواقعة[1] فى كلام العرب وهذه بعضها:

١- بين الفاعل والمفعول كما فى «تهيبتْنى البلادُ» وقال الشاعر :

ولا تهيَّبُنى المَوْماةُ أركبها ... إذا تجاوبتِ الأصداءُ بالسَّحرِ[2]

فالبلاد والموماة لا تتهيبان أحدا.

٢- بين المفعول به وغيره من التوابع مثل: أدخلتُ القلنسوة فى رأسى».

وقال الشاعر:

حسرتُ كفى عن السِّر بال آخذُه ... فرداً يجر على أيدى المفُدينَا

الأصل: حسرت السِّر بالَ عن كفى[3].

٣- بين معمولى الناسخ كقول القطامى:

قفى قبل التفرق يا ضُباعا ... ولايكُ موقفٌ منكِ الوَدَاعا

التقدير: ولايكُ الوداعُ موقفًا منك[4].

---

(١) ورد القلب بعامة فى كتب البلاغة على النحو التالى:

١- الجزء الأكبر منه درس ضمن «صور تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر» فى علم المعانى.

٢- ودرس «التشبيه المقلوب» ضمن مباحث التشبيه فى «علم البيان» هذا مع أنه وردت له أمثلة فى «علم المعانى».

٣- وورد القلب على أنه صورة من صور الجناس الناقص فى «علم البديع»، كما ورد محسنا مستقلا فى هذا العلم.

٤- ورد فى السرقات. ومن أمثلته قول أبى الشيص:

أجدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذةً ... حُبًّا لذكركِ فليلُمنى اللُّوَّمُ

وقول أبى الطيب:

أُحبه وأحبُ فيه ملامةً ... إن الملامةَ فيه من أعدائه

فالأول يجب الملامة فى الممدوح، والثانى يكرهها؛ لأنها من أعدائه ينظر. الإيضاح: ١/١٤٧-١٦٨، ٣/٤٣، ٤/٨٤، ١٠٠.

(٢) انظر كتاب الأضداد لابن الأنبارى: ٩٩.

(٣) انظر: الصاحبى: ٣٣١، وجامع البيان من تأويل آى القرآن. المجلد التاسع: ١٧/٨٢.

(٤) المطول: ١٣٨، وخزانة الأدب لابن حجة: ٢/٣٦٧.

٤- بين جزئى المتضايفين المكررين كقول النابغة :

لقد خفتُ حتى ما تزيد مخافتى   عل وعلٍ فى ذى المطارَة عاقلُ

الأصل : حتى ما تزيد مخافة وعلٍ على مخافتى[1].

٥- بين السبب والمسبب، ومثاله :

يمشى فيقعسُ أو يُكبُّ فيعثُر

أرد : يعثر؛ فيكَب. والفاء للسببية.

إلى غير ذلك من مواقع القلب فى الأساليب العربية.

★ ★ ★

هذه لمحة عن القلب البلاغى فى كلام العرب؛ فقد جرى على ألسنتهم ووقع فى أدبهم اختيارا، واضطرارا، وعلى سبيل السهو أو الغلط.. الخ.

والقلب عندهم كان فنا أدبيا، ومن مظاهر تصرفهم فى فنون القول، ولكنه عرف عندهم بالمثال والشاهد، لا بالقاعدة والمصطلح، ولما جاء عهد التدوين درست أمثلة القلب واختلفت آراء العلماء فيه. هذا فى كلام العرب.

أما القرآن الكريم فإن العلماء اختلفوا فى تأويل بعض الآيات التى دار حولها القلب البلاغى، فكانوا بين مجيزين له، ومانعين، فلكل فريق تأويله وأدلته ولكن أدلة المجيزين لا تقف أمام أدلة المانعين وسيتبين ذلك من متابعة هذا البحث. والله المستعان.

(١) معانى القرآن: ٢/ ٩١.

(٢) مفتاح العلوم: ٢١١، ومعاهد التنصيص: ١/ ١٧٨.

الفصل الأول
المجيزون للقلب البلاغى فى القرآن الكريم

المجيـزون لهذا القلب فـى القرآن الكريم كـثير من الـعلماء؛ فالـنصوص القرآنية التى دار حـولها الخلاف بين العلماء فى التـفسير بما يتـفق مع نظمها القرآنى أو القلـب البلاغى يفسـرها كثيـر من العلماء بهـذين الأمرين، وهم يبدؤن بالتفسير بالنـظم، وفى هذا ما يقلل من شأن القلب حيث كان عندهم رأيا آخر أو رأيا مرجوحا. وقد استـشهدوا على الأمرين بمأثور كلام العرب، وسأبين فى هذا الفصل آراء طائفة من العلماء منذ عـهد التدوين وإلى عهدنا الحاضر، وذلك من خلال مؤلفاتهم التى لها صلة بموضوع هذا البحث.

أولا: عبد الله بن عباس (ت ٧٠هـ):

أبدأ بإمام المفسرين عبدالله بن عـباس بن عبد المطلب والذى نشأ فى بيت النبوة، ولازم بعد كبار الصحابة، وأتقن اللغة العربية، وحفظ غريبها وأدبها، ولذا فإنه كـان يحض على تعلم الشـعر، ويخـصص لدراسته يومـا من أيام الأسبـوع وقد أثر عن ابن عبـاس كثيـر من تفسـير النصوص من كـتاب الله تعالى. وتبدو أهمية المأثور من تفسـيره من قول عمر ﷺ «ابن عباس أعلم أمة محمد بما نُزل على محمد»؛ ولذا رجع إليه كثير من الصحابة فيما أشكل عليـهم فى تأويل الآيات، وقد كـثرت الروايات عن ابن عـباس، وتـعددت طرقها[1] وسـأرجع فيـمـا أثر عنه أولا إلى بعض كـتب التفـسـير والحـديث الشريف للتعرف على رأيه في الآيات التى قيل فيها بالقلب البلاغى.

فى قوله تـعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾[2] يقول البخارى: «قال ابن عباس «أولى القوة» لا يرفعها العصبة من الرجال، لتنوءُ: لتُثقل»[3].

(١) أسد الغـابة: ٣/ ٩٢٠، والتفسير والمفسـرون: ١/ ٧٠، وخطوات التفـسير البـيانى: ١٦-٢٢.

(٢) سورة القصص الآية: ٧٦.

(٣) صحيح البخارى. المجلد الثانى. كتاب التفسير: ٦/ ١٤١.

ويقول الألـوسى (ت١٢٧٠هـ): «(تنوء) من ناء به الحملُ إذا أثقله حتى أماله، فـالباء للتـعدية كمـا فى ذهبتُ به. وروى معناه عن ابن عـباس وأبى صالح والسدى»[١]. وقال الواحدى (ت ٤٦٨هـ): «لتُثقلهم حمل المفاتيح»[٢] فهذا التفسير يوافق نظم الآية الكريمة.

وفـى قـولـه تعالـى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[٣] يقـول الطبرسـى (ت ٥٤٨ هـ): «وتأويله: منعناهن منه، وبغضناهن إليه عن ابن عباس»[٤].

فقد فسر تحريم الرضاعة هنـا بالمنع والتبغيض؛ لأن التحريم بمعناه الشرعى لا يكون قبل البلوغ. وهذا التفسير يناسب نظم الآية، وينافى القلب.

وفى قوله تـعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[٥] يقول ابن عـباس: «لكل كـتاب أجل. مقدم ومؤخر»[٦] والتقديم والتأخير من بلاغة النظم القرآنى.

وورد عن ابن عـبـاس تفسـيـر بعض الآيات على القلـب البـلاغى؛ فالزمخـشرى يفسر قـوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾[٧] أولا موافقا لنظم الآية، ثم يذكر رأيا آخر، فيقول: « ويجوز أن يراد: عرض النار عليهم؛ فقلبوا. ويدل عليه تفسيـر ابن عباس رضي الله عنهما: يجاء بهم إليها؛ فيكشف لهم عنها»[٨] فالمعنى على هذا: ابراز النار وإظهـارها إلى الكفار. وهو يتفق مع القلب البلاغى.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾[٩]. يـقـول الألوسـى: «أى فكثـر بسبـبه «نـبات الأرض»

(١) روح المعانى: ٢٠/ ١١١.

(٢) تحقيق ودراسة لغوية للجزء السادس من البسيط للواحدى ت ٤٦٨. المجلد الثانى: ٨٩٥ رسالة دكتوراه بمكتبة كليـة الدراسات الإسلامية والعربية للدكتور: محمد حسن عثمان. وانظر. تفسير ابن عباس ومروياته فى التفسير من كتب السنة: ٢/ ٧٠٧.

(٣) سورة القصص الآية: ١٢.

(٤) مجمع البيان: ٢٠/ ٢٧١.

(٥) سورة الرعد الآية: ٣٨.

(٦) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: ١٥٩.

(٧) سورة الاحقاف الآية: ٢٠.

(٨) الكشاف: ٣/ ٢٣٠، وانظر. مبحث الزمخشرى ص: ٣٤.

(٩) سورة يونس الآية: ٢٤.

حتى ألتفّ بعضه ببعض؛ فالباء للسببية. ومنهم من أبقاها على المصاحبة، وجعل الاختلاط بالماء نفسه؛ فإنه كالغذاء للنبات؛ فيجرى فيه ويخالطه. والأول هو الذى يقتضيه كلام ابن عباس ﷺ»[1].

ذكر الألوسى معنيين: الأول: كثرة النبات بسبب الماء، فالباء للسببية، والمعنى معها على القلب البلاغي وهو ما يقتضيه كلام ابن عباس ﷺ.

وأما الثانى فهو جار على نظم الآية الكريمة، لأن الشيئين المختلطين إذا قدم أحدهما على الآخر كان فى موضعه؛ ولذا كان المراد بالباء فى «به»: المصاحبة.

فابن عباس فسَّر كثيرا من الآيات بما يقتضيه النظم القرآنى، كما ورد عنه تفسير بعض الآيات على القلب البلاغى.

ثانيا: أبو عبيدة (ت ٢٠٩هـ):

ألف أبو عبيدة معمر بن المثني كتابه «مجاز القرآن» عام ثمان ومائة من الهجرة وهو يعني بلفظ مجاز: طريق التعبير، وأسلوب الأداء، سواء كان ذلك ببيان المعنى اللغوى، أو بالتقديم والتأخير أو التشبيه. الخ، وليس المراد به: المجاز المقابل للحقيقة عند علماء البيان. والكتاب حافل باللمحات والمسائل البلاغية، وله منزلته فى اللغة والبيان.

وأما الآيات القرآنية التى اختلف العلماء فى تأويلها. بالنظم أو القلب البلاغى فإن أبا عبيدة فسر قدرا كبيرا منها بالنظم، وبعضا آخر بالقلب وهذه امثلة من كتابه «مجاز القرآن».

-١-

فى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[2] يقول أبو عبيدة: «أى قبلها، وأخذها عنه»[3] فآدم -عليه السلام- هو الذى تلقى الكلمات. وهذا التأويل يوافق القراءة برفع آدم، ونصب كلمات.

---

(١) روح المعانى: ١١/ ١٠٠.
(٢) سورة البقرة الاية: ٣٧.
(٣) مجاز القرآن: ١/ ٣٨.

وفى قوله تعالى: ﴿**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله**﴾[١] يقول أبو عبيدة: «مقدم ومؤخر؛ لأن الاستعاذة قبل القراءة»[٢]. ومعلوم أن التقديم والتأخير من بلاغة النظم القرآنى، وله أسراره ولطائفه البيانية.

ويقول فى قوله تعالى: ﴿**آتونى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً**﴾[٣] «أى أصب عليه حديدا ذائبا»[٤].

ويفسر أبو عبيدة قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾[٥] بقوله: «وإنه من أجل حب الخير لشديد. لبخيل يقال للبخيل: شديد، ومتشدد. قال طرفة[٦]:

أرى الموتَ يعتامُ النُّفوسَ ويصطفى عقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشدِّدِ

ويروى: يعتام الكرام»[٧].

فقد فسرت هذه النصوص الكريمة بما يتفق مع نظمها القرآنى.

-٢-

وفى قوله تعالى: ﴿**خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾[٨] يقول أبو عبيدة: «مجازه: خلق العجل من الإنسان، وهى العجلة. والعرب تفعل هذا إذا كان الشيء من سبب الشيء بدءوا بالسبب. وفى آية أخرى: ﴿**ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعُصْبة أُولى القُوَّة**﴾[٩]. والعصبة هى التى تنوء بالمفاتيح ويقال: إنها لتنوء عجيزتها. والمعنى: إنها هى التى تنوء بعجيزتها. قال الأخطل[١٠]:

مثل القنافذ هدَّاجون قد بلغتْ نجران أو بلغتْ سوءاتُهمْ هجر

(١) سورة النحل الآية: ٩٨.
(٢) مجاز القرآن: ١/ ٣٦٨.
(٣) سورة الكهف الآية: ٩٦.
(٤) مجاز القرآن: ١/ ٤١٥.
(٥) سورة العاديات الآية: ٨.
(٦) انظر جامع البيان: ٣٠/ ١٥٤، والكشاف: ٤/ ٢٧٩.
(٧) مجاز القرآن: ٢/ ٢٠٧.
(٨) سورة الأنبياء الآية: ٣٧.
(٩) سورة القصص الآية: ٧٦.
(١٠) ديوانه: ١١٠، والوساطة: ٤٨٢، وأمالي الشريف المرتضى: ٢/ ١١٦، وأمالي ابن الشجري: ١/ ٣٣٠، وتأويل مشكل القرآن: ١٩٤.
هدَّاجون. أي يسيرون على مهل. يريد: أنهم يتلصَّصون.

إنما السوءةُ البالغة هجر. وهذا البيت مقلوب، وليس بمنصوب»[١].

فالمعنى عند أبى عبيدة: خلق العجل من الإنسان. على طريق القلب، واستشهد عليه بالآية الثانية وقدرها أيضا على القلب، ثم استشهد على هذا بالمأثور شعرا ونثرا.

ويبين أبوعبيدة هذا المعنى مرة أخرى عند قوله تعالى: ﴿**مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**﴾ فيقول: «أى مفاتيح خزائنه، ومجازه: ما إن العصبة ذوى القوة لتنُوء بمفاتيح نعمه. ويقال فى الكلام: إنها لتنُوء بها عجيزتُها، وإنما هى تنوء بعجيزتها كما ينوءُ البعير بحمله. والعرب قد تفعل هذا.

قال الشاعر:

فديتُ بنفسه نَفْسى ومالى ... وما آلُوك إلاَّ ما أطُيقُ[٢]

والمعنى: فدبت بنفسى وبمالى نفسه وماله.. ويقال: اعرض الناقة على الحوض، وإنما يعرض الحوض على الناقة»[٣].

فقد استشهد بكلام العرب على القلب فى معنى الآية الكريمة. وأشار إلى أصل الكلام قبل القلب، فالمرأة هى التى تنُوء بعجيزتها لا العكس، والحوض هو الذى يعرض على الناقة؛ إذ الشأن فى المعروض عليه أن يكون من أهل الشعور والإرادة، ليقبل أو يرفض؛ فلهذا كان القلب.

وفى قوله تعالى: ﴿**أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ**﴾[٤] يقول أبو عبيدة: «أى بلغتُ الكبر. والعرب تصنع مثل هذا. تقول: هذا القميص لا يقطعُنى. أى أنت لا تقطعه: أى أنه لا يبلغ ما أريد من تقدير»[٥] فقد جعل

---

(١) مجاز القرآن: ٢/ ٣٩.

(٢) وقبله:

فلو أنى شهدت أبا سُعاد ... غداةَ غدًا لمُهجته يفُوقُ

نقد الشعر: ٢٠٩، والموشح: ١٠٩، وسِّر الفصاحة: ١٠٤، وخزانة الأدب لابن حجة: ٢/ ٤٤٤، ومعاهد التنصيص: ١/ ١٧٨.

(٣) مجاز القرآن: ٢/ ١١٠.

(٤) أول الآية: ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ**﴾ سورة آل عمران الآية: ٤٠.

(٥) مجاز القرآن: ٢/ ٩٢.

زكريا - عليه السلام- هو الذى بلغ الكبر، لا العكس. واستشهد أيضا عليه بكلام العرب.

فالآيات القرآنية التى هى موضع خلاف بين العلماء فى التفسير بما يوافق النظم أو القلب فسر أبو عبيدة قدرا كبيرا منها بالنظم، وبعضا آخر على القلب واستشهد على الأمرين بمأثور كلام العرب.

ثالثا: الفراء (ت٢٠٧هـ):

كان أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء[١] معاصرا لأبى عبيدة وهو من أعلام المذهب الكوفى، ولكتابه: «معانى القرآن» أثر كبير فى البحث اللغوى، وله كذلك أهميته فى ميدان البحث البلاغى، وموضوع الكتاب «توجيه النص القرآنى من حيث القراءات الواردة فيه، والوجوه الإعرابية الجائزة فى التنزيل وبيان المعنى المختلف فيه باختلاف القراء والإعراب»[٢] وللقراءات دورها فى توجيه المعنى وإثراء البحث البلاغى.

وفى هذا الكتاب لمحات بلاغية كثيرة، وفيه بيان للنصوص القرآنية بما يتفق مع النظم وتأويل لبعضها بالقلب البلاغى.

وهذه أمثلة تبين ذلك:

-١-

قوله تعالى: ﴿**خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾[٣] يفسره الفراء بما يتفق مع النظم؛ ولذا يتبعه بقوله: «وعلى عجل. كأنك قلت: بنيته وخلقته من العجلة، وعلى العجلة»[٤] «فقد حمل لفظ «عجل» على المبالغة كما ذهب إليه ابن جنى (ت ٣٩٢هـ) وغيره، وهو تفسير يوافق النظم.

وفى قوله تعالى: ﴿**فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾[٥] يقول الفراء:

---

(١) تأثر الفراء بأبى عبيدة، ولذا أخرته عن صاحبه ليبدو التسلسل فى عرض هذه الفكرة البلاغية، ويتبين موقف الفراء منها.

(٢) المجاز فى اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع: ٢/ ١٨.

(٣) سورة الأنبياء الآية: ٣٧.

(٤) معانى القرآن: ٣/ ٢٠٣.

(٥) سورة البقرة الآية: ٣٧.

«(آدمُ) مرفوع، والكلمات في موضع نصب. وقد قرأ بعض القراء[١]: فتلقَّى آدمَ منْ ربه كلماتٌ. فجعل الفعل للكلمات. والمعنى -والله أعلم- واحد؛ لأن ما لقيكَ فقد لقيته، وما نالك فقد نلته. وفي قراءتنا: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٢] وفي حرف عبدالله: «لا ينال عهدي الظالمونَ»[٣].

فقد ذكر الفراء أن المعنى واحد في القراءتينُ واستشهد بالمعنى اللغوي لكلمة «تلقى» وذكر أنها تفيد اشتراك الطرفين في اللقاء، ثم استشهد بقراءة عبدالله في الآية الثانية. وهذا ليبرر القلب في القراءة الشاذة: قال ابن الضائع[٤]: «ولقرب هذا المعنى قرئ بالقلب»[٥].

ولكن ثمة فرق بين القراءتين. فالمعنى على قراءة الجمهور: «قبلها- آدم- وأخذها عنه» وعلى هذه القراءة: هو: «نيل آدم بسببها رحمة الله وتوبته»[٦] والقراءة بعد شاذة. وتوجيهها بما ذكره الفراء حجة أيضا لمن فسر المعنى بما يتفق مع النظم. وسنبين ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[٧] يقول الفراء: «جاء في التفسير

---

(١) اختلف في قراءة: «آدم من ربه كلمات» فابن كثير بنصب «آدم» ورفع «كلمات» على إسناد الفعل إلى الكلمات، وإيقاعه على «آدم» فكأنه قال: فجاءت كلمات، ولم يؤنث الفعل لكونه غير حقيقي، وللفصل - بين الفعل والفاعل- وافقه ابن محيصن. والباقون برفع «آدم» ونصب «كلمات» بالكسرة إسنادا له إلى «آدم» وإيقاعا له على الكلمات. أي أخذها بالقبول، ودعابها.

إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: ١/ ٣٨٨، وانظر. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١/ ١٣٠.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٢٤.

(٣) هي قراءة قتادة وأبو رجاء والأعمش. انظر المحرر الوجيز: ١/ ٢٠٧ والبحر المحيط: ١/ ١٦٥.

(٤) هو أبو الحسن علي بن محمد الأشبيلي الكتامي. لازم الشلوبيني وأخذ عنه كتاب سيبويه بين قراءة وسماع ثم فاق أترابه وأبدع في التصنيف. له شرح على سيبويه وشرح على الجمل الكبيرة للزجاجي. توفي سنة ٦٨٠هـ. انظر. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة: ٢٢٢.

(٥) المحرر الوجيز: ١/ ١٣٠.

(٦) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٢٩٠.

(٧) سورة الرعد الآية: ٣٨.

لكل كتاب أجل[١]. ومثله: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾[٢] وذلك عن أبى بكر -رحمه الله- وجاءت سكرة الموت بالحق[٣]. لأن الحق أتى بها، وتأتى به[٤]، فكذلك تقول: لكل أجل مؤجل، ولكل مؤجل أجل. والمعنى واحد والله أعلم»[٥].

وفى سورة «ق» يقول الفراء: «وفى قراءة عبدالله[٦]: سكرة الحق بالموت. فإن شئت أردت بالحق: أنه الله -عزوجل- وإن شئت جعلت السكرة هى الموت، أضفتها إلى نفسها كأنك قلت: جاءت السكرة الحق بالموت.

وقوله: ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ يقول: بالحق الذى قد كان غير متبين لهم من أمر الآخرة، ويكون الحق هو الموت. أى جاءت سكرة الموت بحقيقة الموت»[٧].

فقد نقل الفراء عن العلماء فى تفسير آية الرعد ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ وأورد لها نظيرا هو قراءة: «وجاءت سكرة الحق بالموت» على أن الحق هو الله تعالى، أو أن المراد بالسكرة: الموت؛ فتكون أضيفت إلى نفسها، كأنك قلت: جاءت السكرة بالموت. وعلل القلب فى هذه القراءة بقوله: «لأن الحق أتى بها، وتأتى به..»

قال ابن عطية (ت ٥٤٦هـ): «وفى إضافة السكرة إلى اسم الله تعالى بعد وإن كان ذلك سائغا من حيث هى خلق له، ولكن فصاحة القرآن واضحة لا يأتى فيه هذا»[٧].

---

(١) هو تفسير الضحاك بن مزاحم. انظر جامع البيان للطبرى. المجلد السابع: ١٣/١١١. تفسير القرآن العظيم: المجلد الرابع: ٢٨٩.

(٢) سورة ق الآية: ١٩.

(٣) صحة القراءة: «وجاءت سكرة الحق بالموت». المحتسب: ٢/٢٨٣، تفسير الطبرى: ٢٦/٩١.

(٤) فى هذا التوجيه حجة لمن يفسر القراءة بما يتفق مع النظم.

(٥) معانى القرآن: ٣/٧٨.

(٦) هو عبدالله بن مسعود وهى قراءة سعيد بن جبير وطلحة. وقرأها كذلك أبوبكر لابنته عائشة -رضي الله عنها- عند موته.

(٧) المحرر الوجيز: ٥/١٦١، والكشاف: ٤/٧.

ويعرض الفــراء للقراءات فى قــوله تعالى: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ من قــوله سبحانه حكاية عن نوح عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾(١) والمراد: فعميتْ الرحمة أو البينة أو كل منهما عليكم.

يقول الفــراء «قرأها يحيى بــن وثاب والأعمش وحمــزة وهى قراءة أبيّ: «فعماَّها عليكم»(٢). وسمــعت العرب تقول: قــد عُمِّى على الخبــر، وعَمِى عليَّ بمعنى واحــد. وهذا مما حولت العــرب الفعل إليــه، وليس له وهو فى الأصل لغيره. ألا ترى أن الرجل الذى يعْمى عن الخير، أو يعمى عنه ولكنه فى جوازه مثل قــول العرب: دخل الخاتم فى يدى، والخف فى رجلى وأنت تعلم أن الرِّجل التى تدخل فى الخف، والإصبع فى الخاتم؛ فاستخفوا بذلك إذا كان المعنى معروفا، لا يكون لذا فى حال، ولذا فى حال إنما هو لواحد؛ فاستجازوا ذلك لهذا. وقراءة العامة: فعَميتْ».

ذكر الفــراء قراءتين وأشــار إلى الثالــثة، وهذه القــراءات هى: «فَعَمَّــاها عليكُمْ»، و«فعُــمِّيَتْ» بضم العــين وتشديد الميم مكســورة، و« فعمــيتْ بفتح العين وكسر الميم دون تشديد. واستشــهد لقراءة البناء للمجهول بما نقل عن العرب استخفافــا للنطق، إذ المعنى معروف؛ فلا لبس. ورأى الفراء أن هذه القراءة على الــقلب وقد كان لهــذا الرأى صدى عند كــثير من الــعلماء وفى مقدمتهم ابن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ)، وأبى على الفارسى (ت ٥٤٦هـ)، وابن عطية الأندلسى (ت ٥٤٦هـ).

وهذه القراءة ليست من القلب ، ولكنهــا من بناء الفعل ما لم يُسمَّ فاعله ثم إن تعدية الفعل «عمِى» بالحرف «علَى» يبعده عن القلب أيضا.

(١) سورة هود الآية : ٢٨ .

(٢) قرأ حفص وحــمزة والكسائى وخلف بضم العين وتشديد الميم أى: عــمَّاها الله عليكم، وقرأ به أبَى. وافــقهم الأعمش والبــاقون بفتح العين وتخــفيف الميم مبنيــا للفاعل، وهو ضمير البينة. أى: خفيت. إتحاف فضلاء البشر: ٢/ ١٢٤.

-٣-

ويجمع الفـراء بين التفسير بما يوافق النظم، والقلب؛ ففي بيـانه لقوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ يقول:

«نوء العصبة: أن تثقلهم. والعصبةَ ها هنا: أربعون رجلا، ومفاتحه: خزائنه. والمعنى: ما إن مفاتحه لتُنيءُ العصبةَ. أى تميلُهم من ثقلها، فإذا أدخلت البـاء قلت: تَنُوءُ بهم، وتُنِئُ بهم كما قـال: ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[1] والمعنى: إيتونى بقطر أفرغ عليه ومثله: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾[2] معناه: فجاء بها المخاض[3]. وقال رجل من أهل العربية[4] إن المعنى: ما إن العصبة لتنوءُ بمفاتحه، فحول الفعل إلى المفاتيح كما قال الشاعر[5]:

إن سـراجـا لكـريم مـفـخـرة تحلى به العين إذا مـا تجـهـره

وهو الذى يحلى بالعين، فإن كان سمع بهذا أثرا فهو وجه، وإلا فإن الرجل جهل المعنى»[6].

فقد فسر قوله: «لتنوء بالعصبة» بما يتفق مع النظم؛ فقال: لَتُنيءُ العصبةُ: أى تميلهم من ثقلها» وهذا على جعل الباء فى «بالعصبة» للتعدية وأورد نظيرا لها وهو تعدية «جاء» بالهمزة فى آية مريم.

وفسر الفراء آية الكهف على القلب؛ فقال: «المعنى: إيتونى بقطر أفْرغ عليه» والحق أنه من باب التنازع وهو «أن يتقدم عاملان أو أكثر، ويتأخر معمول أو أكثر، ويكون كل من المتقدم طالبا لذلك المتأخر. مثال تنازع العاملين معمولا واحدًا قوله تعالى: ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾»[7].

فالفعل: «آت» من «آتونى» يطلب «قطرا» على أنه مفعول ثان، و«أفرغ»

---

(١) سورة الكهف الآية: ٩٦. (٢) سورة مريم الآية: ٢٣.

(٣) قال الزمخشرى: «أجاء. فنقول من «جاء» إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء. ألا تراك لا تقول: جئت المكان، وأجاء فيه زيد كما تقول: بلغته وأبلغنيه» الكشاف: ٢/ ٥٠٦. (٤) يقصد أبا عبيدة. انظر: مجاز القرآن: ٢/ ١١٠.

(٥) انظر جامع البيان المجلد الثانى: ١٩٨.

(٦) معانى القرآن: ٢/ ٣١٠، وانظر: ١/ ٩٩، ١٣١.

(٧) قطر الندى وبل الصدى: ٢٧٥.

يطلبه على أنه مفعول به أول. وقد أعمل الثاني، وحذف ضميره من الأول؛ لأنه فضلة. ولو أعمل الأول لذكر ضميره فى الثانى وقيل: أفرغه»[١] وإعمال الثانى أولى لقربه من المعمول وهو رأى علماء البصرة، واختار الكوفيون إعمال الأول. قال ابن مالك:

إنْ عَاملان اقْتضَيَا فى اسْمٍ عَملْ   قبلُ فللواحد منهُمَا العَملْ
وَالثَّانِ أولَى عِنْد أهْلِ البَصْرة   وَاخْتَارَ عكْسًا غَيرهُم ذَا أسْرَةْ

فعلى هذا الآية من التنازع، لا من القلب البلاغى فالفراء بين بعض الآيات القرآنية بما يتفق مع النظم، وقال بالقلب فى بعض الآيات كما حكاه عن غيره محتجا بكلام العرب، وجمع فى بيانه لبعض الآيات بين الأمرين، وكان لما ذكره الفراء صدى عند كثير من العلماء الذين تلقوا كثيرا من آرائه بالقبول، وبعضها بالدراسة والنقد.

رابعا: أبو حاتم السجستاني (ت٢٥٥هـ):

كتب الأصمعى (ت٢١٣هـ) «كتاب الأضداد» وذهب فيه إلى التفسير بما يتفق مع النظم فى قوله تعالى: ﴿مَا إنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ﴾[٢]. فقال: «أى تثقلهم»[٣].

وجاء أبو حاتم فصنف «كتاب الأضداد» وسار فيه على نهج الأصمعى فى كتابه كما أضاف أبو حاتم إلى مادة كتابه العلمية الكثير من قراءاته وتأملاته. وقد ورد ذكر القلب عنده فى موضعين؛ فهو يقول:

١- «ناء. وقالوا: ناء بزيد الحملُ إذا ناء زيد بالحملِ. وقال تعالى: ﴿مَا إنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ والعصبة تنوء بها»[٤].

---

(١) منار السالك إلى أوضح المسالك: ١/ ٢٩٥، وانظر: شذور الذهب: ٤٢١.
(٢) سورة القصص الآية: ٧٦.
(٣) انظر ص: ٧٠. وقد نقل هذا المعنى أيضا ابن السكيت» فى «كتاب الأضداد»: ١ :٢ «ضمن ثلاثة كتب فى الأضداد».
(٤) كتاب الأضداد: ١٢٩ ضمن (ثلاثة كتب فى الأضداد).

٢- وقال: «ناء. قال أبو حاتم. يقال: ناء بي الحملُ نوءًا في معنى: نُؤْتُ به. أي نهضت به متثاقـلا، وهو شبيه بقولهم: تهيبَتْني البـلادُ. إذا تهبتَها.. وقالوا: أدخلت الخف في رجلي، والقلنسـوة في رأسي وقال تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ والمعنى: إن العصبة تنوء بالمفاتح»(١) ثم ذكر أمثلة من كلام العرب.

فأبو حاتم جعل الآية في الموضـعين من المقلوب، وأورد لهذا شواهد من كلام العرب.

خامسا: المبرد (٢٨٥هـ):

ونتقل إلى محمد بن زيد المبـرد إمام العربية في زمانه لنرى رأيه في بعض آيات القـرآن الكريم من حـيث النظم أو الـقلب وذلك من خـلال اثنين من مؤلفاته.

أولا: كتاب «ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد»:

والكتاب يعد بحثا في فقه اللغة، وتمهيدًا لدراسة البديع؛ إذ يحوى بحوثا كثيـرة لها صلة باللفظ المفرد من حـيث دلالته كالترادف.. مع بيـان الفروق الدقيقة بين بعض الأشياء(٢).

وقد عدَّ المبرد المشاكلة، والتحويـل من البديع، ولم نجد أحدا غيره جعل التحويل منه قال:

«ومما في القـرآن مما يجئ مـثله في كلام الـعرب من التـحـويل كقـوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ وإنما العصبة تنوء بالمفاتيح. ومن كلام العرب: إن فـلانةَ لتنُوء بعجيزتها.. وإنما يكون مثل هـذا فيما لا يكون فيه لبس ولا إشكال ولا وهم. ولا يجوز: ضربت زيدا، وأنت تريد: غلام زيد..»(٣).

---

(١) كتاب الأضداد: ٤٩.

(٢) علم البديع رؤية جديدة: ٧٦ باختصار.

(٣) ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد: ٣٨، ٣٩.

والمبرد متأثر بأبى عبيدة، والفراء فى تسمية هذا بالتحويل. يقول أبو عبيدة: «والعرب تريد الشىء فتحوله إلى شىء من سببه»[١]، وفى بيان الفراء القراءة «أبى»: فعماًها عليكم يقول: «وهذا مما حولت العرب الفعل إليه، وليس له»[٢].

والتحويل عند المبرد جائز بشرط أمن اللبس ولذا ذكر عدم جواز: «ضربت زيدا، وأنت تريد: غلام زيد» وقد أشار إلى ذلك الزركشى[٣].

ثانيا: الكامل فى اللغة والأدب:

والكتاب موسوعة موسوعات تراثنا العربى، وهو حافل بمسائل البيان وقد ورد القلب فيه فى غير موضع وفى أسلوب علمى، لا لبس فيه ولا غموض. وهذه أمثلة من الكتاب.

١- يبين المبرد الفعل «ينُوء» فى قول النمر بن تولب:

يودُّ الفتى بعْدا عتِدالٍ وصحَّةٍ ينُوءُ إذا رامَ القيامَ ويحملُ

فيقول:

قوله: «ينُوء إذا رام القيام» يقول: ينهض فى تثاقل. قال الله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ والمعنى: إن العصبة تنوء بالمفاتح. ولشرح هذا موضع آخر»[٤].

ويعود المبرد إلى هذه الآية، ويبين شرط صحة القلب بقوله: «.. والكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب؛ للاختصار. قال الله -عزوجل- ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ والعصبة تنوء بالمفاتيح. أى تستقل بها فى ثقل. ومن كلام العرب: إن فلانة لتنوء بها عجيزتها. والمعنى: لتنوءُ بعجيزتها»[٥] أى تثقل بها.

ويعود المبرد إلى هذه الآية مرة أخرى فى موضع آخر، ويذكر نفس

(١) مجاز القرآن: ١/ ٦٤.
(٢) معانى القرآن: ٢/ ١٢.
(٣) البرهان: ٣/ ٢٨٧.
(٤) الكامل فى اللغة والأدب: ١/ ٢١٧.
(٥) المرجع السابق: ١/ ٣٦٩.

الكلام، ويتبعه بقوله: «مضى تفسير هذا»[١].

٢- ويقول المبرد:

وقال المفسرون والنحويون[٢] فى قول الله -عز وجل- ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[٣]. أى: لشديد من أجل حب الخير. والتقدير -والله أعلم- إنه لبخيل من أجل حبه للمال»[٤].

فالمراد فسر آية القصص في أكثر من موضع علي القلب، كما فسر أيضا آية العاديات على القلب، واستشهد على هذا بكلام العرب نثرا وشعرا.

والمبرد يجيز القلب، للاختصار بشرط أمن اللبس، فقد جعل الاختصار له غرضا ولم يقل بذلك أحد من العلماء؛ إذ الكلام المقلوب لا اختصار فيه؛ ولذا عرض نفسه لنقد الآمدى (ت ٣٧٠هـ) الذى تصدى لمنع القلب على الإطلاق ولاسيما فى الكتاب العزيز؛ فهو لا يجيزه للمتأخر، لأنه ورد فى كلام العرب على السهو أو الخطأ، فلا ينبغى للمتأخر أن يتبع العرب فيما سهوا فيه[٥].

هذا وقد أثر عن سيبويه[٦] أن القلب لسعة الكلام، وأنه بعيد عن الجودة.

سادسا: أبو بكر ابن الأنبارى: (ت ٣٢٨هـ)*:

من أشهر كتب أبى بكر «كتاب الأضداد» وقد ورد فيه القلب فى

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٣٧٣.

(٢) انظر: مجاز القرآن: ٢/ ٣٠٧.

(٣) سورة العاديات الآية: ٨.

(٤) الكامل: ١/ ٣٦٠.

(٥) الموازنة: ١/ ٢١٧ باختصار.

(٦) انظر الكتاب: ١/ ٩٢.

* هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن بن بيان.. بن دعامة الأنبارى ولد بالأنبار، وإليها نسب، ويكنى أبو بكر. نشأ فى بيت علم وعاش مجدا فى طلبه وقد قرأ ما كتب قبله فى «الأضداد» فهداه تفكيره إلى تأليف كتاب يجمع بين محاسن كتابى «الأضداد» للأصعمى، وأبى حاتم مع إضافة ما يراه إليهما من فكره وثقافته؛ فصنف «كتاب الأضداد» وبذلك غدا كتابه أكبر حجما، وأكثر نفعا مع حسن بيان، ولابن الانبارى كتب أخرى منها: الردّ على من خالف مصحف عثمان، والردّ على الملحدين فى القرآن، والكافى فى النحو. وقد عاش ما بين (٢٧١-٣٢٨هـ).

موضعين. وسأعرض لبعض ما ورد فى الموضع الثانى[١]:

قال: «ويقـال نؤت بالحمل إذا نهضت به، وناء بي الحملُ أيضًـا: نهضت به.. وقال الله -عـز وجل- ﴿ما إنَّ مفاتحهُ لتنوءُ بالعُصبة﴾ فمـعناه: ما إن العصبة لتنوءُ بمفـاتحه؛ فخرج مقلوبا عند وضوحَ المعنى هذا قـول أبى عبيدة، وقطرب.

وقال الفراء: معـناه: ما إن مفاتحه لتُنيءُ العصـبة. أي: تُثقلهم وتميلهم، فلما انضمت التـاء سقطت الباء كما يقولون: هو يذهبُ بـبصر فلان، وهو يُذهب بصَرُ فلان».

فقـد بين أبوبكر معـنى الآية أولا على القلب، وذكر أنه قـول أبى عبـيدة وقطرب ثم نقل عن الفـراء تفسيـر الآية بما يوافق النظم فقـال: «أى تثقلهم وتميلهم».

وعدَّ ابن الأنبارى من التقديم والتـأخير قوله تعالى: ﴿اذهَب بِكتَابى هَذَا فَألْقهْ إليْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجعُونَ﴾[٢]؛ فقـد بيَـن المراد بقولـه: «ثم انظر ماذا يرجعون، وتول عنهم.. فقدم وأخر»[٣] وبذلك تفادى القول بالقلب.

سابعا: الشريف الرضى* (٤٠٤هـ):

ألف الشريف الرضى «تلخـيص البيان فى مجازات القـرآن» وهو تعليقات موجزة على بعض الآيات القرآنية مرتبة حسب ترتيب السور.

---

(١) أما الأول فقوله:
«٥٦- ويقال: تهـيتُ الطريق، وتهيَّـبنى الطريق بمعنًى وهذا من الأضـداد.. قال أبو بكر: وهذا عندى مما يقلب؛ لأن اللبس يؤمن فى مثله؛ فيقال: تهيبنى الطريق؛ لأنه معلوم أن الطريق لا يتهيب أحدا..» ص١١.

(٢) سورة النمل الآية: ٢٨. (٣) كتاب الأضداد: ١١٤.

* هو محمد بن حسين بن موسى بن إبراهيم بن الإمام موسى الكاظم. لقبه بهاء الدولة ببنى بويه بالشـريف الرضى. كان عـفيف النفس، عـالى الهمـة لم يقبل من أحـد صلة ولا جائزة. وله شعر كثير، وعندما توفى عام٤٠٤هـ رثاه أخوه الشريف المرتضى رضى الله عنهما.

ويعني المؤلف بلفظ «مجاز» ما عناه أبوعبيدة، فهو طريق إلى فهم المعنى أيا كان والشريف الرضى يفسر كثيرا من الآيات بما يتفق مع نظمها القرآنى كما يفسر بعضا آخر بالقلب. وهذه أمثلة من كتابه :

فى قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[(١)] يقول المرتضى:

«وهذه استعارة والمراد: أن الإنسان خلق مستعجلا بطلب ما يؤثره، واستصراف ما يحذره. والله -تعالى- إنما يعطيه ما يطلب، ويصرف عنه ما رهب على حسب ما يعلم من مصالحة، لا على ما يسنح من مآربه.

وقبل ذلك على طريق المبالغة فى وصف الإنسان بالعجلة كما يقال فى الرجل الذكى: إنما هو نار تتوقد، والإنسان البليد: إنما هو حجر جلمد[(٢)].

فأمن قال من أصحاب التفسير: إن العجل هنا: اسم من أسماء الطين، وأورد عليه شاهدًا[(٣)] من الشعر فلا اعتبار له، ولا التفات إلى شاهده، فإنه شعر مولد، وقول فاسد»[(٤)].

فقد حمل الشريف الرضى المعنى على المبالغة فى وصف الانسان بالعجلة كما قال أبوعبيدة وابن جنى وهذا تفسير بما يوافق النظم. ثم ضعف قول من قال إن معنى العجل: الطين.

وفى قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ﴾ يقول:

وهذه الاستعارة على القلب، لأن المراد: العصبة أولى القوة تنوء بتلك المفاتيح. أى تنهض بها نهضا متثاقلا؛ لكثرة أعدادها، وثقل اعتمادها ولكن لما كانت هى السبب فى نوء تلك العصبة بها على التثاقل من نهضتها كانت كأنها هى التى تنوء بالعصبة. أى تحوجها إلى النهوض على تلك الحال من

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٣٧.　　(٢) أى صخر صلب.

(٣) هو قول الشاعر :

والنَّبعُ ينبتُ بين الصخر ضاحية　　والنَّخل ينبتُ بين الماء والعَجَلِ

قال الشريف المرتضي «ووجدنا قوما يطعنون في هذا.. ويقولون: ليس بمعروفَ أن العجل هو الطين..» أمالي المرتضي: ١/ ٤٧٠ .

(٤) تلخيص البيان فى مجازات القرآن: ١٠٣.

المشتقة[١] فقد فسرت الآية على القلب.

ويردد المؤلف المعنى فى قوله تعالى: ﴿**بَلِ الإنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**﴾[٢] بين القلب دون أن يصرح به والتقديم والتأخير؛ فيقول: وهذه استعارة. والمراد -والله اعلم- أن الإنسان حجة على نفسه فى يوم القيامة، وشاهد عليها بما اقترفت من ذنب، واحتملت من وزر وإن ألقى المعاذير، ولفق الأقاويل شاهد على نفسه بما يوجب العقاب، ويجر النكال. وقال الكسائى: المعنى: بل على نفسى الإنسان بصيرة؛ فجاء على التقديم والتأخير»[٣].

فالشريف الرضى فسر آية القصص بما يوافق ترتيب النظم، وحمل آية القصص على القلب، وجمع بين الأمرين فى الآية الاخيرة.

فهو من المجيزين للقلب البلاغى فى بعض النصوص القرآنية.

ثامنا: القاسم الحريرى* (ت ٥١٦هـ):

والحريرى من علماء اللغة المجيزين للقلب البلاغى فى بعض آى القرآن الكريم، فهو يورد فى كتابه «درة الغواص فى أوهام الخواص» ما استشهد به سيبويه على القلب، ثم يقول:

وقلب الكلام من سنن العرب المأثورة، وتصاريف لغاتها المشهورة ومنه فى القرآن: ﴿**مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ**﴾، لأن تقديره: ما إن العصبة تنوء بمفاتحه. أى تنهض بها على تثاقل»[٤].

فقد اعتد الحريرى بمأثور القلب عند العرب، وفسر هذه الآية الكريمة على القلب كما قال بعض العلماء.

---

(١) المرجع السابق: ٢٨٨. (٢) سورة القيامة: ١٤.

(٣) تلخيص البيان فى مجازات القرآن: ٣٤٢.

* هو أبو محمد القاسم بن على الحريرى، وهو منسوب إلى صناعة الحرير أو بيعه. وهو من اعمال البصرة وله الكثير من المؤلفات.

(٤) درة الغواص: ٤.

تاسعا: جار الله الزمخشرى (٥٣٨هـ):

الامام محمود بن عمر الزمخشرى علم على التفسير البلاغى للقرآن الكريم ولكتابه «الكشاف» أثره البالغ فى كتب التفسير والبلاغة والنحو. والزمخشرى يبذل جهدا فى تفسير الآيات التى عدها بعض العلماء من القلب فيفسرها حسب ترتيب النظم الذى نزلت عليه؛ ولذا فإنه يوجه القارئ إلى اعتبارات بلاغية أخرى، ويعينه على هذا تمكنه من اللغة والأدب، واطلاع واسع، وذكاء حاد غير أنه أجاز القلب قليلا. ولذا سلكته ضمن المجيزين له فى القرآن الكريم. وهذه أمثلة من «الكشاف»:

-١-

فى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ يقول: تلقى الكلمة: استقبالها بالأخذ والقبول[١] والعمل بها حين علمها. وقرئ بنصب آدم ورفع الكلمات على أنها تقبلته. بأن بلغته، واتصلت به»[٢].

وفى قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾[٣] يقول الزمخشرى:

«فإن قلت: ما معنى وقوع «لو تركوا» وجوابه صلة للذين؟ قلت: معناه: ليخش الذين صفتهم وحالهم أنه لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافا، وذلك عند احتضارهم «خافوا عليهم» الضياع بعدهم؛ لذهاب كافلهم وكاسبهم كما قال القائل:

لقد زاد الحياة إلىَّ حُبًّا ... بناتى إنهنَّ من الضعاف

أحاذر أن يرين البؤس بعدى ... وأنَ يشربن رنقًا بعد صاف[٤]

(١) هذا تفسير أبى عبيدة. انظر ص: ١٦.
(٢) الكشاف: ١/ ٢٧٤. (٣) سورة النساء الآية: ٩.
(٤) البيتان لرجل من تميم. وكان قد تلَّوم فى الخروج إلى الغزو، ومنعته الشفقة على بنيات له، وفقد من يعولهن. الرنق: كدر الماء. انظر: تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات للأستاذ محب الدين أفندى. وهو ملحق بالكشاف: ٤/ ٤٥٦.

وعلق عليه أحمد بن المنير بقوله:

قال أحمد: وإنما ألجأه إلى تقدير «تركوا» بقوله: «شارفوا أن يتركوا» لأن جوابه قوله: «خافوا عليهم». والخوف عليهم إنما يكون قبل تركهم إياهم، وذلك فى دار الدنيا؛ فقد دل على أن المراد بالترك: الإشراف عليه ضرورة، والإلزم وقوع الجواب قبل الشرط، وهو باطل ونظيره: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[1] أى: شارفن بلوغ الأجل. ولهذا المجاز فى التعبير عن المشارفة على الترك بالترك سر بديع، وهو للتخويف بالحالة التى لا يبقى معها مطمع فى الحياة ولا فى الذب عن الذرية الضعاف. وهذه الحالة وإن كانت من الدنيا إلا إنها لقربها من الآخرة، ولصوقها بالمفارقة صارت من حيزها، ومعبرا عنها بما يعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك. والله أعلم»[2].

فقد عُبِّر عن مشارفة ترك الذرية الضعاف فى هذه الحال بالترك؛ لما بينهما من الملابسة وهى المسببية، ولاشك أن الترك قريب الوقوع وقد علل ابن المنيِّر لهذا التقدير بقوله: «والإلزم وقوع الجواب قبل الشرط وهو باطل» فتفاديا لهذا قدر السبب.

وبين ابن المنير سر التعبير بهذا المجاز وهو التخويف من حالة الاحتضار، فهى وإن كانت من الدنيا إلا أنها لقربها من الآخرة صارت من حيزها، وفى هذا ما ينذر بالخشية، ويدعو إلى الامتثال لتقوى الله تعالى.

ومن هذا المجاز ما جاء فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[3].

فالزمخشرى يتبعه بقوله: «إيذانا بأن الاستعاذة من جملة الأعمال الصالحة التى يجزل الله عليها الثواب. والمعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[4]، وكقولك: إذا أكلت فسمِّ الله.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٣١.
(٢) الكشاف، وبهامشه: (الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال): ١/٥٠٤.
(٣) سورة النحل الآية: ٩٨. (٤) سورة المائدة الآية: ٦.

فإن قلت: لم عبّر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؟

قلت: لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل، وعلى حسبه؛ فكان منه بسبب قوى، وملابسة ظاهرة»[١].

والزمخشرى يزيد هذا المعنى وضوحا عند تفسيره[٢] لآية المائدة فإنه يقرنها بآية النحل، ويبين أن المعنى فيهما على إرادة الفعل قبل وقوعه، فأقيم المسبب مقام السبب؛ للملابسة بينهما، ولإيجاز الكلام.

فالمعنى فى الآيتين الكريمتين على المجاز المرسل بعلاقة المسببية أو على الإيجاز بالحذف. وقد تأثر الزمخشرى فى هذا بكل من أبى عبيدة[٣] (ت ٢١٠هـ)، وابن جنى (ت ٣٩٢هـ) والزجاج (ت ٣١٦هـ).

ومن هذ تفسير الزمخشرى لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾[٤] فقد فسر قوله: «يعودون» بقوله: «المعنى: ثم يريدون العودة للتماس والمماسة..»[٥].

وقدر الزمخشرى بلوغ أجل المطلقة طلاقا رجعيا بالمشارفة لا البلوغ الحقيقى. ففى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[٦] يقول:

﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ وهو آخر العدة، وشارفنه فأنتم بالخيار: إن شئتم فالرجعة والامساك بالمعروف والاحسان، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة واتقاء الضرار..»[٧] ومعلوم أن هذا التخيير لا يكون عند وقوع الاجل وحصوله وإنما يكون قبله ولو بمدة يسيرة.

فهذا كله محمول على المجاز المرسل بعلاقة المسببية، وهو تفسير بما

---

(١) الكشاف: ٢/ ٤٢٨. (٢) المرجع السابق: ١/ ٥٩٦.

(٣) انظر مجاز القرآن: ١/ ٦٣، ٩٢، والخصائص: ٣/ ١٧٣، ومعانى القرآن وإعرابه: ١/ ٢١٨.

(٤) سورة المجادلة الآية: ٣. (٥) الكشاف: ١/ ٧٠.

(٦) سورة الطلاق الآية: ٢. (٧) الكشاف: ٤/ ١١٩.

يتفق مع سياق الآيات الكريمة ونظمها ويتفادى القول بالقلب.

ويفسر الزمخشري قوله: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[1] بأنه «تنحَّ عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه؛ ليكون ما يقولون بمسمع منك»[2] فتفسير التولي بهذا يناسب نظم الآية، وليتمكن الهدهد من النظر في مراجعاتهم.

-٢-

وأجاز الزمخشري القلب في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾[3] حيث قال:

«وعرضهم على النار: تعذيبهم بها من قولهم: عرض بنو فلان على السيف إذا قتلوا به، ومنه قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾[4]. ويجوز أن يراد: عرض النار عليهم من قولهم: عرضت الناقة على الحوض يريدون عرض الحوض عليها؛ فقلبوا، ويدل عليه تفسير ابن عباس ﷺ: يجاء بهم إليها؛ فيكشف لهم عنها»[5].

فإذا أريد بالعرض على النار: التعذيب أو القتل كان تفسير الآية جاريا على السياتق والنظم أما إذا أريد به: الإبراز والإظهار كان تفسيرًا بالقلب.

وقد أشار الزمخشري إلى هذا عند قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾[6] حيث قال: ﴿عَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ وبرزناها لهم؛ فرأوها، وشاهدوها»[7].

فالزمخشري فسر الآيات على ترتيب النظم والسياق، وأعانه على ذلك ثقافته اللغوية والبيانية، وأجاز قليلا التفسير بالقلب، ولكنه مرجوح حيث جعله رأيا ثانيا؛ ولذا صدره بقوله: «ويجوز» فعلى هذا الزمخشري يجيز القلب البلاغي في تأويل بعض الآيات القرآنية.

---

(١) سورة النمل الآية: ٢٨.
(٢) الكشاف: ٣/ ٤٢٨.
(٣) سورة الأحقاف الآية: ٢٠.
(٤) سورة غافر الآية: ٤٦.
(٥) الكشاف: ٣/ ٢٣٠.
(٦) سورة الكهف الآية: ١٠٠.
(٧) الكشاف: ٢/ ٥٠٠، وانظر معاني القرآن: ٢/ ١٦٠.

عاشرا: الإمام الطبرسى* (ت٥٤٨هـ):

ألَّف الشيخ أبو على الفضل بن الحسن الطبَرسْى تفسيره: «مجمع البيان فى تفسير القرآن» وهو يعنى فيه بالتفسير بالمأثور، وينسب الآراء إلى أصحابها وكثيرا ما يرجح من هذه الآراء ما يراه.

والإمام الطبرسى يفسر الآيات القرآنية على وجوه تتفق مع نظمها القرآنى، وقد يحكى القلب عن غيره إلا أن هذا قليل جدا. وهذه أمثلة من تفسيره:

-١-

١- فى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ يقول: أصابنى الشيب، ونالنى الهرم وإنما جاز أن يقول: ﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ لأن الكبر بمنزلة الطالب؛ فهو يأتيه بحدوثه فيه، والإنسان أيضا يأتى الكبر بمرور السنين عليه..»[1] فهذا التفسير يتفق مع نظم الآية.

٢- ويفسر قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾[2] بقوله: «أى بذلك المطر ﴿نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ لأن المطر يدخل فى خلل النبات؛ فيختلط به، وقيل معناه: فاختلط بسببه بعض النبات بالبعض؛ فاختلط ما يأكل الناس بما تأكل الأنعام وما يقتات بما يتفكه. ثم فصل ذلك؛ فقال: ﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾[3].

فهذا تفسير جار على نسق نظم الآية الكريمة.

٣- ويفسر الطبرسى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ بقوله: معناه: إذا أردت يا محمد قراءة القرآن فاستعذ بالله من شر الشيطان

---

* هو الفضل بن الحسن الطبرسى. مفسر ومحقق لغوى من أجلاء الإمامية نسبة إلى طبرستان. له: مجمع البيان فى تفسير القرآن، وجوامع الجامع فى التفسير، وتاج المواليد. توفى فى «سبزوار» ونقل إلى المشهد الرضوى.

(١) مجمع البيان فى تفسير القرآن. المجلد الثانى: ٣/ ٧٤.

(٢) سورة يونس الآية: ٢٤.

(٣) المرجع السابق. المجلد الثالث: ١١/ ٣٥.

المرجوم المطرود الملعون، وهذا كما يقال: إذا أكلت فاغسل يديك، وإذا صليت فكبر، ومنه ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾.

والاستعاذة: استدفاع الأدنى بالأعلى على وجه الخضوع والتذلل، وتأويله: استعذ بالله من وسوسة الشيطان عند قراءتك؛ لتسلم فى التلاوة من الزلل، وفى التأويل من الخطل»[١].

فهذا من المجاز المرسل وهو يتفق مع التأويل بنظم الآية.

٤- ويورد الطبرسى تأويلين فى قوله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ويرجح أحدهما، وكلا التأويلين يتفق مع نظم الآية الكريمة.

والأول: استتر منهم قريبا بعد إلقاء الكتاب إليهم فانظر ماذا يرجعون. عن وهب بن منبه، وغيره.

والثانى: إنه على التقديم والتأخير «فانظر ماذا يرجعون» أى: ماذا يردُّون من الجواب، ثم تول عنهم؛ لأن التولى عنهم بعد الجواب. عن-مقاتل وابن زيد والجبائى وأبى مسلم.

والأول : أوجه، لأن الكلام إذا صح من غير تقديم وتأخير كان أولى[٢].

فقد فسر التولى بمعنى يناسب سياق الآية، ثم فسر ثانيا المعنى على التقديم والتأخير، وكلاهما تفسير بالنظم.

٥- ويقول في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾: «وتأويله: منعناهن منه، وبغّضناهُن إليه. عن ابن عباس.. أى منعناه من الرضاع. فهذا تحريم منع، لا أن هناك نهيا عن الفعل[٣].

فهذا التفسير يتفق مع نظم الآية، وهو على المجاز كما سنبين ذلك. وقال مثل ذلك الإمام الواحدى (ت ٤٦٨هـ).

---

(١) مجمع البيان المجلد الرابع: ١٤/ ١٢٠.
(٢) المرجع السابق: المجلد الخامس: ٢١٧/١٩.
(٣) المرجع السابق: ٢٠/ ٢٧١.

-٢-

١- ويورد الإمام الطبرسى عن العلماء ثلاثة من وجوه التأويل[١] فى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ويتفق اثنان منها مع نظم الآية.

ثم يقول:

والثالث: أنه من المقلوب والمعنى: لكل كتاب ينزل من السماء أجل ينزل فيه عن العباس والضحاك.

فقد حكى الإمام التفسير بالقلب دون التعرض له بالرد أو الإنكار.

ويفسر الإمام قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ بما يتفق مع النظم فيقول: «وتقديره: ثم تدلى. أى: قرب بعد بعده وعلوه فى الأفق الأعلى، فدنا من محمد ﷺ قال الحسن وقتادة.. وقال الزجاج: معنى دنا وتدلى واحد، لأن معنى دنا: قرب وتدلى: زاد فى القرب كما تقول: قد دنا منى فلان وقرب، ولوقلت: قرب منى ودنا جاز»[٢].

فاتفاق الجملتين فى المعنى ولو مع زيادة أحدهما فيه يجعل كلا فى موضعه قدم أو أخر. وهذا تفسير يتفق مع نظم الآية الكريمة.

٢- ويشير الطبرسى إلى التفسير بالقلب فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[٣] غير أنه يجعله رأيا ثانيا فيقول: وقيل معناه: وإنه لشديد الحب للخير. أى المال. عن الفراء»[٤].

وفى قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ يورد الإمام ما أثر عن العلماء كأبى عبيدة وابن جنى والزجاج، والشريف المرتضى.. فى المراد بالانسان، و«عجل» دون أن يصرح بذلك. وأورد هنا رأيين مما قاله فى أن المراد بالإنسان: الناس كلهم قال:

(١) مجمع البيان المجلد الرابع: ١٢/ ١٨٥.
(٢) المرجع السابق. المجلد السادس: ٢٧/ ٤٣.
(٣) سورة العاديات الآية: ٨.
(٤) المرجع السابق المجلد السادس: ٣٠/ ٢١٥.

أحدها: أن معناه: خلق الإنسان عجولا. أى خلق على حب العجلة فى أمره. عن قتادة وأبى مسلم والجبائى قال: يعنى: أنه يستعجل فى كل شىء يشتهيه، وللعرب عادة فى استعمالهم هذا اللفظ عند المبالغة: يقولون لمن يصفونه بكثرة النوم: ما خلق إلا من نوم، وبكثرة الشر منه: ما خلق إلا من شر..

ثانيها: أنه من المقلوب. والمعنى: خلقت العجلة من الإنسان. عن أبىّ وهذا ضعيف، لأنه مع حمل كلامه على القلب يحتاج إلى تأويل؛ فلا فائدة فى القلب»[1].

فالإمام الطبرسي يورد الآراء موثقة عن العلماء ويفسر أكثر الآيات بما يتلاءم مع نظمها القرآنى، ولكنه يحكى القلب أحيانا، أو يشير إليه ويضعف منه.

أحد عشر: الفخر الرازى* (ت ٦٠٦هـ):

الإمام الرازى غزير العلم واسع المعرفة فقد أفاد كثيرا من دراسات السابقين ولاسيما فى التفسير وعلوم القرآن الكريم، وأمانته العلمية تجعله ينسب الآراء إلى أصحابها وهو فى دراساته للآيات التى قيل فيها بالقلب البلاغى يفسر بعض مفردات الآية بما يتفق مع نظمها أو يذكر مسائل بلاغية تتفق مع هذا النظم، وإذا ذكر القلب فعلى أنه أحد الأقوال. ولا يفوت الرازى نقده ومناقشته. وهذه أمثلة من كتابه: «التفسير الكبير».

١- فى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[2] يقول: «أى

(١) المرجع السابق. المجلد الرابع: ١٧/ ٢٦.

* هو أبو عبدالله بن محمد بن عمر بن الحسين الطبرستانى الرازى الملقب: فخر الدين الفقيه الشافعى الفائق أهل زمانه فى علوم الكلام. ولد بالرى سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وطلب العلم على والده فترة ثم قصد خوارزم. اتصل بالسلطان خوارزم شاه فحظى عنده بأسمى المراتب. لقب فى هراة بشيخ الإسلام. من أهم مؤلفاته: التفسير الكبير، ونهاية الإيجاز فى علوم الإعجاز، وشرح الإشارات لابن سينا. توفى بمدينة هراة يوم عيد الفطر سنة ست وستمائة- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها: ١٠٧ باختصار.

(٢) سورة البقرة الآية: ٣٧.

أخذها وقبلها وعمل بها. قال القفال[١]: أصل التلقى: هو التعرض للقاء ثم يوضع فى موضع الاستقبال للشيء الجائى، ثم يوضع موضع الأخذ[٢] والقبول قال الله تعالى: ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾[٣] وإذا كان هذا أصل الكلمة وكان من تلقى رجلا؛ فتلاقيا: لقى كل منهما صاحبه. فأضيف الاجتماع إليهما صلح أن يشتركا فى الوصف بذلك؛ فيقال[٤]: كل من تلقيته فقد تلقاك؛ فجاز أن يقال: تلقى آدمُ كلماتِ أى أخذها ورعاها واستقبلها بالقبول. وجاز أن يقال: تلقى كلماتٌ بالرفع على معنى: جاءته من الله كلماتٌ. ومثله: ﴿لا ينال عهدى الظالمين﴾[٥].

فقد فسر الإمام المعنى فى القراءتين بما يتفق مع نظم الآية الكريمة فإذا كان كل من «آدم» والكلمات اشتركا فى معنى التلقى فلا قلب على القراءتين بل ولا تقديم ولا تأخير، ولكن ثمة فرق بين القراءتين.

يقول الزجاج (ت ٣١٦هـ): «والاختيار ما عليه الاجماع وهو فى العربية أقوى؛ لأن «آدم» تعلم هذه الكلمات؛ فقيل: تلقى هذه الكلمات»[٦].

وفسر الإمام البلوغ فى قوله تعالى: ﴿أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر﴾[٧] بمثل ما فسر به التلقى، فقال: «قال أهل المعانى كل شيء صادفته وبلغته فقد صادفك وبلغك[٨] وكلما جاز أن يقول: بلغت الكبر جاز أن

---

(١) هو الإمام العلامة الفقيه الأصولى اللغوى عالم خراسان. أبو بكر محمد بن على بن إسماعيل الشاشى الشافعى القفّال الكبير. إمام وقته بماه وراء النهر وصاحب التصانيف. قال الحليمى: كان شيخنا القفال أعلم من لقيته من علماء عصره، وقال الشيخ محيى الدين النواوى: إذا ذكر القفال الشاشى فالمراد هو، وإذا قيل: القفال المروزى فهو القفال الصغير الذى كان بعد الأربع مائة. صنف: دلائل النبوة، وكتاب محاسن الشريعة. توفى سنة ٣٦هـ. الأعلام: ١٦/٢٨٣.

(٢) انظر معانى القرآن: ١/٣٨. (٣) سور النمل الآية: ٦.

(٤) معانى القرآن: ١/٢٨، وانظر المفردات فى غريب القرآن (لقى): ٤٥٣.

(٥) سورة البقرة الآية: ١٢٤. (٦) معانى القرآن وإعرابه: ١/١١٦.

(٧) سورة آل عمران الآية: ٤٠.

(٨) هذا قول الزجاج فى معانى القرآن وإعرابه: ١/٤٠٨.

يقول: بلغنى الكبر.، يدل عليه قول العرب: لقيت الحائط، ولقينى الحائط.

فإن قيل: يجوز بلغنى البلدُ فى موضع: بلغتُ البلدَ؟ قلنا: هذا لا يجوز. والفرق بين الموضعين أن الكبر كالشىء الطالب للإنسان؛ فهو يأتيه بحدوثه فيه، والإنسان أيضا يأتيه بمرور الزمن عليه. أما البلد فليس كالطالب للإنسان الذاهب؛ فظهر الفرق»[١].

معنى البلوغ وهو الوصول مشترك بين زكريا -عليه السلام- والكبر فلا قلب، لأن الشيئين اشتركا فى هذا المعنى فكل منهما فى مكانه. قدم أواخر وقد بين الإمام الفرق بين بلوغ الكبر، وصاحبه، وبلوغ البلد قاصدها فالثانى لا قلب فيه.

ويفسر الإمام بعض الآيات على أنها من المجاز المرسل. ففى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ يقول: المراد منه: إذا شمرتم للقيام إلى الصلاة وأردتم ذلك. وهذا وإن كان مجازا إلا أنه مشهور متعارف. **ويدل عليه وجهان:**

الأول: الإرادة الجازمة سبب لحصول الفعل، وإطلاق اسم المسبب على السبب مجاز مشهور.

الثانى: قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[٢]. . المراد منه: كونه مريدا لذلك الفعل، متهيأ له، مستعدا لإدخاله فى الوجود. .»[٣] فالحمل على المجاز من التفسير بما يوافق النظم، ويكون هذا من الإيجاز بالحذف أيضا. وتقدم ذلك.

وفى قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾[٤] يبين الرازى أن المعنى يوافق ترتيب النظم بتأويل: «حكمنا بهلاكها، فجاءها بأسنا» أو «أردنا إهلاكها فجاءها باسنا» فهذا التأويل على الإيجاز بالحذف، أو المجاز

(١) التفسير الكبير. المجلد الثانى: ١٩/٣.
(٢) سورة النساء الآية: ٣٤.
(٣) التفسير الكبير. المجلد السادس: ١١٩،١١٨/١١.
(٤) سورة الاعراف الآية: ٤.

المرسل. ويقول: قال الفراء[١]: لا يبعد أن يقال: البأس والهلاك يقعان معا كما يقال: أعطيتني فأحسنت، وما كان الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله وإنما وقعا معا؛ فكذا ههنا»[٢].

فعلى هذا إذا وقع الفعلان معا كان كل في موقعه؛ فلا قلب.

ويقف الرازي طويلا عند قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾[٣]. ليبين[٤] أن ظاهر الآية يدل على أن الاستعاذة بعد قراءة القرآن وأنه ذهب إليه جماعة من الصحابة والتابعين. وأما الاكثرون منهم فقد اتفقوا على أن الاستعاذة متقدمة على القراءة. ثم أشار إلى ما قاله الزجاج من أن معنى الآية: إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ... ومثله: إذا أكلت فقل بسم الله[٥] وإذا سافرت فتأهب.

فهذا تأويل يناسب نظم الآية الكريمة. ثم استطرد الرازي؛ فردَّ على الواحدي[٦] الذي جعل قوله تعالى: ﴿**وإن يردك بخير**﴾[٧] من المقلوب؛ فقال:

قال الواحدي: هو من المقلوب. معناه: وإن يُرِدْ بكَ الخيرَ ولكنه لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز إبدال كل واحد منهما بالآخر.

وأقول: التقديم في اللفظ يدل على زيادة العناية، فقوله: ﴿**وإن يردك بخير**﴾ يدل على أن المقصود هو الإنسان، وسائر الخيرات مخلوقة لأجله؛ فهذه الدقيقة لا تستفاد إلا من هذا التركيب».

---

(١) معاني القرآن: ١/٣٧.
(٢) التفسير الكبير المجلد السابع: ١٤/١٩.
(٣) سورة النحل الآية: ٩٨.
(٤) التفسير الكبير. المجلد العاشر: ٢٠/٩٢ باختصار.
(٥) معاني القرآن وإعرابه: ٣/٣١٨.
(٦) هو الإمام العلامة أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي صاحب التفسير، وإمام علماء التأويل. وبنو الواحدي بطن من مهرة تتوسط بين «الريّ» و«همدان». وأهم مؤلفاته: البسيط، والوسيط في التفسير. توفي سنة ٤٦٨هـ سير أعلام النبلاء: ١٨/٣٣٨.
(٧) سورة يونس الآية: ٤٤.

فالواحدى جعل تقديم الضمير فى «يردك» من المقلوب، وردّ عليه الرازى بأنه من التقديم، لا القلب، وبين أن سر التقديم: العناية بالمقدم.

وفى قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ يذكر الرازى الأقوال التى أثرت عن العلماء، ومنها: القلب، ولكن يذكر أن القول بالمبالغة هو الأولى، والأقرب إلى الصواب فيقول:

« وأبعد الأقوال هذا القلب، لأنه إذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو أولى من أن يحمل على أنه مقلوب. وأيضا فإن قوله: خلقت العجلة من الإنسان فيه وجوه من المجاز[1]. فما الفائدة فى تغيير النظم إلى ما يجرى مجراه من المجاز»[2]؟

فحمل المعنى على القلب إذًا تعسف، وفيه تعب لا طائل تحته ما أمكن فهم المعنى مع ترتيب النظم. بل وما الداعى إلى ارتكاب وجوه من المجاز؟

وفى قوله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾[3] ينقل الرازى عبارة الزمخشرى كما يقول قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[4] بقوله: «الأقرب أنهم سألوا الله -تعالى- أن يبلغهم فى الطاعة المبلغ الذى يشار إليهم، ويقتدى بهم».

فهذا التفسير جار مع نظم الآيتين الكريمتين.

-٢-

ويذكر الإمام خمسة آراء فى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[5] صدرها بقوله: الأول: أن لكل شىء وقتا مقدرا.. والثانى: أن لكل حادث وقتا معينا.. الثالث: أن هذا من المقلوب. والمعنى: أن لكل كتاب منزل من السماء أجلا ينزل فيه أى لكل كتاب وقت يعمل به فوقتٌ العمل بالتوراة

(١) هذا تعريض بالشريف المرتضى فى أماليه. القسم الأول: ٤٦٥-٤٧١.
(٢) التفسير الكبير. المجلد العاشر: ٢٠/١٤٨.
(٣) سورة النمل الآية: ٢٨. والتفسير الكبر. المجلد العاشر: ١٤/١٩.
(٤) سورة الفرقان الآية: ٧٤. والتفسير الكبير. المجلد العاشر ٢٤/١٠٠.
(٥) سورة الرعد الآية: ٣٨. وانظر التفسير الكبير. المجلد العاشر: ١٩/٥١.

والإنجيل قد انقضى، ووقت العمل بالقرآن قد أتى وحضر..» نقل عن بعض العلماء القول بالقلب فى هذه الآية.

فالإمام الرازى فسر الآيات الكريمة بما يلائم نظمها وسلك فى ذلك طرقا شتى، ولكنه نقل القلب عن بعض العلماء فى آية الرعد دون التعرض له بالإنكار أو الرفض. فهو يجيز على قلة القلب البلاغى فى القرآن.

ثانى عشر: ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)*:

ومن أجل التفاسير بالمأثور، «تفسير القرآن العظيم» للعلامة ابن كثير؛ فهو يورد فى الموضع الواحد عددا من الأحاديث الشريفة، ويبين درجتها هى وأسانيدها من حيث الصحة، أو الحسن، أو الضعف إلخ كما أنه يستشهد بالكثير من أقوال المفسرين ويرجح غالبا ما يراه.

وأما الآيات التى قيل فيها بالقلب البلاغى فإن ابن كثير يفسرها بما يتفق مع نظمها، وقلما يفسر بعضها بالقلب البلاغى. وأورد من تفسيره هذه الأمثلة:

-١-

فى قوله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذين آمنوا إذا قُمتم إلى الصَّلاة فاغسلُوا وُجُوهكم**﴾[1] يقول: «قال كثير من السلف فى قوله: ﴿**إذا قُمتُم إلى الصَّلاة**﴾ معناه: وأنتم محدثون، وقال آخرون: إذا قمتم من النوم إلى الصلاة[2]، وكلاهما قريب. وقال آخرون: بل المعنى أعم من ذلك، فالآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، ولكن هو فى حق المحدث على سبيل الإيجاب، وفى حق المتطهر على سبيل الندب والاستحباب[3]» فهذا تفسير يوافق نظم الآية الكريمة.

---

* هو أبو الفداء إسماعيل عماد الدين بن كثير ولد فى بلاد الشام. كان سلفى الهوى، سنى النزعة، عالما ضابطا كثير الحفظ قليل النسيان توفى: ٧٧٤هـ.

(١) انظر إعراب القرآن للنحاس: ٢/ ٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم المجلد الثالث: ٤٠.

(٣) جامع البيان: ٦/ ١١٢.

ويفسر قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ بقوله: «هذا أمر من الله -تعالى- لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب ليس بواجب. حكى الاجماع على ذلك الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة[١].

فقد قدر الارادة قبل القراءة، وهو جار على المجاز المرسل؛ فالتفسير جار على نظم الآية، وبه قال ابن جنى والزجاج، وغيرهما.

ويفسر ابن كثير التحريم فى قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ بقوله: «أى تحريما قدريا، وذلك لكرامة الله له صيانة عن أن يرتضع غير ثدى أمه»[٢] وذلك أن الرضيع غير مكلف، فيحرم عليه شيء وهذا يتفق مع تفسير الطبرسى (ت ٥٤٨هـ): بأنه المنع والتبغيض إليه، لا التحريم[٣]. وبذلك تفادى كل منهما التفسير بالقلب كما قال بعض العلماء.

ويفسر قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾[٤] بقوله: «ثم تول ناحية أدبا ورياسة»[٥] وهو تفسير يتفق مع سياق الآية. ويوافق قول الزمخشرى: «تنح عنهم إلى مكان قريب..»[٦].

وحمل ابن كثير تفسير قوله: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ على المبالغة[٧] ثم بين أن هذا يناسب سياق الآية الكريمة.

-٢-

وفسر ابن كثير قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ على النظم، ثم روى تفسير الضحاك، وهو محمول على القلب؛ فقال:

(١) المرجع السابق. المجلد الرابع: ٥٢٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم. المجلد السادس: ٢٢٣.
(٣) مجمع البيان: ٢٠/ ٢٧١.
(٤) سورة النمل الآية: ٢٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم. المجلد السادس: ١٦٨.
(٦) انظر مبحث الزمخشرى: ٣٤.
(٧) تفسير القرآن العظيم. المجلد الخامس: ٣٣٦، وانظر تفسير قوله تعالى: ﴿لَتَنُوءُ بالعصبة﴾ حيث فسره على النظم. المرجع السابق المجلد السادس: ٢٦٣.

«أى لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شىء عنده بمقدار.. وكان الضحاك بن مزاحم يقول: «أى لكل كتاب أجل. يعنى: لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله، ومقدار معين»[1]

ويبين ابن كثير تأويل العلماء فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[2] على النظم، والقلب بقوله: «وفيه مذهبان: أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال، والثانى: وإنه لحريص بخيل من محبة المال، وكلاهما صحيح»[3] ولا يخفى أن التأويل الأول على القلب.

فابن كثير فسَّر الآيات بما يتفق مع نظمها القرآنى وحكى عن بعض العلماء تأويلهم بما يتفق مع القلب البلاغى وبين صحته فى الآية الأخيرة، فهو من المجيزين للقلب البلاغى فى بعض آى القرآن الكريم.

ثالث عشر: الإمام الشوكانى* (ت ١٢٥٠هـ):

ألف الإمام الشوكانى كتابه: «فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير» والكتاب يدل عنوانه على منهج مؤلفه فى تفسير القرآن الكريم، وله أهميته فى هذا العلم.

والشوكانى يفسر هذه الآيات بما يوافق نظمها القرآنى، ولكنه نادرا ما ينقل عن غيره تفسير بعضها بما يتفق مع القلب البلاغى.

وهذه أمثلة من تفسيره:

---

(١) تفسير القرآن العظيم. المجلد الرابع: ١٨٩.

(٢) سورة العاديات الآية: ٨.

(٣) تفسر القرآن العظيم. المجلد الثامن: ٤٨٨.

* هو محمد بن على بن محمد بن عبدالله الشوكانى الصنعانى من أئمة اليمن ولد سنة ١١٧٣هـ فى بلده «هجرة شوكان» وإليها نسب. وقد قرأ على كثير من العلماء، وتتلمذ عليه الكثير. والشوكانى فارس المعانى والألفاظ، وقاضى قضاة أهل السنة والجماعة. من مؤلفاته: نيل الأوطار، وآداب الطلب ومنتهى الأدب، وتحفة الذاكرين. توفى بـ «صنعاء» سنة ١٢٥٠هـ. فتح القدير: ٩ باختصار.

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ يقول[1]: «إذا أردتم القيام، تعبيرا عن المسبب بالسبب كما في قوله: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

واتبع الشوكاني قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النبى إذا طلقتم النساء﴾ بقوله والمعنى: «إذا أردتم تطليقهن، وعزمتم عليه»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[3] يقول: «لكل أمر قضاه الله، ولكل وقت من الأوقات قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله، يكتبه على عباده، ويحكم به فيهم. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير والمعنى: لكل كتاب أجل. أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل، ووقت معلوم كقوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾[4]. »[5].

فالتأويل الأول جار على نظم الآية، والثاني بالتقديم والتأخير، وكلاهما من بلاغة النظم القرآني.

وينقل[6] الشوكاني عن الفراء، والزجاج في تفسير قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، وهو على المبالغة في الإخبار بالمصدر «عجل». وهذا تفسير يتفق مع نظم الآية، وقال به كثير من العلماء.

ويفسر قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أولى القوة﴾[7] بما يوافق النظم، ويستشهد بالفراء، وأبي جعفر النحاس. ويحكي القلب عن أبي عبيدة؛ فيقول:

---

(١) فتح القدير: ٢/ ٢٥.
(٢) المرجع السابق: ٥/ ٣٣٧.
(٣) سورة الرعد الآية: ٣٨.
(٤) سورة الأنعام الآية: ٦٧. وتمامها: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.
(٥) فتح القدير: ٣/ ١٢٦.
(٦) فتح القدير: ٣/ ٥٨٣.
(٧) سورة القصص الآية: ٧٦.

«والمعنى: يثقلهم حمل المفاتيح. قال أبو عبيدة.. هذا من المقلوب، والمعنى: لتنوء بها العصبة. أى تنهض بها.. وقال الفراء: معنى: تنوء بالعصبة: تميلهم بثقلها، واختار هذا النحاس، وبه قال كثير من السلف»[١].

وفى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[٢] يحكى القول بالتقديم والتأخير، وينقل عن الزجاج أن معنى الجملتين واحد، وهو القرب، وإن زاد مقداره فى الثانية[٣] ولذا يجوز وضع إحداهما مكان الاخرى. فكل واحدة منهما فى مكانها. وهذا تفسير يوافق نظم الآية.

ويفسر الزمخشرى قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾[٤] على القلب؛ فيقول: «وبرزناها لهم، فرأوها، وشاهدوها»[٥] فيتأثر به الشوكانى فيقول فى تفسيرها: «المراد بالعرض هنا: الإظهار. أى أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم. وفى ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع والروعة»[٦].

فالإمام الشوكانى ورد عنه قليلا التفسير بالقلب البلاغى..

رابع عشر: الألوسى (ت ١٢٧٠هـ)*:

ومن أهم كتب التفسير: «روح المعانى» للألوسى. وهو سفر نفيس فى هذا العلم، فمؤلفه أوتى بصيرة وفهما وغيرة على كتاب الله -تعالى- وهو يبذل جهدا فى تأويل الآيات القرآنية بما يتفق مع نظمها، ويورد من أقوال

(١) فتح القدير: ٤/ ٢٦٥.
(٢) سورة النجم الآية: ٨.
(٣) فتح القدير: ٥/ ١٥٠.
(٤) سورة الكهف الآية: ١٠٠.
(٥) الكشاف: ٢/ ٥٠٠.
(٦) فتح القدير: ٣/ ٤٥٠.

* هو شهاب الدين محمود أفندى الألوسى البغدادى. ونسبته إلى «ألوس» وهى جزيرة فى منتصف نهر الفرات بين الشام وبغداد. كانت موطن أجداده.. ولد سنة ١٢١٧هـ فى جانب الكرخ من بغداد، وكان شيخ العلماء فى العراق، ونادرة من نوادر الأيام. وكان محدثا ومفسرا تتلمذ له وأخذ عنه خلق كثير، وأملى كثيرا من الخطب والرسائل والفتاوى. وكان سلفى الاعتقاد، شافعى المذهب من أهم مؤلفاته: روح المعانى، وحاشية على القطر توفى سنة ١٢٧٠هـ- التفسير والمفسرون: ١/ ٣٦٠ باختصار.

العلماء ما يقوى هذا الاتجاه. ولكنه أشار إلى القلب فى تفسير آية. وقلل منه آيات أخرى وبين أنه زعم، وغير مناسب للتأويل. وهذه أمثلة من تفسيره:

- يفسر الألوسى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[1]؛ فيقول: «أى لكل وقت ومدة من الأوقات والمدد «كتاب» حكم معين يكتب على العباد حسب ما تقتضيه الحكمة، فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوالهم المتغيرة حسب تغير الأوقات كاختلاف العلاج حسب اختلاف المرض بحسب الاوقات»[2].

فهذا تفسير يناسب نظم الآية الكريمة.

ويفسر قوله تعالى: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ بتقدير الإرادة؛ فيقول: «أى إذا أردت قراءة القرآن فاسأله -عز جاره- أن يعيذك من وساوس الشيطان الرجيم؛ كى لا يوسوسك فى القراءة؛ فالقراءة مجاز مرسل عن إرادتها، إطلاقا لاسم المسبب على السبب»[3].

ويفسر الألوسى قوله سبحانه: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[4] بما يتفق مع نظمه فيقول: «أى اجعلنا بحيث يقتدون بنا فى إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل»[5].

ويفسر التحريم بالمنع فى قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾[6] فيقول: «أى منعناه ذلك؛ فالتحريم مجاز عن المنع؛ فإن من حرم عليه شىء فقد منعه. ولا يصح إرادة التحريم الشرعى؛ لأن الصبى ليس من أهل التكليف. ولا دليل على الخصوصية»[7]. فالداعى إلى هذا التاويل ملاءمته لنظم الآية. وليسلم من القلب.

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يقول: «﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى: تنحَّ، وحمل على ذلك

---

(١) سورة الرعد الآية: ٣٨.
(٢) روح المعانى: ١١/١٦٩.
(٣) المرجع السابق: ١٢/٢٢٨.
(٤) سورة الفرقان الآية: ٧٤.
(٥) روح المعانى: ١٩/٥٢.
(٦) سورة القصص الآية: ١٢.
(٧) روح المعانى: ٢/٥٠.

لأن التولى بالكلية ينافى قوله: ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ إلا أن يحمل على القلب كما زعم ابن زيد وأبو على، وهو غير مناسب.

وأمره -عليه السلام- إياه بالتنحىِّ من باب تعليم الأدب مع الملوك كما روى ابن وهب. والنظر بمعنى التأمل والتفكر»[١].

فتفسير التولى عنهم بأنه: التنحىِّ إلى مكان قريب، ليتأتى للهدهد النظر فى مراجعاتهم يناسب نظم الآية. أما تفسير التولى بأنه: التولى بعيدا عنهم فإنه تفسير بالقلب البلاغى، والذى ذكر الألوسى أنه غير مناسب.

وفى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[٢] يقول: الألوسى:

«واختار بعض الأجلة أنه بيان وتفسير لحال ما يعبدونه التى لو أحاطوا بها علما لما عبدوه. أى فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله -تعالى- لما أنهم يتضررون من جهتهم تضرر الرجل من جهة عدوه؛ فإطلاق العدو عليهم من باب التشبيه البليغ، وجوز أن يكون من باب المجاز العقلى باطلاق السبب على المسبب من حيث إن المغرى والحامل على عبادتهم هو الشيطان الذى هو عدو مبين للإنسان. والأول أظهر. والداعى إلى هذا التأويل: أن الأصنام لكونها جمادات لا تصلح للعداوة وما قيل[٣]: إن الكلام على القلب . والأصل: فإنى عدو لهم ليس بشىء»[٤].

فقد حمل العلامة الألوسى المعنى على التشبيه البليغ، أو المجاز العقلى بعلاقة: المسببية؛ لأن الشيطان سبب فى العداوة. والمعنى على هذين التأويلين يناسب نظم الآية وقد قلل من التفسير بالقلب البلاغى فيها.

ويفسرقوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ بموافقة المعنى للنظم ثم يحكى القلب، ويبين أنه مرجوح ، وأن الأول أولى لأنه رأى جماعة من العلماء فيقول:

«تنُوءُ» من ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله؛ فالباء للتعدية كما ذهبتُ به.

---

(١) المرجع السابق: ١٩/ ١٩٣.
(٢) سورة الشعراء الآية: ٧٧.
(٣) الصاحبى: ٣٣٢.
(٤) روح المعانى: ١٩/ ٥٤.

والعصبة: الجماعة الكثيرة من غير تعيين لعدد خاص كما ذكره الراغب[١] ومن أهل اللغة من عيَّن لها مقدارا واختلفوا فيه؛ فقيل: من عشرة إلى خمسة عشر وهو مروى عن مجاهد.. وقال أبوزيد: تنُوءُ من نُؤْتُ بالحمل إذا نهضت به.. وفى الآية على هذا قلب عند أبى عبيدة ومن تبعه. والأصل: تَنُوءُ العصبة بها. أى تنهض.

وقيل: يجوز ألا يكون هناك قلب، لأن المفاتح تنهض ملابسة للعصبة إذا نهضت العصبة بها.

والأولى ما قدمناه أولا، وهو منقول عن الخليل وسيبويه والفراء، واختاره النحاس[٢]، وروى معناه عن ابن عباس وأبى صالح والسُّدى»[٣].

فقد فسر الألوسى المعنى على النظم بجعل الباء فى «بالعصبة» للتعدية ورجحه بما ذكر، ثم بين وجهة نظر من فسرها بالقلب، وبين أنه يمكن حمل المعنى على التفسير بما يتفق مع النظم بجعل الباء للملابسة؛ فإن المفاتح تنهض ملابسة للعصبة؛ فتقديم أيهما على الآخر لا يخرجه عن موضعه دون قلب.

وفسر الألوسى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ بما يتفق مع النظم ثم ذكر أنه فسر الآية بالقلب غير واحد، وبين السبب الذى كان من أجله هذا التفسير ثم أشار إلى محاولة لتفادى القلب على تفسيرهم، وذكر آراء جماعة من العلماء؛ فقال:

---

(١) قال: «والعصبة»: جماعة متعصبة متعاضدة. قال تعالى: ﴿لتنوءُ بالعُصْبَة﴾، ﴿ونحنُ عُصْبَةٌ﴾(يوسف:٨) أى مجتمعة الكلام متعاضدة». المفردات فى غريب القرآن: (عصب): ٣٣٦- والراغب هو: الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهانى. أديب من الحكماء العلماء. سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالى. من مؤلفاته: محاضرات الأدباء، والذريعة إلى مكارم الشريعة، والمفردات، وجامع التفاسير. توفى سنة ٥٠٢هـ-١١٠٨م. الأعلام: ٢/ ٢٥٥.

(٢) انظر. ص: ٧٩.

(٣) روح المعانى: ٢٠/ ١١١.

﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ أي: يعذبون بها من قولهم: عرض بنو فلان على السيف إذا قُتلوا به[١]، وهو مجاز شائع.

وذهب غير واحد إلى أنه من باب القلب المعنوى[٢]، والمعنى: يوم تعرض النار على الذين كفروا نحو: عرضت الناقة على الحوض؛ فإن معناه أيضا كما قالوا: عرضت الحوض على الناقة؛ لأن المعروض عليه يجب أن يكون له إدراك ليميل به إلى المعروض، أو يرغب عنه، لكن لما كان المناسب هو أن يؤتى بالمعروض عند المعروض عليه، ويُحرك نحوه وههنا الأمر بالعكس؛ لأن الحوض لم يُؤْت به، وكذا النار قلب الكلام رعاية لهذا الاعتبار وفى الانتصاف: إن كان قولهم: عرضت الناقة على الحوض مقلوبا فليس قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ كذلك؛ لأن الملجئ ثم إلى اعتقاد القلب: أن الحوض جماد، لا إدراك له، والناقة هى المدركة؛ فهى التى يعرض عليها الحوض حقيقة.

وأما النار فقد وردت النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية[٣] بأنها حينئذ

---

(١) هذا تفسير الزمخشرى انظر ص: ٣٤.

(٢) جعل ابن يعقوب المغربى (ت ١١١٠هـ) القلب قسمين: لفظى، ومعنوى قال: «وهو قسمان: ما يكون موجبه تصحيح حكم لفظى، ولولا ذلك الحكم اللفظى لم يدع القلب؛ لأن المعنى يصح به الكلام على ظاهره كأن يكون ما هو فى موضع المبتدأ نكرة، وما هو فى موضع الخبر معرفة كقوله: « ولايك موقف منك الوداعا » فإنه لو نكرَّ الوداع صح المعنى على ظاهره، ولما عرفه وهو فى موضع الخبر، ونكر «موقف منك» وهو فى موضع المبتدأ جعل من القلب؛ لتصحيح مقتضى الأصل من تعريف الأول، وتنكير الثانى؛ فيكون المعنى على أن الأصل الإخبار بالأول عن الثانى؛ فالتقدير: ولا يكن موقفُ الوداعَ منك موقفًا منك.

وما يكون موجبه تصحيح المعنى، وإجراءه على صحة نحو قولهم: عرضت الناقة على الحوض، وأدخلت القلنسوة الرأسى، وأدخلت الخاتم الإصبع» مواهب الفتاح: ١/ ٤٨٧.

(٣) قال الله تعالى: ﴿يوم نَقُولُ لجهنَّم هَلِ امْتَلأْتِ وتقُولُ هلْ مِن مَّزِيدٍ﴾(سورة ق: ٣٠) وجاء فى حديث الإسراء: «قال: ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا، ووجد ريحا منتنة؛ فقال: ما هذا يا جبريل؟ وما هذا الصوت؟ فقال: هذا صوت جهنم تقول: يا رب آتنى ما وعدتنى، فقد كثرت سلاسلى وأغلالى، وسعيرى وحميمى وضريعى وغسَّاقى==

مُدْرِكَـة إدراك الحيـوانات بل إدراك أولى العلم؛ فالأمـر فى الآية على ظاهره كقولك : عرضت الأسـرى على الأمير[١]، وربما يقال: لا مـانع من تنزيلها منزلة المدرِك إن لم تكن حينئذ مدركة، وتنزيل الحوض من منزلته حتـى كأنـه يستـعـرض الناقـة كما قـال أبو العلاء:

إذا اشتاقت الخـيلُ المناهلَ أعرضَتْ عن الماء فاشـتاقتْ إليـها المناهلُ[٢]

وبعد ذلك لا يحتاج إلى قلب.

وقال أبو حيان[٣]: لا ينبغى حمل القرآن على القلب؛ إذا الصحيح فيه أنه مما يضطر إليه فى الشعر. وإذا كان المعنى صحيحا واضحا بدونه فأى ضرورة تدعو إليـه؟ والمثال المذكـور لا قلب فيه، فـإن عرض الناقـة على الحوض، وعرض الحوض على الناقة كل منهمـا صحيح؛ إذا العرض أمر نسبى، يصح إسناده لكل واحد من الناقة والحوض.

وابن السكيت فى كـتاب التوسـعة ذهب إلى أن: عـرضت الحوض على الناقـة مـقلوب، والأصل: عـرضت الناقـة على الحـوض، وهو مـخـالف للمشهور وأنت تعلم مما ذكرنا أولا أن سـبب اعتبارهم القلب فى المثال كون

== وعذابى، وقد بعُـد قعرى، واشتد حَـرِّى، فآتنى ما وعدتنى فقـال: لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة وكل خبيث وخبـيثة وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب. قالت: قد رضيت». تفسير القرآن العظيم. المجلد الخامس: ٣٢، الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ٣/ ٥٢٣ لابن المنير الاسكندرى المالكى. هامش (الكشاف).

(١) روح المعانى: ٢٥/ ٢٣.

(٢) المنهل: المورد، وهو عين مـاء، ترده الإبل فى المرعى. وتسـمى المنازل التى فى المفـاوز على طريق السُّفـار: مناهل؛ لأن فيها مـاء- الصحاح، واللسـان (نهل). وفى البيت رد العجز على الصدر بكلمة : «مناهل».

(٣) انظر ص١١٣.

المناسب فى العرض أن يؤتى بالمعروض عند المعـروض عليه، وأن الأمر فى: عرضت الحوض على الناقة بالعكس.

وتفصيـل الكلام فى ذلك على وجه يعرف منه منشأ الخـلاف: أن العرض مطلقا لا يقـتضى ذلك، وإنما المقتـضى له: المعنى المقصـود من العرض وهو الميل إلى المعروض. ومن لم ينظر إلى الاعتبارين وقال: العرض إظهار شىء لشىء قـال: إن كـلا من القـولين على الأصل، وهو كـمـا قال العـلامـة السيالكوتى[١]: الحق؛ لأن كلا من الاعـتبارين خـارج عن مفهـوم العرض؛ فاحفظه؛ فإنه نفيس»[٢].

فقد نقل الألوسى عن الزمخشـرى تفسير الآية الكريمة بما يناسب النظم، ثم بين تفسيرها على القلب عند بعض العـلماء ، ووضح الاعتبار الذى بنوا عليه هذا التفـسير وهو أن المعروض عليه يجـب أن يكون له إدراك، ليميل به إلى المعروض، أو يـرغب عنه، وههنا الأمر بالعكس، ثم وضح الفـرق بين الآية الكريمة، والقـول المأثور؛ فالنار يوم القيامة مـدركة إدراك أولى العلم؛ بخلاف عـرض الناقة على الحـوض، ثم ذكر أن لا مـانع من تنزيل كل من النار والحوض منزلة المدرك، واستشهد بقول أبى العلاء؛ فالمناهل عنده تشتاق إلى الخيل إذا هى أعرضت عنها، ثم نقل الألوسى عن أبى حيان أن العرض نسبى، يصح إسناده لكل من الناقة والحوض.

وأقول: إن ما ذهب إليه الألوسى من إدراك النار يوم القـيامة صحيح، لا مريـة فيـه، ولكنه خارج عن المألوف المعـروف فى شأنهـا عند سمـاع الآية الكريمة، وأن ما ذهب إليه لا يخـرج معنى الآية عن القلب عند من رآه كما حكاه عنهم أبو حيان.

(١) هو عبـدالحكيم بن شمس الدين الهندى السيـالكونى البنجانى. نسبة إلى «سـيالكوت» التابعـة للاهور اتصل بالسلطان (شاهجـان) فأكرمـه وأعطاه ضيـاعـا كانت تكفيـه مؤونة السعى للعـيش. من تآليفه: عـقائد سيالكوت، وحـاشية على شـرح العقائد النسفـية. وحاشية على المطول. توفى سنة ١٠٦٧هـ- ١٦٥٦م.

(٢) روح المعانى: ٢٦/٢٢.

ويفسر الألوسي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾[1] على النظم، وعلى القلب البلاغي دون أن يتعرض له بالنقد. فيقول:

«أى: فكثر بسببه[2] «نبات الأرض» حتى التف بعضه ببعض؛ فالباء للسببية.

ومنهم من أبقاها على المصاحبة، وجعل الاختلاط بالماء نفسه؛ فإنه كالغذاء للنبات؛ فيجرى فيه، ويخالطه. والأول هو الذى يقتضيه كلام ابن عباس ﷺ»[3].

فجعل الباء للسببية فى قوله: «فاختلط به» دليل التفسير بالقلب، وأما على المصاحبة فدليل التفسير بالنظم، لأن المصاحبين يشتركان فى الاختلاط. فتقديم أى واحد من الماء، أو النبات يجعله فى موضعه، دون قلب، والمفسر قال بالرأيين فى الاية الكريمة.

فالألوسى عمل جاهدًا على تفسر هذه الآيات بما يتفق مع نظمها القرآنى. وذكر أنه الأولى فى تفسير بعض الآيات، وردَّ على من فسر بالقلب فى آيات أخرى. ولكنه فسر الآية الأخيرة بالتفسيرين معا؛ ولهذا ذكرته مع المجيزين للقلب البلاغى.

خامس عشر: محمد جمال الدين القاسمى (ت ١٣٣٢هـ):

منذ أقل من قرن ألف علامة الشام محمد جمال الدين القاسمى (١٢٨٣-١٣٣٢هـ) كتابه: «تفسير القاسمى المسمى محاسن التأويل ورجع فيه إلى كثير من كتب الفسير واللغة والبيان والآيات القرآنية التى عدها بعض العلماء من القلب البلاغى يفسرها القاسمى بما يتفق مع نظمها القرآنى. وقد يحكى القلب عن غيره وهذه أمثلة من تفسيره.

---

(١) سورة يونس الآية: ٢٤.

(٢) الضمير فى «بسببه» للماء فى قوله تعالى «كماء».

(٣) روح المعانى: ١١/ ١٠٠.

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[١] يقول القاسمي: «ولهذه الآية ثمرات هي أحكام شرعية الأولى: وجوب الوضوء وقت القيام إلى الصلاة. أي إرادته. .»[٢] ثم ينقل اعتراض الزمخشري وجوابه[٣]، فيقول: «فإن قلت: لم جاز أن يعبر عن إرادة الفعل بالفعل؟. .» كما يفسر قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾[٤] على تقدير الإرادة؛ فيقول: «أي أردنا إهلاكها بسبب مخالفة المنزل إليهم ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾[٥] فهذا التفسير يتفق مع نظم الآيتين الكريمتين.

ويفسر القاسمي الضحك بالحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾[٦] فيقول: «أي سرورا بزوال الخيفة، أو بهلاك أهل الخبائث»[٧] وهذا التفسير يتفق مع نظم الآية الكريمة كما سبق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[٨] يقول: «وإنه لحب المال والدنيا وإيثارها لقوي، ولحب تقوى الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس، وإنه لحب الخير الموصل إلى الحق شديد منقبض غير هش منبسط. .»[٩] وهذا التفسير يلائم نظم الآية الكريمة.

وينقل القاسمي عن ابن جرير التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[١٠] ثم ينقل عن الشهاب الخفاجي التفسير بالمجاز في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[١١]، فيقول:

«قال ابن جرير[١٢]: هذا من المؤخر الذي معناه التقديم، وإنما هو: ثم

(١) سورة المائدة الآية: ٦ .
(٢) تفسير القاسمي: ٦/ ١٨٧٧ .
(٣) انظر ص: ٣٣ .
(٤) سورة الأعراف الآية: ٤ .
(٥) تفسير القاسمي: ٧/ ٢٦١٧٠ .
(٦) سورة هود الآية: ٧١ .
(٧) تفسير القاسمي: ٩/ ٣٤٦٥ .
(٨) سورة العاديات الآية: ٨ .
(٩) تفسير القاسمي: ١٧/ ٦٢٤٠ .
(١٠) سورة النجم الآية: ٨ .
(١١) سورة النجم الآية: ٩ . وتفسير القاسمي: ١٧/ ٥٥٦٠
(١٢) انظر جامع البيان . المجلد الحادي عشر: ٢٧/ ٢٦ .

تدنى؛ فدنا، ولكنه حسن تقديم قوله: «دنا» إذا كان الدنو يدل على التدلي، والتدلى يدل على الدنو كما يقال: زارنى فلان فأحسن، وأحسن إلىَّ؛ فزارنى وقال الشهاب[١]: التدلى مجاز عن التعلق بالنبى بعد الدنو منه، لا بمعنى التنزل من علو كما هو المشهور، أو هو دنو خاصت بحالة التعلق؛ فلا قلب، ولا تأويل بأراد الدنو كما فى الإيضاح»[٢].

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أى: كأن مسافة ما بينهما مقدار قوسين. أى بقدرهما إذا مُدَّ، أو أقرب، أو الضمير لجبريل. أى: كأن قربه قدر ذلك.. وقد قيل: إنه مقلوب. أى قابى قوس، ولا حاجة إليه؛ فإن هذا إشارة إلى ما كانت العرب فى الجاهلية تفعله إذا تحالفوا أخرجو قوسين؛ ويلصقون إحداهما بالأخرى؛ فيكون القاب ملاصقا للأخر كأنهما ذوا قاب واحد.. كذا قاله مجاهد، وارتضاه عامة المفسرين»[٣].

وتفسير الآيتين على هذا مناسب للنظم، سواء كان هذا من التقديم والتأخير كما فى الآية الأولى، أو من المجاز التمثيلى لعروج جبريل بالنبى ﷺ؛ ولذا لم يرتض الشهاب الخفاجى القلب من بعض العلماء، فقال: «وقد قيل: إنه مقلوب»، ونقله القاسمى عنه.

ويفسر القاسمى اختلاط الماء بالنبات فى قوله تعالى: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾[٤] بقوله: «أى: فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا، فشبَّ وحسن، وعلاه الزهر والنَّوْر والنضرة»[٥].

فالباء فى قوله سبحانه: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ للسببية، وهى من أدلة التفسير بالقلب البلاغى؛ إذ المعنى: التفَّ النباتُ بسبب الماء وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا.

فالقاسمى فسَّر الآيات القرآنية التى دار حولها القلب البلاغى فسَّرها بما يتفق مع النظم، وذلك على التقديم والتأخير، أو المجاز بنوعيه المرسل، والاستعارة، ونادرًا ما قال بالقلب كما فى تأويل هذه الآية الكريمة.

---

(١) انظر حاشيته: ٨/ ١١١. (٢) جـ١ ص: ١٦٧.
(٣) تفسير القاسمى: ٨/ ١١١، وهذا نهاية النقل من حاشية الشهاب.
(٤) سورة الكهف الآية: ٤٥. (٥) تفسير القاسمى: ١٧/ ٤٠٦٥.

سادس عشر: الشيخ محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م):

من أهم كتب التفسير فى العصر الحديث «تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار» وهو ثمرة جهود طيبة مخلصة لثلاثة من كبار علماء الدين[١] والذى كان شغلهم تبصير الأمة بالدين الإسلامى ومعالجة مشاكل الأمة الإسلامية، والأمم الأخرى بما أرشد إليه الدين الحنيف.

---

(١) فى عهد الأستاذ الإمام محمد عبده (١٣٢٣هـ) ظهر منهج جديد فى تفسير القرآن يقوم تنقيته من الإسرائيليات والخرافات التى اختلطت به زمنا، وكذا تجريده من الاستطرادات اللغوية الكثيرة، والاقتصار على الضرورى منها لفهم الآية، والاهتمام بالأسلوب الأدبى الذى يبين المراد من النص، ويوضح حكمة التشريع فى العقائد والأحكام، ويكشف عن بلاغة القرآن وإعجازه، ويظهر ما فى كتاب الله من سنن الكون، ونظم الاجتماع، ويعالج مشاكل الأمة الإسلامية خاصة، ومشاكل الأمم عامة بما أرشد إليه القرآن الكريم.

وقد لقيت هذه الطريقة أنصارا، وكان فى مقدمتهم الشيخ محمد رشيد رضا، والإمام محمد مصطفى المراغى، ولكن الشيخ رشيد رضا كان أشد تأثرا بأفكار الإمام فى تفسير القرآن، وغيره من أمور الدين. وقد ولد الشيخ فى بلدة «القلمون» من بلاد الشام، وتلقى العلم على شيوخ طرابلس، ثم تطلع إلى لقائه بالأستاذ الإمام «محمد عبده» وتحقق له ذلك؛ فقد التقى به فى رجب ١٣١٥هـ ولازمه، واقترح عليه تفسير القرآن، فاستجاب الإمام، فكان هذا بداية لتفسير المنار.

ويقوم هذا التفسير فى حقيقة أمره على ثلاثة رجال. **الرجل الأول:** جمال الدين الأفغانى الذى كان همه الشاغل الدعوة إلى إصلاح المجتمع الإسلامى بالرجوع إلى منبع الدين، وتلقيه من هنالك صافيا خاليا من الشوائب.

والرجل الثانى: هو الشيخ محمد عبده الذى باشر هذا التفسير فعلا بإلقاء الدروس فى بيروت ثم فى الجامع الأزهر بمصر فى الست سنوات الأخيرة من حياته، وكان قد بدأ بأول القرآن، وانتهى عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾(النساء: ١٢٦)؛ إذ توفى رحمه الله.

والرجل الثالث: والذى يصح أن ينسب إليه تفسير المنار هو الشيخ رشيد رضا؛ فقد كان هو الداعى للأستاذ الإمام إلى أن يواصل هذا التفسير فى «مصر» بجهد ذى بال، ثم كان هو المتولى لتقييد ما يمليه الشيخ ويلخصه، وينشره فى مجلة المنار، ثم هو الذى أكمله بما==

وأما النصوص القرآنية التى قيل فى تأويلها بالقلب البلاغى فإنها فى هذا التفسير أول بعضها بما يتفق مع نظمها القرآنى، وأول بعض آخر بالقلب البلاغى. وهذه أمثلة تبين الأمرين:

١- يفسر الشيخ رشيد قوله تعالى: ﴿**وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا**﴾[١] بما يتفق مع النظم، فهو يؤيد الزمخشرى فى تقدير الإرادة قبل «أهلكناها» وفى ذلك يقول:

«كم» خبرية تفيد الكثرة. والقرية تطلق على الأمة. قال الراغب: القرية للموضع الذى يجتمع فيه الناس، وللناس جميعا «أى معا»، ويستعمل لكل منهما. قال تعالى: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾[٢]. وقال كثير من المفسرين: معناه أهل القرية. وقال بعضهم: بل القرية هنا: القوم أنفسهم[٣]..

والذين يقولون بالتقدير لا حاجة إليه هنا؛ لأن القرية تهلك كما يهلك أهلها، ولكنهم يقدرون المضاف فى قوله: ﴿**فَجَاءَهَا بَأْسُنَا**﴾ فيقولون: فجاء أهلها بأسنا بدليل وصفهم بالبيات والقيلولة، والمدينة لا تبيت ولا تقيل..

وقد استشكل بعض المفسرين[٤] من الآية ما لا إشكال فيه؛ إذ ظنوا أن عطف «جاءهم» على «أهلكناها» بالفاء يفيد أن مجىء البأس وقع عقب

== كان يدرجه من عنده وبيانه أثناء تلخيص ما قرره الشيخ «محمد عبده» وبما وصل به الكتاب من حيث انتهى الأستاذ الإمام استقلالا بما كمل به المجلد الخامس وتتابعت عليه المجلدات حتى المجلد الثانى عشر والأخير.

فمن حق الشيخ رشيد رضا أن ينسب إليه هذا التفسير- انظر: اتجاه التفسير فى العصر الحديث منذ عهد الإمام محمد عبده إلى مشروع التفسير الوسيط للشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير: ٧٦-٩٣، والتفسير ورجاله للشيخ محمد الفاضل بن عاشور: ١٦٧-١٧٠، والتفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى: ٢/ ٥٨٨-٦١٠ باختصار وتصرف.

(١) سورة الأعراف الآية: ٤. (٢) سورة يوسف الآية: ٨٢.

(٣) المفردات فى غريب القرآن (قرى): ٤٠٢.

(٤) يقصد لفراء، وابن جرير. انظر: معانى القرآن: ١/ ٣٧١، وجامع البيان: ٧/ ٨٧.

الإهلاك، وهو محال؛ لأنه سببه غافلين عن كـونه بيانا تفصيليا لنوعين منه. أحدهما ليلى، والآخر نهارى.. وتفصى بعـضهم كالزمخشرى منه بأن المراد بالإهلاك إرادته، كـما أن المراد من قـوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾[1]: إذا أردتم القيام إليها»[2].

فقد وافق صـاحبُ المنار الزمخشريَّ فى تقـدير لفظ الإرادة قبل كل من: الإهلاك، والقيام إلى الصلاة تفاديا من القلب. وهذا يتـفق مع تفسير الآيتين بالنظم.

٢- وفى قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنده فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾[3] يقول:

«﴿فَعُمِّيَتْ عليكُم﴾ قـرأها حمـزة والكسـائى وحفص بالـتشـديد، والبناء للمفـعول. أى فـحجبـها عنكم جـهلكم وغروركم بما لكم وجـاهكم فلم تستبينوا بها ما تدل عليه من التفرقة بينى وبينكم؛ إذ جعلتمونى بشرا مثلكم.

والتعبـير بعميتْ مخـففة ومشددة أبلغ من التـعبير بخفـيت وأُخفيتْ، لأنه مأخوذ من العمى المقتضى لأشد انواع الخفاء»[4].

فقد وجهت القراءة بالتشـديد على البناء لما لم يسم فاعله، لا بالقلب كما ذكر ابن جنى. وهذا تفسـير يلائم نظم الآية الكريمة وقد بُين أبلغيـة التعبـير بـ «عميتْ» على «أخفيت» لما تفيده الأولـى من شدة الخفاء عليهم، إمعانا فى غرورهم وضلالهم.

٣- وقد فسر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾[5] بما يقتضى القلب، فهو يقول: «أى أنبتت الأرض

(١) سورة المائدة الآية: ٦.

(٢) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار: ٨/ ٣١١.

(٣) سورة هود الآية: ٢٨.

(٤) تفسير القرآن الحكيم: ١٢/ ٦٤.

(٥) سورة يونس الآية: ٢٤.

أزواجا شتى من النبات تشابكت بسببه، واختلط بعضها ببعض في تجاورها وتقاربها على كثرتها واختلاف ألوانها»[١].

فتشابك النبات بسبب الماء، واختلاط بعضه ببعض يجعل الباء للسببية، وهى فى الآية دليل التفسير بالقلب البلاغى.

فتفسير المنار جاء فيه التأويل بما يتفق مع النظم لكثير من الآيات وللقلب البلاغى فى آيات أخرى وإن لم يصرح فيه بذلك.

سابع عشر: الشيخ الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)*:

منذ أقل من أربعين عاما رحل إلى جوار ربه الإمام محمد الطاهر بن عاشور التونسى وترك آثارا علمية جليلة أعظمها «تفسير التحرير التنوير» وهو سفر جامع للكثير من تأويلات المفسرين ومناهجهم مع إبداء رأيه فيها يعينه على ذلك عقلية فذة، واطلاع واسع فى الفكر الإسلامى.

وفى هذا التفسير نظرات كثيرة ومتناثرة فى القضايا والمسائل البلاغية؛ فلا يفوت الشيخ أن يبين اطرافا من الإعجاز البيانى فى تفسيره للآيات القرآنية، ويستشهد على ذلك بآراء العلماء والآيات الكريمة التى يدور حولها البحث يفسرها الشيخ بما يناسب السياق والنظم، وقلما يقول بالقلب.

فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ**﴾[٢] يقول: «ومعنى ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ**﴾ إذا عزمتم على الصلاة؛

---

(١) تفسير القرآن الحكيم: ١١/ ٣٤٧.

* هو الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور. رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس. مولده ووفاته ودراسته بها. وهو من أعضاء المجمعين العربيين فى دمشق والقاهرة. ألف: التحرير والتنوير، ومقاصد الشريعة الإسلامية، والوقف وآثاره فى الإسلام، وشرح ديوان بشار بن برد. وهو والد الشيخ محمد الفاضل بن عاشور وقد عاش بين (١٢٩٦-١٣٩٣هـ= ١٨٧٩-١٩٧٣)- الأعلام: ٦/ ١٧٤.

(٢) سورة المائدة الآية: ٦.

لأن القيام يطلق فى كلام العرب بمعنى الشروع فى الفعل.

قال الشاعر:

فقام يذودُ الناس عنها بسيفه وقال: ألا لا من سبيلٍ إلى هندِ

وعلى العزم على الفعل قال النابغة[١]:

قاموا فقالوا: حِمانا غيرُ مقروبِ

أى: عزموا رأيهم؛ فقالوا. والقيام هنا كذلك بقرينة تعدية بـ «إلى»؛ لتضمينه معنى: عمدتم إلى أن تُصلُّوا.

وروى مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم أنه فسَّر القيام بمعنى الهبوب من النَّوم»[٢].

فتقدير العزم، والهبوب، والعمد إلى القيام قبل فعله، وكذا تقدير العزم على القول قلبه من المجاز المرسل بعلاقة المسببية. وهذا تفسير يلائم النظم والسياق لكل من الآية الكريمة والشعر العربى.

ويزيد المفسر هذا المعنى وضوحا وبيانا؛ فيستشهد بآيات قرآنية تتفق مع مثل هذا التقدير وذلك عند قوله تعالى: **﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾**[٣] يقول:

«والأظهر أن «قرأت» مستعمل فى إرادة الفعل مثل قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا**

---

(١) هذا شطر بيت من قصيدة للشاعر ومطلعها:

١- إنِّى كأنىٍّ لدى النُّعمان خبَّرهُ بعض الأوُدِّ حديثًا غير مكذُوبِ

٢- بأن حصنًا وحيًّا من بنى أسدٍ قامُوا فقالوا: حمانا غيرُ مقرُوبِ

١- الأوُد: جمع وُدّ. وهو ذو الوُدّ. يقول: كأنى لدى النعمان بالقصة وقد أخبره بعض أهل وُدِّه عنكم أنه قد أخبر بسفهكم وسعيكم عليه، وذكركم إياه بالقبيح. يقول: هذا لبنى أسد، وكانوا خلفاء قومه؛ فخبرهم بهذا البيت.

٢- وحصن هو: حصنُ بن حذيفة الفزارى. والحِمىَ كل ما حميته ومنعت منه - ديوان النابغة الذبيانى: ٤٩.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/١٢٨.

(٣) النحل الآية: ٩٨.

الَّذينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾[١] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾. أى: يريدون العود إلى ازواجهم بقرينة قوله بعده: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ فى سورة المجادلة[٢]، وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾ فى سورة النساء[٣]. أى أوشكو أن يتركوا بعد موتهم، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[٤]. أى إذا أردتم أن تسألوهن. وفى الحديث[٥] «إذا بايعْتَ فقل: لا خِلابة».

وحمله قليل من العلماء على الظاهر من وقوع الفعل؛ فجعلوا إيقاع الاستعاذة بعد القراءة، ونسب إلى مالك فى المجموعة. والصحيح عن مالك خلافه، ونسب إلى النخعى وابن سيرين وداود الظاهرى وروى عن أبى هريرة»[٦].

فتفسير العود إلى الأزواج، وكذا سؤال المتاع والبيع بتقدير الإرادة قبل كلٍّ منها، وكذا تفسير ترك الذرية الضعاف بقوله: «أوشكو» من المجاز المرسل كما سبق، وهو تفسير يناسب سياق الآيات الكريمة ونظمها القرآنى.

وفى تفسير آية المجادلة[٧] السابقة أعاد الشيخ هذا المعنى؛ فقال:

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٣٥.

(٢) آية: ٣.   (٣) آية: ٩.

(٤) سورة الأحزاب الآية: ٥٣.

(٥) روي فى سنن أبى داود. المجلد الثالث: برقم (٣٥٠٠) وهو بلفظ: «حدثنا عبدالله بن مسلمة بن مالك عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر أن رجلا ذكر لرسول الله ﷺ أنه يُخدع فى البيع؛ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا بايعْتَ فقل: لا خلابة». وهو برواية ابن عمر رضي الله عنه فى مسند الإمام أحمد. المجلد الثانى: ٦١.

(٦) تفسير التحرير والتنوير: ١٤/ ٢٧٤.

(٧) تفسير التحرير والتنوير: ١٤/ ٢٧٤. آية: ٩.

«ويحتمل أن يراد: أنهم يريدون العود إلى أزواجهم. أى لا يحبون الفراق، ويرومون العود إلى المباشرة.. وعليه فقد استعمل فعل «يعودون» فى إرادة العودة كما استعمل فعل مستعمل فى معنى إرادة العود والعزم على العود بالفعل، لأنه لو كان عودًا بالفعل لم يكن لاشتراط التفكير قبل المسيس معنى، فانتظم من هذا معنى: ثم يريدون العودة إلى ما حرموه على أنفسهم، فعليهم كفارة قبل أن يعودوا إليه على نحو قوله تعالى: ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ**﴾[1].. وقول الرسول ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله[2]»[3].

وحمل الإمام قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾[4] على التشبيه البليغ، فالمعنى على هذا جار على نسق النظم. يقول: «والأصنام لا إدراك لها؛ فلا توصف بالعداوة، ولذلك قال: «فإنهم عدو لى» من قبيل التشبيه البليغ. أى هم كالعدو لى في أنى أبغضهم وأضرهم. وهو قريب من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾[5] أى عاملوه معاملة العدو»[6].

---

(١) سورة المائدة الآية: ٦.

(٢) أخرجه الترمذى فى المجلد الرابع. أبواب صفة القيامة والرقائق والورع برقم (٢٥١٦) ص: ٢٨٤. برواية: «حدثنا أحمد بن محمد بن موسى قال: أخبرنا عبدالله بن المبارك. عن ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما؛ فقال: يا غلام. إنى أعلمك كلمات. احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك..» وأخرجه أحمد فى مسنده ٥: ١/ ٢٩٣، ٢٩٣، ٣٠٧.

(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٦.

(٤) سورة الشعراء الآية: ٧٧.

(٥) سورة فاطر الآية: ٦.

(٦) تفسير التحرير والتنوير: ١٩/ ١٤٠.

-٢-

ويتبع الإمام قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ بقوله: «جاء على القلب. وأصله: وقد بلغت الكبر، وفائدته: إظهار تمكن الكبر منه، كأنه يتطلبه حتى بلغه، كقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾[1]»[2].

وبين الشيخ[3] الكبر بأنه: «كثرة سنى العمر؛ لأنه يقارن ظهوره قلة النشاط واختلال نظام الجسم، وهو مجاز فى حلول الانسان «أى حلول هذا الوصف فيه»[3].

ويحكى الشيخ ابن عاشور القلب فى قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾[4]، فيقول: «العرض: إظهار الشىء وإرادته للغير، ولذلك قول العرب: عرضت الناقة على الحوض معدود عند علماء اللغة وعلماء المعانى من قبيل القلب فى التركيب، ثم تتفرع عليه إطلاقات عديدة متقاربة[5] دقيقة تحتاج إلى تدقيق.

ومن إطلاقاته قولهم: عرض الجند على الأمير، وعرض الأسارى على الأمير، وهو إمرارهم ليرى رأيه فى حالهم ومعاملتهم، وهو إطلاقه هنا على طريق الاستعارة. استعير لفظ «يعرضون» لمعنى يُمرّ بهم مرًّا عاقبته التمكن منهم، والحكم فيهم؛ فكأن جهنم إذا عرضوا عليها تحكم بما أعد الله لهم من حريقها»[6].

---

(١) سورة النساء الآية: ٧٨.
(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٣/ ١٤٢.
(٣) المرجع السابق: ١٦/ ٧٠ فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾. سورة مريم: ٨.
(٤) سورة الشورى الآية: ٤٥.
هذا إشارة إلى ما كتبه أبو حيان فى البحر المحيط: ٨/ ٥٧١، والشهاب الخفاجى في حاشيته على البيضاوى: ٧/ ٤٢٦.
(٥) تفسير التحرير والتنوير: ٢٥/ ١٢٦.
(٦) تفسير التحرير والتنوير: ٢٥/ ١٢٦.

ويذكر الإمام إعرابين فى قوله تعالى: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾[١] ويبنى على كل منهما معنى. والإعراب الأول يوافق نظم الآية، والثانى على القلب دون أن يردّه الإمام أو ينكره. وقد تأثر فى هذا بأبى جعفر النحاس فى كتابه: «إعراب القرآن»[٢].

فالآيات القرآنية التى دار الخلاف حول معناها بالنظم، أو القلب البلاغى يفسر الشيخ ابن عاشور قدرا كبيرا منها بما يتفق مع نظمها القرآنى، ونادرا ما يقول بالقلب فى بعضها أو يحكيه عن بعض العلماء.

ثامن عشر: الشيخ محمد على الصابونى:

كتب الشيخ الصابونى تفسيرا للقرآن الكريم* سماه: «صفوة التفاسير» وذكر أنه «جامع بين المأثور والمعقول، ومستمد من أوثق كتب التفسير

---

(١) سورة القيامة الآية: ١٤.

(٢) جـ١ ص٨٢.

* ذكر المؤلف فى المقدمة: أن القرآن الكريم لايزال بحرا زاخرا بأنواع العلوم والمعارف، وأنه لايزال يتحدى أساطين البلغاء، ومصاقيع العلماء بأنه الكتاب المعجز، المنزل على النبى الأمى شاهدا بصدقه، يحمل بين دفتيه برهان كماله، وآية إعجازه.

وإن هذا الكتاب سيظل يمنح الإنسانية من علومه ومعارفه، ومن أسراره وحكمه ما يزيدهم إيمانا وإذعانا بأنه المعجزة الخالدة، وأنه تنزيل الحكيم الحميد. وإن العلماء على كثرة ما ألفوا فى تفسير القرآن الكريم فإنه يبقى زاخرا بالعجائب، مملوءا بالدرر والجواهر من الإشراقات الإلهية، والفتوحات القدسية، والنفحات النورانية، ولايزال العلماء يقفون عند ساحله، يرتشفون من معينه الصافى ولا يرتوون. ومن ذا الذى يستطيع أن يحيط بكلام رب العزة -جل وعلا- وأن يدرك أسراره ودقائقه وإعجازه، وأن يزعم أنه أوفى أو وصل إلى درجة الكمال!!

وإن من واجب العلماء اليوم أن يبذلوا جهدهم لتيسير فهمه على الناس بأسلوب واضح، وبيان ناصع. لا حشو فيه ولا تطويل. ولا تعقيد ولا تكلف. وإن يبرزوا ما فى القرآن من روعة الإعجاز. والبيان.

ولذا عزم الشيخ على كتابة هذا التفسير، واضعا نصب عينيه هذا المنهج ففيه عون للمسلم على فهم آيات القرآن، والتزود من بيانه ما يزيده إيمانا ويقينا بربه.. ==

«الطبـري، الكشـاف، القرطبـي، الألوسي، ابن كثـيـر، البـحر المحـيط» وغيرها. . والمؤلف يذكر في مواضع كثيرة مؤلفي هذه الكتب أو يشير إليهم. وقد كتب هذا التفسير بأسلوب ميســر، وبعيد عن الخلافات اللغوية وغيرها. وكان قد كتبه في «مكة المكرمة»، وأتمه في غرة ذي الحجة ١٣٩٩هـ.

وأما الآيات القرآنية التي يدور حولها البحث فإن الشيخ الصابوني يسترشد بآراء العلماء، فيفسر معظمـها بما يتفق مع نظمها القرآني، ونادرا ما ينقل عن العلماء تفسير بعضها مع القلب البلاغي. وهذه أمثلة من تفسيره:

في تفسيـر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾[1] يقول الصابوني:

«أي صفة الحياة الدنيا، وحالها العجيبة في فنائها وزوالها، وذهاب نعيمها واغتـرار الناس بها كـمثل مطر نزل من السـماء؛ فنبت به أنواع مـن النبات مخـتلط بعضهـا ببعض. قال ابن عبـاس: اختـلط، فنبـت بالماء كل لـون «مما يأكل الناس والانعام»[2].

فقد ذكر أن المطر -الماء- نزل من السماء فنبت به انواع النبات؛ فراعى في تفسير الآية ترتيب الكلمات، واستشهد بقول ابن عباس.

وقدر الشـيخ الإرادة في تفسير بـعض الآيات، وهذا على المجاز المرسل؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾[3] يقول: «أي: وإن أراد اصابتك بنعمه أو رخاء، فلا يمنعه عنك مانع»[4].

== يقول الشيخ: «وقد أسميت كتابي: «صفـوة التفاسير»؛ وذلك لأنه جامع لعيون ما في التفاسير الكبيرة المفصلة، مع الاختـصار والترتيب، والوضوح والبيان. . وقد سلكت في طريقي لتفسير الكتاب العزيز الأسلوب الآتي:

أولا: بين يدي السـورة. وهو بيان إجمالي للسورة الكريمة، وتوضيح مقاصدها الاساسية.

ثانيا: المناسبة بين الآيات السابقة، والآيات اللاحقة. ...

(١) سورة يونس الآية: ٢٤ .
(٢) صفوة التفاسير: ٥/ ٥٨٠ .
(٣) سورة يونس الآية: ١٠٧ .
(٤) صفوة التفاسير: ٥/٥٩٩ .

وفى قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ يقول: ﴿فإذا قرأت القُرْآنَ﴾[١] أى إذا أردت تلاوة القرآن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٢].

وفى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[٣] يقول: «أى: وإذا أردتم حاجة من أزواجه الطاهرات فاطلبوا من وراء حاجز وحجاب»[٤].

وفى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[٥] يقول: «المعنى: يا أيها النبى، ويا أيها المؤمنون إذا أردتم تطليق النساء ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أى: فطلقوهن مستقبلات لعدتهن»[٦].

ويتأثر الشيخ بالزمخشرى فى تفسير قوله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[٧] فيقول: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى: تنح إلى مكان قريب مستترا عنهم ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أى: فانظر ماذا يردون من الجواب[٨]؟

ويفسر الصابونى الضحك على الحقيقة فى قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا﴾[٩]، فيقول:

أى: وامرأة ابراهيم، واسمها «سارة» قائمة وراء الستر، تسمع كلامهم؛ فضحكت استبشارا بهلاك قوم «لوط»؛ ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[١٠] وهذا تفسير يلائم نظم الآية، وبه قال الزجاج وغيره من العلماء.

(١) سورة النحل الآية: ٩٨.
(٢) صفوة التفاسير: ٧ / ٤٢.
(٣) سورة الأحزاب الآية: ٥٣.
(٤) صفوة التفاسير: ١٢/ ٥٣٥.
(٥) سورة الطلاق الآية: ١.
(٦) صفوة التفاسير: ١٨ / ٣٩٨.
(٧) سورة النمل الآية: ٢٨.
(٨) صفوة التفاسير: ١٠/ ٤٠٦.
(٩) سورة هود الآية: ٧١.
(١٠) صفوة التفاسير: ٦/ ٢٤.

ويفسر قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[(١)] بقول: «أى: ومنعنا موسى أن يقبل ثدى أى مرضعة من المرضعات اللائى أحضروهن، لإرضاعه من قبل مجيء أمه»[(٢)].

فتفسير التحريم بالمنع يلائم التفسير بالنظم، إذ لا تكليف على المرضع، وقد ورد هذا التفسير عن ابن عباس[(٣)] رضي الله عنهما.

ويشير الصابونى إلى الزجاج فى تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ كما ينقل عن الألوسى فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[(٤)] وهو تفسير يلائم النظم والسياق.

وفى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[(٥)] يقول: «أى: وإنه لشديد الحب للمال، حريص على جمعه، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيف متقاعس»[(٦)] وهذا تفسير بالنظم.

ويفسر الصابونى قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[(٧)] بقوله: «أى: النار يحرقون بها صباحا ومساءًا..»[(٨)].

وتفسير عرض النار على الكافرين بالاحراق أو التعذيب تفسير يلائم نظم الآية الكريمة.

ولكن الصابونى فسر فى موضع آخر هذا العرض بما يفهم منه القلب البلاغى على ما رآه الزمخشرى- ففى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ

---

(١) سورة القصص الآية: ١٢ .
(٢) صفوة التفاسير : ١٠/٢٤٦ .
(٣) انظر مجمع البيان : ٢٠/٢٧١ ، ص :
(٤) سورة النجم الآية: ٨ ، ٩ ،وصفوة التفاسير : ١٧/ ٢٧٣ .
(٥) سورة العاديات الآية: ٨ .
(٦) صفوة التفاسير : ٢٠ / ٥٩٣ .
(٧) سورة غافر الآية: ٤٦ .
(٨) صفوة التفاسير : ١٤/ ١٠٤ .

كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾[1] يقول: «أى: وذكرهم يا محمد يوم يكشف الغطاء عن نار جهنم، وتبرز للكافرين؛ فيقربون منها، وينظرون إليها»[2].

وقلت: « على ما رآه الزمخشرى » لأنى أرى أن هذا العرض أيضا من قبيل التعذيب، ولاسيما التعذيب النفسى، وماذا ينتظر الكافر بعد معاينة النار، ولا شفيع ثمة ولا ناصر!، بل إنه العقاب والجزاء من جنس العمل!.

★ ★ ★

ومع نهاية هذا الفصل أقول :

إن المجيزين للقلب البلاغى فى تأويل بعض آيات القرآن الكريم كثير من العلماء، وهم من علماء اللغة والمفسرين للقرآن الكريم، ولكن هؤلاء العلماء يبدءون تفسير هذه الآيات بما يتفق مع نظمها القرآنى وذلك يحمل المعنى على التقديم والتأخير، أو المجاز بنوعيه : المرسل، والاستعارة. أو تفسير الكلمة -فى بعض النصوص- بما يتفق مع النظم والسياق ثم يفسرون النصَّ بالقلب البلاغى، ومنهم من يشترط له أمن اللبس، وفى هذا ما يقلل من شأن القلب عند هؤلاء العلماء.

وهؤلاء العلماء يستشهدون فى كلا الأمرين بمأثور كلام العرب شعرا ونثرا، ولكنهم فى التأويل بالنظم يزيدون الاستشهاد بسياق الآية الكريمة.

وأخيرا. فالتفسير عندهم نهذه الآيات يكون بالنظم أولا وأما على القلب البلاغى فهو رأى آخر، أومرجوحا.

(١) سورة الأحقاف الآية : ٢٠ ، وانظر : الكشاف : ٣/ ٢٣٠ .

(٢) صفوة التفاسير : ١٥/١٩٧ .

الفصل الثانى
المانعون للقلب البلاغى فى القرآن الكريم

العلماء المانعون للقلب البلاغى فى القرآن الكريم كثير، وهم من علماء اللغة والبيان والتفسير، وهؤلاء العلماء -كما قلت- لديهم من قوة الحجة، ووضوح الأدلة، وبعد الرأى، وشدة الغيرة على كتاب الله -تعالى- ما جعلهم يؤولون هذه الآيات الكريمة بما يتفق مع النظم القرآنى الذى جاءت عليه من عند الله.

وسنبين فى هذا الفصل وجهة نظر عدد كبير من هؤلاء العلماء، ونتبين طرقهم وأساليبهم فى الردّ على المجيزين لهذا القلب عند تأويل بعض آى القرآن الكريم.

أولا : الأصمعى (ت٢١٣هـ) :

كتب عبد الملك بن قُريب الأصمعى مصنفات كثيرة منها : « كتاب الأضداد «وبما درس فى هذ الكتاب الكلمات ذوات المعانى المتضادة؛ فيبين معانيها مع التنبيه على الوجه الصحيح منها، وإيراد الشواهد على ذلك نثرا وشعرا.

وجاء فى هذا الكتاب قول[1] الأصمعى :

« وقال الأشرم : أخبرنى أبوعبيدة قال : نُؤْتُ بالْحمْل إذا نهضتَ مُثقلا، وناءنى الحملُ: إذا أثقلك وغلبك. وأنشد ابن الأعرابى:

إنِّى وجدِّك ما أقضى الغريمَ وإن حانَ القضاءُ وما رقَّتْ له كَبدى
إلاَّ عَصا أرْزَن طارتْ بُرايتُها تَنُوءُ ضربتُها بالكفِّ والعضُد

أى : تثقل ضرّبتَها الكف والعضد.

وشبيه بهذا البيت قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾[2]. أى تُثقلُهمْ»[3].

فالباء فى كل من : «بالكفِّ» ، و«بالعصبة» للتعدية، وقد بين الأصمعى المعنى فى كل من البيت الثانى، والآية الكريمة موافقا للنظم.

فالأصمعى فسر الآية الكريمة بما يتفق مع نظمها، دون قلب .

(١) ورد القلب أيضا فى مادة : (هيب) والأمثلة فيها من كلام الناس فقط. (٢) سورة القصص الآية: ٧٦ .
(٣) كتاب الإضداد : (ناءَ) : ٤٨ ، ٤٩ ضمن:(ثلاثة كتب فى الأضداد للأصمعى وللسجستانى ولابن السكيت» .

ثانيا: ابن قتيبة (ت ٢٧٦)*:

من أهم مؤلفات ابن قتيبة «تأويل مشكل القرآن» والكتاب حافل بالدراسات فى اللغة والبيان. وقد عقد فيه مؤلفه بابا سماه: «باب المقلوب» وكلامه فى هذا الباب يشمل نوعين:

الأول: القلب فى المعنى[١]. أى فى معنى اللفظ المفرد، وهو بعيد عن موضوعنا؛ لأن مجاله: علم اللغة. **والثانى:** القلب البلاغى، وهو ما سنتناوله بالدراسة:

وقد صدر ابن قتيبة هذا النوع بقوله: «ومن المقلوب» لبيان أهميته وأثره؛ ولذا وقف عنده كثيرا شارحا ومتأملا وناقدا غير أنه خلط أمثلته ببعض أمثلة التقديم والتأخير فقال:

«ومن المقلوب: أن يقدم ما يوضحه التأخير، ويؤخر ما يوضحه التقديم كقوله تعالى: ﴿**فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ**﴾[٢] أى: مخلف رسله وعده؛ لأن الإخلاف قد يقع بالوعد كما يقع بالرسل؛ فتقول: أخلفتُ

---

* هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم المروزى ويقال: إنه ولد ببغداد أو الكوفة سنة ٢١٣هـ ولكنه نشأ ببغداد وتلقى العلم على مشاهير عصره صنف كثيرا من الكتب فى مقدمتها: تأويل مشكل القرآن، وغريب الحديث، وتفسير غريب القرآن، وكتاب «المعارف»، «الشعر والشعراء». توفى (ت٢٧٦هـ).

(١) تناول ابن قتيبة فيه القلب فى المعانى من الألفاظ ذوات العلاقات المشتركة كالترادف والمشترك، وكذا ما يعرف بالنسبية بين معانى الأشياء مثل: التطير والتفاؤل كقولهم للديغ: سليم تطيرا من السّقم، والاستهزاء كقولهم للرجل تستجهله: يا عاقل، والمبالغة فى الوصف كقولهم للغراب: أعور؛ لحدة بصره.
ومنه أن يسمى المتضادان باسم واحد؛ فيقال للصبح صريم، ولليل: صريم؛ لأن كلاهما ينصرم عن الآخر. وأما النسبية بين الأشياء فهى أن يراد باللفظ معنيان متضادان كل منها صحيح بالنسبية إلى شىء آخر مثل «جلَل» للكبير، وللصغير؛ لأن الصغير يكون كبيرا عن ما هو أصغر منه، والكبير يكون صغيرا عندما هو أكبر منه؛ فكل واحد منهما صغير وكبير باعتبارين. تأويل مشكل القرآن: ١٨٥-١٩٢ باختصار.

(٢) سورة إبراهيم الآية: ٤٧.

الوعدَ، وأخلفتُ الرسُلَ »[١].

فقد أضيف «مخلف» إلى مفعوله الثانى، وأخر الأول «رسله» . وذلك «ليؤذن أنه -تعالى- إذا لم يخلف وعده أحدًا، وليس من شأنه إخلاف المواعيد كيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوتة»[٢]!.

ويقول ابن قتيبة : «وكذلك قوله سبحانه: ﴿فإنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[٣] أى : فإنى عدو لهم ؛ لأن كل من عاديته عاداك» وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[٤] أى تدلى فدنا، لأنه تدلَّى للدنو، ودنا بالتدلِّى».

ومما مثل به للتقديم قوله سبحانه : ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾[٥] يقول : « أى بشرناها بإسحاق فضحكت»[٦].

وأخذ ابن قتيبة يورد المثل من القرآن والشعر على هذا النحو الذى يجعل التقديم من القلب. يذكر ما سوغ وضع المقدم موضع المؤخر؛ لما بينهما من ارتباط وتعلق. وقد انفرد ابن قتيبة بهذا المنهج فى التقديم والتأخير»[٧].

ودراسة ابن قتيبة عن القلب فى تأويل بعض آيات القرآن الكريم تشتمل على أمرين:

الأول: عرضه لأمثلة منها عند العلماء.

الثانى: موقفه من هذا التأويل على ضوء بعض الأمثلة مع إعلان رأيه فيه بوضوح.

وبالنسبة للأمر الثانى فإن ابن قتيبة يعلن عن رأيه؛ فيقول:

« ... وهذا ما لا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب الله- عزوجل- لو لم يجد له مذهبا؛ لأن الشعراء تقلب اللفظ، وتزيل الكلام على الغلط،

(١) تأويل مشكل القرآن : ١٩٣.
(٢) الكشاف : ٢/ ٣٨٤ .
(٣) سورة الشعراء الآية: ٧٧.
(٤) سورة النجم الآية: ٨.
(٥) سورة هود الآية : ٧١.
(٦) تأويل مشكل القرآن : ٢٠٦ .
(٧) صور من تطور البيان العربى : ٢٢.

أو على طريق الضرورة للقافية، أولاستقامة وزن البيت. . والله - تعالى - لا يغلط، ولا يضطر»[١].

والمراد أنه ما الداعى إلى التأويل بالقلب فى كـلام الله -تعالى- إذا كانت هذه هى دواعى القلب فى الشعر؟!.

ويعرض ابن قـتيبة لأمـثلة من ضرورات الشعر غـير أن أكثر مـا مثل به لا ينطبق عليه مفهوم القلب البلاغى، ولكنه يُحمل على الغلط، أو النسيان ومن ذلك قوله:

وقال آخر :

صبَّحن من كـاظمة الخُصَّ الْخرِبْ يحـملْن عـبـاسَ بن عـبـدالمطَّلب

أراد: « عبدالله بن عباس»؛ فذكر أباه مكانه.

وقال الصلتان :

أرى الْخطفِىَّ بذَّ الفـرزْدق شـعـرُهُ ولكن خـيـراً من كليبٍ مـجـاشـعُ

أراد: أرى جريرًا بذ الفرزدق شعره ؛ فلم يمكنه ؛ فذكر جدَّه.

. . وقال آخر :

مـثل النَّصـارى قتـلوا المسيـحـا[٢]

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ٢٠٠-٢٠٢ .

(٢) هى رواية ابن قتـيبة فى المعانى الكبـير: ٢/ ٨٧٩ ، والوساطة : ٤٧٣ وعلق ابن قتـيبة بقوله: «سمع بالنصارى والمسيح ولم يدر كـيف كان الأمر، فقال على ما توهم. والواقع أنه لم يقع قتل للمسيح-عليه السلام -من أحد. قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٥٧، ١٥٨). ولذا كانت رواية ابن منظور تتفق مع الحق. قال «وأنشد:

« إذا المسيحُ يقتلُ المسيحَا »

يعنى عيسى بن مريم يقتل الدّجال». اللسان (مسح).

أراد : اليهود »[١].

هذه الأمثلة لا علاقة لها بالقلب البلاغي؛ إذ لا طرفين في كل منها حدث بينهما تبديل في المكان. وإنما وضع في كل من البيتين: الأول والثانى كلمة بدل أخرى، وفي الثالث توهم القائل ؛ فوضع النصارى بدل اليهود.

ومن أمثلة ابن قتيبة ما ينطبق عليه مفهوم القلب، فقد أورد قول الشاعر:

إن الكـريمَ وأبيـكَ يعــتـــملْ إن لم يجـدْ يومًـا على مَـنْ يتَّكلْ

ثم علق بقوله: «أراد : إن لم يجد يوما من يتكل عليه»[٢].

ومن بيانه للتفسير بالنظم القرآنى ما جاء فى قوله :

« وأراد بقوله : **﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى الْقُوَّةِ﴾** أى : تميلها من ثقلها» فهذا ما قاله كثير من العلماء كالفراء[٣] وغيره.

ونقل ابن قتيبة عن بعض المفسرين وخيار السلف آراء فى معنى قوله تعالى: **﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾**[٤] منها قوله: «اجعلنا نقتدى بمن قبلنا حتى يقتدى بنا من بعدنا؛ فهم على هذا التأويل متبِّعُون ومتَّبَعُون»[٥].

فابن قتيبة بين وجهة نظر من قال بالقلب فى تأويل بعض آيات القرآن الكريم ثم أعلن رأيه بأنه لا يجوز لأحد أن يحكم بالقلب على كتاب الله -عزوجل- لو لم يجد له مذهبا، وذكر أن القلب وقع فى الشعر على سبيل الغلط، أو الضرورة. ثم فسر تلك الآيات بما يتفق مع النظم القرآنى.

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ٢٠٠-٢٠٣.
(٢) تأويل مشكل القرآن : ٢٠٣.
(٣) انظر. ص : ٢٣ .
(٤) سورة الفرقان الآية: ٧٤.
(٥) تأويل مشكل القرآن : ٢٠٥.

ثالثا: ابن جرير الطبرى (٣١٠هـ):

ألف ابن جرير كتابه « جامع البيان فى تفسير القرآن » وهو كتاب جامع للتفسير بالمأثور مع بيان اختلاف الآراء مدعمة بقواعد اللغة والبيان والاستشهاد من كلام العرب، وقد وقف مولفه -رحمه الله- كثيرا عند الآيات قيل فيها بالقلب دارسا ومتأملا آراء الفريقين ثم أنكر بقوة وجوده فى هذه الآيات، وفسرها بما يتفق مع النظم الذى نزلت به من عند الله تعالى، ولابن جرير فى هذا طرق شتى.

ففى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[1]. يقول:

« قال أبو جعفر : أما تأويل (فتلقى آدم) فقيل : إنه أخذ. وقيل: أصله التفعُّل من اللقاء. كما يتلقى الرجلُ الرجلَ: يستقبله عند قدومه من غيبة أو سفر، فكذلك ذلك فى قوله: (فتلقى) كأنه استقبله، فتلقاه بالقبول حين أوحى إليه، أو أخبر به فمعنى ذلك إذا: فلقَّى اللهُ آدم كلماتٍ توبة، فتلقاها آدمُ من ربه وأخذها عنه، تائبا، فتاب الله عليه بقيله إياها وبقبوله إياها من ربه..

وقرأ بعضهم : فتلقى آدم من ربه كلماتٌ ؛ فجعل الكلمات هى المتلقية آدم. وذلك وإن كان من جهة العربية جائزا، إذ كان كل ما تلقاه الرجل فهو له متلق، وما لقيه، فقد لقيه، فصار للمتكلم أن يوجه الفعل إلى أيهما شاء، ويخرج من الفعل أيهما أحبّ. فغير جائز عندى فى القرآة إلا رفع آدم على أنه المتلقى؛ لإجماع الحجة من القراء، وأهل التأويل من علماء السلف والخلف على توجيه التلقى إلى آدم، دون الكلمات، وغير جائز الاعتراض عليها فيما كانت عليه مجمعة بقول من يجوز عليه السهو والخطأ..»[2].

فابن جرير يرى أن القراءة بنصب «آدم» ورفع «كلمات» وإن كانت جائزة

(١) سورة البقرة الآية: ٣٧.

(٢) حامع البيان فى تفسير القرآن. المجلد الأول ص١٩٣.

فى اللغـة؛ لاشتراك كل من الطـرفين فى معنـى التلقى إلا أنها قـراءة شاذة؛ لمخالفتـها الإجماع على توجيه التلقـى إلى «آدم». ومعنى الآية على القراءتين صحيح دون قلب ولكن لا داعى إلى هذه القراءة.

وقريـب من هذا التعليل مـا قاله ابن جـرير فـى تفسـيـر قولـه تعـالـى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾[1] حيث أتبعه بقوله: « وقال فى موضع آخر ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[2]؛ لأن ما بلغك فقد بلغته، وإنما معناه: قد كبرتُ وهو كقول القائل: « قد بلغنى الجهد» بمعنى: إنى فى جهد»[3]. فقد علل للتفسير بالنظم باشتراك كل من زكريا -عليه السلام- والكبر فى معنى البلوغ. فعلى هذا كل منهما فى موضعه؛ قدم أو أخر.

وفى قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[4] يقول ابن جرير: اختلف أهل التأويل فى تأويله، فقال بعضهم: (من عـجل) فى بنيته وخلقته كأنه من العجلة وعلى العجلة. وقال آخرون: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أى: من تعجيل فى خلق الله إياه، ومن سرعة فيه، وعلى عجلَ ».

ونسب الطبـرى هذا الرأى إلى بعض علمـاء البصـرة[5] ثم فسـره بقوله: «وهو يعنى أنه خلقه من تعجـيل من الأمر؛ لأنه قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[6]. قـال: فـهذا مـن الـعجـل، وقـولـه: ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أنى سأريكم آياتى. والطبرى يشيـر بهذا إلى معنى المبالغة فى (عجل). ثم يقول:

وقـال آخرون منهم: هذا من المقلـوب. وإنما خلق العجل من الإنسـان،

(١) سورة آل عمران الآية: ٤٠.
(٢) سورة مريم الآية: ٨.
(٣) جامع البيان: المجلد التاسع: ٦/ ٣٤، وانظر معانى القرآن وإعرابه: ١/ ٤٠٨.
(٤) سورة الأنبياء الآية: ٣٧.
(٥) جامع البيان المجلد السابع: ١٧/ ٢٠.
(٦) سورة النحل الآية: ٤٠.

وخلقت العجلة من الإنسان. وقالوا ذلك مثل قوله: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى الْقُوَّةِ﴾. إنما هو: لتنوء العصبة بها متثاقلة.

وقالوا هذا وما أشبهه فى كلام العرب كثير مشهور.

قالوا: وإنما كلم القوم بما يعقلون. قالوا: وذلك مثل قولهم: عرضت الناقة على الحوض، وكقولهم: إذا طلعت الشعرى واستوى العود على الحرباء. أى استوت الحرباء على العود ونحو ذلك من المقلوب. وفى إجماع أهل التأويل على خلاف هذا القول الكفاية المغنية عن الاستشهاد على فساد غيره»[١].

ذكر الطبرى رأيين الأول المبالغة ويدل عليها المصدر (عجل) سواء حمل على العجلة فى خلق الله لآدم، أم جعلت العجلة صفة متأصلة فيه فالمعنى فيها على المبالغة. وهو الرأى. والثانى: المقلوب. وقد بين الإمام مخالفته لإجماع أهل التأويل، وأنه يدل على فساده.

ويذكر الطبرى رأيين فى قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى الْقُوَّةِ﴾[٢]. فبعض علماء البصرة يرى أنه من المقلوب، ويستشهد عليه بكلام العرب نثرا وشعرا، وينكر هذا القلب بعض علماء الكوفة[٣] ذاهبين إلى تفسير المعنى بما يلائم نظم الآية الكريمة.

وفى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ يقول ابن جرير: « أى لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله. قاله الحسن. وقيل: فيه تقديم وتأخير. المعنى لكل كتاب أجل. قاله الفراء والضحاك. أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤقت، ووقت معلوم»[٤].

(١) جامع البيان. المجلد التاسع: ١٧/ ٢٠.
(٢) سورة القصص الآية: ٧٦.
(٣) جامع البيان. المجلد العاشر: ٢٠/٦٩.
(٤) جامع البيان. المجلد السابع: ١٣/١١١.

المعنى فى كلا الرأيين على التفسير بما يتفق مع نظم الآية الكريمة. والتقديم والتأخير من بلاغة النظم.

وفى قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾[١] يورد الطبرى اعتراضا فيقول:

« فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ وهل هلكت قرية إلا بمجيء بأس الله، وحلول نقمته وسخطه بها. فكيف قيل: أهلكناها فجاءها وإن كان مجيء بأس الله إياها بعد هلاكها فى وجه مجيء ذلك قوما قد هلكوا، وبادوا لا يشعرون بما ينزل بهم، ولا بمساكنهم»؟!

ومجمل ما قاله ابن جرير فى الرد أمران[٢]:

الأول: أهلكناها بالخذلان عن اتباع ما أنزل إليها من الهداية بسبب اختيارها اتباع أمر أوليائها المغوين؛ فجاء بأس الله إياهم جزاء لمعصيتهم.

الثانى: أن الإهلاك هو معنى الباس[٣]، فكلاهما يدل على الآخر، فصارا سواء فى تقديم أى منهما على الآخر. وبهذا يدفع الاعتراض ولسنا بحاجة إلى القلب.

فالإمام الطبرى يورد فى تفسيره «جامع البيان» آراء العلماء مؤيدة بالمأثور، وهو يفسر الآيات على نسق النظم، وينأى بها عن القلب البلاغى، ويرد على من قال به فى الكتاب العزيز محتجا بجمهور أهل التأويل وعلماء اللغة.

(١) سورة الأعراف الآية: ٤.
(٢) جامع البيان. المجلد الخامس: ٧/ ٨٧.
(٣) انظر معانى القرآن: ١/ ٣٧.

رابعا: أبوجعفر النحاس (ت ٣١٠هـ):

ونذهب إلى أبى جعفر النحاسى فى كتابه « إعراب القرآن» فنجده يفسر هذه الآيات بما يتفق مع نظمها الذى جاءت به من الله تعالى. وهذه أمثلة من كتابه:

فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ**﴾[1] يقول أبو جعفر: « قال زيد بن اسلم: أى إذا قمتم من النوم إلى الصلاة، وقال غيره: فى الكلام حذف. أى إذا قمتم إلى الصلاة وقد احدثتم»[2].

فمتعلق القيام على الأول « من النوم » يعنى إذا توجه المسلم بعده إلى الصلاة توضأ، والفاء على التفسير الثانى للسببية. يعنى: أن الوضوء بسبب الحدث. فالمعنى على كلا الرأيين يوافق ترتيب النظم، دون حاجة إلى قلب.

واختار أبوجعفر تفسير المعنى بما يوافق النظم فى قوله تعالى: ﴿**مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ**﴾[3] حيث قال:

« أحسن ما قيل فيه: إن المعنى لتُنيءُ العصبة. أى تميلُهم من ثقلها كما يقال: ذهبتُ به، وأذهبتُه، وجئتُ؛ وأجأتُه، وأنأتهُ ونُؤْتُ به»[4] وهذا التفسير عن الفراء[5] (ت٢٠٧هـ) وهو تفسير بما يوافق النظم.

وفي قوله تعالى: ﴿**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**﴾[6] يقول: «أي لكل أمة كتاب معلوم، وأمر مقدر تقف عليه الملائكة؛ ليعلم بذلك قدرة الله جل وعز»[7] فهذا التفسير يتفق مع نظم الآية الكريمة.

ويتبع قوله تعالى: ﴿ **بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ** ﴾[8] بقوله: «مشكل

---

(١) سورة المائدة الآية: ٦ .

(٢) إعراب القرآن : ٢/ ٩ .

(٣) سورة القصص الآية: ٧٦ .

(٤) إعراب القرآن : ٣/ ٢٠٨ .

(٥) انظر ص : ٢٣ .

(٦) سورة الرعد الآية : ٣٨.

(٧) إعراب القرآن : ٢/ ٣٥٩ .

(٨) سورة القيامة الآية : ١٤ .

الإعراب والمعنى؛ فقول ابن عباس: سمعه وبصره ورجلاه وجوارحه شاهدة عليه. قال أبو جعفر. فعلى هذا القول (الإنسان) مرفوع بالابتداء، و(بصيرة) ابتداء ثان، و(على نفسه) خبر الثاني. والجملة خبر الأول.

وشرحه. بل الإنسان على نفسه من نفسه رقباء تحفظه، وتشهد عليه»[١] فعلى هذا التفسير يكون فى الآية تقديم وتأخير.

فالآيات القرآنية التى فسرها بعض العلماء بالقلب البلاغى فسرها أبو جعفر بما يتفق مع نظمها القرآنى، وبنى تفسيره هذا على ما أثر عن العلماء، أو عرف من معانى الحروف العاملة، وقوى أبو جعفر آراءه باستعمال العرب لبعض مفردات اللغة.

خامسا: الزجاج (ت٣١٦هـ):

كان لأبى اسحاق الزجاج جهود صادقة وأفكار رائدة، فى خدمة اللغة والبيان العربى، والمطلع على كتابه: (معانى القرآن وإعرابه) يجد المؤلف ينأى فيه عن القلب فى النظم القرآنى؛ فقد هداه فكره وعبقريته إلى تأويلات، وإعرابات تؤيد ما ذهب إليه وقد لاقى هذا التصرف استحسان العلماء، وفى مقدمتهم الزمخشرى والذى انتفع بالكثير من آرائه، وسنعرض لآراء الزجاج فى موضوعنا.

يقول الزجاج عند قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[٢] وقرأ ابن كثير: فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ، والاختيار ما عليه الاجماع، وهو فى العربية أقوى، لأن آدم تعلم هذه الكلمات فقيل: تلقى هذه الكلمات. والعرب تقول: تلقيت هذا من فلان. المعنى: فهمى قبله من لفظه»[٣].

فقد رجح الزجاج قراءة الجمهور، وبين أنها أقوى؛ لأن آدم عليه السلام كان لديه استعداد للتلقى والتعلم بخلاف الكلمات، واستشهد على هذا بكلام العرب.

(١) إعراب القرآن ٥/ ٨٢.
(٢) سورة البقرة الآية: ٣٧.
(٣) معانى القرآن وإعرابه. جـ١ ص ١١٦، ١١٧.

فالزجاج ضعف قراءة ابن كثير ولم يشر إلى ما قيل فيها عن القلب البلاغي.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[1] يقول: معناه إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. ليس معناه: استعذ بالله بعد أن تقرأ؛ لأن الاستعاذة أمر بها قبل الابتداء، وهو مستعمل في الكلام مثله إذا أكلت فقل «بسم الله» ومثله في القرآن: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[2] فالهيئة[3] قبل الصلاة. والمعنى: إذا أردتم ذلك فافعلوا»[4].

فقد حمل الزجاج الآية على المجاز المرسل بعلاقة المسببية، وفسر على ذلك الآية الثانية. ورأيه هذا هو الرأي، وعليه جمهور المفسرين وعلماء البلاغة.

وفي قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[5] يورد الزجاج رأي علماء اللغة على القلب، ويستشهد بقوله العرب في مثل هذا النظم ثم يبين أن المعنى محمول على المبالغة؛ فيقول: «قال أهل اللغة: المعنى خلقت العجلة من الإنسان. وحقيقته يدل عليها: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾[6] وإنما خوطبت العرب بما تفعل. والعرب تقول للذي يكثر الشيء خلقت من لعب تريد المبالغة بوصفه باللعب»[7].

فقد ذكر الزجاج الرأيين، وذهب إلى القول بالمبالغة وقد تأثر به كثير من العلماء مثل ابن جني[8] (ت٣٩٢هـ) والشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ).

وينبع الزجاج قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ بقوله: «بمعنى: قد بلغت

(١) سورة النحل الآية: ٩٨. (٢) سورة المائدة الآية: ٦.

(٣) قال المحقق: الهيئة: التهيؤ والاستعداد (هامش).

(٤) معاني القرآن وإعرابه: ١/٢١٨.

(٥) سورة الأنبياء الآية: ٣٧. (٦) سورة الإسراء الآية: ١١.

(٧) معاني القرآن وإعرابه: ٣/٣٩٢.

(٨) انظر الخصائص: ٢/٢٠٢، وأمالي المرتضى. القسم الأول: ٤٦٥.

الكبر، وفى موضع آخر: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾. وكل شيء صادفته وبلغته فقد صادفك وبلغك»[١].

فسر المعنى فى الآية على النظم. واستشهد على هذا بالآية الثانية وبما يفهم من معنى الفعل: صادف.

ويفسر الزجاج الضحك بمعناه الحقيقي ويهون من تفسيره بالحيض وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا﴾[١]؛ فيقول: «يروى أنها ضحكت لأنها قالت لإبراهيم: اضمم لوطا ابن أخيك إليك فإنى أعلم أنه سينزل بهؤلاء القوم عذاب؛ فضحكت سرورا لما أتى الأمر على ما توهمت. فأما من قال: ضحكت: حاضت فليس بشيء»[٢].

والتفسير على الأول يلائم النظم وعليه الكثير من العلماء، أما الثانى فإنه يحوج إلى القلب.

وفى قوله تعالى: ﴿ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم﴾[٣] يذكر الزجاج رأيين[٤] عن العلماء:

الأول: التقديم والتأخير ؛ فهو على معنى: اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم. ويقوى هذا الرأى بقوله: «وهذا حسن، والتقديم والتأخير كثر فى الكلام».

والثانى: «ثم تول عنهم» مستترا من حيث لا يرونك؛ فانظر ماذا يرجعون من الجواب.

والمعنى على كلا الرأيين يوافق نظم الآية، فالتقديم والتأخير من بدائع النظم، وتفسير القول بما ذكره الزجاج يساعد الهدهد على القيام بمهمته، فهو يسمع ما يردون.

---

(١) سورة هود الآية: ٧١.
(٢) معانى القرآن وإعرابه : ٣/٦١.
(٣) سورة النمل الآية: ٧٦.
(٤) معانى القرآن وإعرابه : ٤/١١٧.

فالآيات القرآنية التى هى موضع خلاف فى التأويل بالنظم أو القلب يفسرها الزجاج بما يتفق مع نظمها وذلك بوجوه من المبالغة، والتقديم والتأخير، والمجاز. وكان لهذه التأويلات أثرها بعد لدى علماء اللغة والبيان والتفسير القرآنى.

سادسا : أبو القاسم الآمدى (ت ٣٧١هـ)* :

ورد القلب البلاغى عند الآمدى فى كتابه : « الموازنة بين أبى تمام والبحترى» وذلك من خلال سرده لأخطاء أبى تمام وإيراده بعض الافتراضات لمحاولة تبرير أخطائه فمن ذلك ما جاء فى ثنايا بيان الآمدى لقول أبى تمام:

طللَ الجميع لقد عفَوْتَ حميداً وكفَى على رُزْئى بذاكَ شهيداً

أراد : وكفى بأنه مضَى على أنى رُزئت[1]. . ».

قال: فإن قيل: فقد جاء القلب فى القرآن، ولا يجوز أن يقال: إن ذلك على السهو ولا الضرورة؛ لأن كلام الله -عزوجل- يتعالى عن ذلك، وهو قوله: ﴿**مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**﴾[2] وإنما العصبة تنهض بالمفاتيح. أى تنهض بثقلها. وقال الله -عزوجل- ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ**﴾[3] وإنما هو: ثم تدلى فدنا. . ولهذا أشباه كثيرة فى القرآن.

قيل : هذا ليس بقلب، وإنما هو صحيح مستقيم. إنما أراد الله -تعالى اسمه- : ﴿**مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ**﴾ أى : تميلها من ثقلها. ذكر ذلك الفرَّاء وغيره وقالوا إنما هى: لَتُنِئُ العصبة. .

---

* هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى. بصرى المنشأ. أخذ العلم عن الأخفش والزجاج وابن دريد. . من مؤلفاته: الموازنة، والمؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء، وكتاب نثر المنظوم. توفى سنة : ٣٧١هـ.

(١) الموازنة بين أبى تمام والبحترى : ١/ ٢١٦.

(٢) سورة القصص الآية: ٧٦.

(٣) سورة النجم الآية: ٨.

وقالوا فى قــوله -عزوجل- : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ إنما كان تدليــه عند دنوه واقترابه كما قال أبو النجم:

قـــبل دنُو الأفـقْ من جَـــوْزائه

والجــوزاء إذا دنت من الأفق فقــد دنا الأفق منهــا؛ فهــدا ليس من القلب المستكره»[1].

فقد افترض الآمدى اعتراضا مــؤداه التفسير بالقلب فى الآيتين الكريتمين، ثم رد هذا الاعتراض بأن المعنى صحيح مستقيم دون حاجة إلى القلب.

وبين فى الآية الثانية أن الدنو والتدلى حدثا فى وقت واحد، فعلى هذا إذا قدم أحدهما على الآخر كان فى موضــعه دون قلب، واستشهد الآمدى على هذا بقول أبى النجم.

فالآمــدى يمنع القلب فى تأويل آى القــرآن الكريم، وما حــمل منه على القلب البلاغى يجب أن يفسر بما يتفق مع نظمه.

سابعا: ابن جنى (ت ٣٩٢هـ):

ورد الحديث عن القلب البلاغى[2] كثيرا عند أبى الفتح عثمان بن جنى فى كتابيه: الخصــائص، والمحتسب؛ فقد بينه بأمثلة كثيــرة من كلام العرب شعرا ونثرا مع شرح لهذه الأمــثلة. . ولكنه أنكر القلب البلاغى فى القرآن الكريم مبينا سبب ذلك .

وسنبين آراءه فى هذا القلب من خلال هذين الكتابين.

---

(١) الموازنة : ١/ ٢١٧.

(٢) هذا القلب يكــون بين كلمــات الجــملة. أمــا القلب الذى يــكون بين حــروف الكلمــة فمــوضوعــه «علم اللغة» وقــد ورد هذا النوع عند ابن جنى فى: الخصــائص: ٢/ ٦٩ فى «باب الأصلين يتقاربان فى التــركيب بالتقديم والتأخير». ودرس فــيه بعض الكلمات من حيث التصريف الكامل، وأورد له من الأمثلة: جذب، وجبذ، والتصريف الناقص مثل: «أنى» و«آن»، و«يئس» و«أيس» وبين ابن جني مــا يدخله القلب اللغوى، ومــا لا يدخله من هذه الكلمات وغيرها. وهذا النوع من القلب ليس مجال دراستنا.

أولا :الخصائص:

ذهب ابن جنى فى هذا الكتاب إلى أن حمل النص القرآنى على المبالغة أو المجاز أولى من القلب. وذكر هذا فى غير موضع من كتابه.

١- فقد عقد بابا سماه : (باب الاكتفاء بالسبب من المسبب وبالمسبب من السبب) وبدأه بقوله:

هذا باب من العربية شريف لطيف، وواسع لمتأمله كثير، وكان «أبو على» -رحمه الله- يستحسنه ويُعنى به. وذكر منه مواضع قليلة ومرَّ بنا ما لا نكاد نحصيه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾[1] وتأويله -والله أعلم-: فإذا أردت قراءة القرآن، فاكتفى بالمسبب الذى هو القراءة من السبب الذى هو الإرادة. وهذا أولى من تأويل من ذهب إلى أنه أراد: فإذا استعذت فاقرأ؛ لأن فيه قلبا، لا ضرورة بك إليه، وأيضا فإنه ليس كل مستعيذ بالله واجبة عليه القراءة. ألا ترى إلى قوله:

أعوذ بالله وبأبن مصعب[2] الفرعِ من قريش المهذّب

وليس أحد أوجب عليه من طريق الشرع القراءة فى هذا الموضع.

وقد يكون على ما قدمنا قوله -عز اسمه-: ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ**﴾[3]. أى: إذا أردتم القيام لها، والانتصاب فيها..»[4].

فقد قدر ابن جنى الإرادة فى الآيتين الكريمتين وبين أنها سبب فى كل من قراءة القرآن والقيام للصلاة، وأنه اكتفى بالمسبب عن السبب فيهما، وهذا

---

(١) سورة النحل الآية: ٩٨.

(٢) يريد : ابن مصعب بن الزبير، وبالفرع من القوم : شريفهم.

(٣) سورة المائدة الآية: ٦.

(٤) الخصائص : ٣/ ١٧٣ .

على المجاز المرسل بعلاقة : « المسببية» وهذا التقدير أولى من القلب؛ إذ لا ضرورة تدعو إليه ما أمكن حمل المعنى على غيره، وكذا لا تلازم بين الاستعاذة والقراءة، فقد ينطق المرء بالاستعاذة دون قراءة، ودليله قول الشاعر السابق.

والرأى ما قاله ابن جنى، فكثيرا ما يستعيذ الإنسان بالله من رؤية منكر أو سماعه، أو من وسوسة الشيطان. قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[1]، وحكى الله تعالى قول امرأة عمرآن: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[2]. فلا داعى إذا للقلب؛ لأن معنى الآيتين يتفق مع نظمهما القرآنى.

٢- ومن أبواب الخصائص : (باب فى الشىء يرد مع نظيره مورده مع نقيضه) ويذكر فيه أبو الفتح أن الإخبار بالمصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث، والواحد وما فوقه. ويؤيد هذا بأمثلة كثيرة من كلام العرب، ومن القرآن الكريم، ومنه قوله:

« وقد ظهر . . ما يؤيد هذا المعنى ويشهد به. وذلك نحو قوله. أنشدناه أبو على:

ألا أصبحتْ أسماءُ جَاذِمةَ الحَبْلِ وضنَّت علينا والضَّنينُ من البُخل

فهذا كقولك : هو مجبول من الكرم، ومطين من الخبرة، وهى مخلوقة من البخل. وهذا أوفق معنى من أن تحمله على القلب، وأنه يريد به والبخل من الضنين؛ لأن فيه من الإعظام، والمبالغة ما ليس فى القلب. . وأقوى التأويلين فى قولها[3]:

فإنما هى إقبالٌ وإدبارُ

أن يكون من هذا. أى كأنها مخلوقة من الإقبال والإدبار - لا على أن

---

(١) سورة فصلت الآية: ٣٦. (٢) سورة آل عمران الآية: ٣٦.

(٣) قول الخنساء بديوانها : ٥٠ والشطر الأول : « ترتعُ ما رتعتْ حتى إذا ادكرت »

يكون من باب حذف المضاف. أى ذات إقبال، وذات إدبار.

ويكفيك من هذا كله قول الله -عزوجل- : ﴿خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[١] وذلك لكثرة فعله إياه واعتياده له. وهذا أقوى معنى من أن يكون أراد: خلق العجل من الإنسان؛ لأنه أمر قد اطرد واتسع، فحمله على القلب يبعد فى الصنعة، ويصغر المعنى. وكأن هذا الموضع لما خفى على بعضهم قال فى تأويله: إن العجل هنا الطين. ولعمرى إنه فى اللغة[٢] كما ذكر، غير أنه فى هذا الموضع لا يراد به إلا نفس العجلة والسرعة. ألا تراه -عز اسمه- قال عقبه : ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾. فنظيره قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً﴾[٣].

و ﴿خُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا﴾[٤]؛ لأن العجلة ضرب من الضعف، لما تؤذن به من الضرورة والحاجة»[٥].

فقد بين أبوالفتح أن حمل المعنى على المبالغة هو الرأى؛ وهو أولى من القلب. واحتج بسياق الآية الكريمة، وبالآيتين التاليتين يقول الشهاب الخفاجى « وكونه على القلب ضعيف؛ لأنه قلب غير مقبول؛ لكونه محتاجا للتأويل؛ بأنه جعل -العجل- من طبائعه وأخلاقه، للزومه له. . »[٦].

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ٣٧.

(٢) قال الشهاب الخفاجي جـ٦ ص٢٥٥ «وقيل: العجل الطين بلغة حمير وأنشد عليه أبو عبيدة فقال:

والنبع فى الصخرة الصماء منبتهُ ... والنخل منبته فى الماء والعجَلِ

وفى أمالى المرتضى جـ١ ص٤٧٠ البيت برواية ثعلب عن ابن الأعرابى، وفيه «ينبت». ورواه ابن منظور عن ابن جنى فى اللسان (عجل).

(٣) سورة الإسراء الآية: ١١.

(٤) سورة النساء الآية : ٢٨.

(٥) الخصائص : ٢/ ٢٠٢-٢٠٤ ،وقد نقل فى اللسان: (عجل).

(٦) حاشية الشهاب الخفاجي: ٦/ ٢٥٥.

ثانيا: المحتسب:

وموضوع الكتاب: «تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» وهى متعلقة بالنص القرآنى؛ ولذا أوردت من المحتسب بعض النصوص؛ لأن ابن جنى جعل بعض هذه القراءات على القلب البلاغى معلوم أن القراءات الشاذة ليست قرآنا، ولا تصح بها الصلاة.

يقول ابن جنى فى قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا**﴾[1].

ومن ذلك قراءة طلحة بن مصرف: «أُكْتُتِبَها»[2] بضم الألف والتاء الأولى وكسر الثانية. قال أبو الفتح: قراءة العامة: «اكتتبها» معناه: استكتبها، ولا يكون معناه: كتبها. أى: كتبها بيده؛ لأنه -عليه السلام- كان أميا، لا يكتب. وهو من تمام إعجازه، وأنه لم يكن يقرأ الكتب، فيظن بما يورده من الأنباء المتقادمة الأزمان إنما كان عن قراءته الكتب.

فـ (اكتتبها) معناه: استكتبها؛ لأنه لم يكن أحد من المشركين يدعى أنه يقرأ الكتب، وإذا كان كذلك؛ فمعنى «اكتُتِبَها» إنما هو: استكتبها. وهو على القلب. أى: استُكْتِبَتْ له.

ومثله فى القلب قراءة من قرأ: «قُدِّروها تقديرا»[3] أى: قُدِّرتْ لهم. والقلب باب، وشواهده كثيرة. منها قولهم:

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٥.

(٢) أي بالبناء للمجهول. البحر المحيط: ٦/ ٤٨٢، والمحرر الوجيز: ٤/ ٢٠٠.

(٣) قال تعالى: ﴿**ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا (١٥) قواريرا من فضة قدروها تقديرا**﴾(النساء: ١٥، ١٦).

و«قُدِّروها» بالبناء للمجهول. يقول أبو حيان: «وقرأ على وابن عباس والسلمى والشعبى وابن أبزى وقتادة وزيد بن على والجحدرى وعبدالله بن عبيد بن عمير وأبو حيوه.. عن يعقوب: قُدِّروها. مبنيا للمفعول. قال أبوعلى: كأن اللفظ: قد روا عليها، وفى المعنى قلب؛ لأن حقيقة المعنى أن يقال: قُدِّرت عليهم. فهى مثل قوله: ﴿**ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة**﴾. البحر المحيط: ٨/ ٣٩٧.

مثلُ القنافذ هدَّاجُون قد بلغتْ نجرانَ أو بلغَتْ سوءاتِهم هجرُ[١]

أراد : وبلغت سوءاتُهم هجراً . . . .

وليس ممتنعا أن يكون قوله : « اكتَتَبَها » : كَتَبَها، وإن لم يل ذلك بيده إلا أنه لما كان عن رأيه أو أمره نُسب ذلك إليه . كقولنا : ضرب الأميرُ اللصَّ، وإن لم يله . .

فعلى هذا يكون : «اُكْتُتِبَها» أى : كُتبت له»[٢].

ذكر ابن جنى قراءتينَ الأولى : (اكتَتَبها) بمعنى : استَكْتَبَها - أى طلب الرسول ﷺ كتابتها لنفسه . فالفاعل الضمير المستتر . أى : اكتَتَبَ هو إياها وأما قراءة «اكتُتِبَها» بمعنى : استُكْتِبها . ببناء الفعل للمجهول . فقد بين أبوالفتح أنها على القلبَ . أى أستُكْتِبَتْ لَهَ .

والصحيح أن لا قلب فى هذه القراءة الشاذة، ولكنها من بناء الفعل لما لم يسم فاعله . قال الزمخشرى : « وقرئ : «أكتُتِبهَا» على البناء للمفعول . والمعنى : اكتَتَبها كاتبٌ له»[٣].

وكذا قراءة : «قُدِّرُوها» فهى أيضا من البناء لما لم يسم فاعله . قال أبو حيان : « والأقرب فى تخريج هذه القراءة الشاذة أن يكون الأصل : قُدِّر رِيُّهم منها تقديرا . فحذفت «من»، ووصل الفعل إلى الضمير بنفسه، فصار : قُدِّروها . فلم يكن فيه إلا حذف مضاف، وأتساع فى المجرور»[٤] .

وأورد الشهاب الخفاجى نظرا فى قول أبى حيان، وعدَّه تكلفا . وبين أن معنى : قَدَرتُ الشيءَ بالتخفيف . بيَّنتُ مقداره «فإذا انقل إلى التفعيل تعدى لاثنين، ومعناه : تصيير مقدارا له . وأحد المفعولين هنا : الضمير النائب عن الفاعل، والثانى : ها»[٥].

---

(١) البيت للأخطل وهو بديوانه : ١٠، وأمالى المرتضى . القسم الأول : ٤٦٦ .

(٢) المحتسب : ٢/ ١٧ . (٣) الكشاف : ٣/ ٨٢ .

(٤) البحر المحيط : ٨/ ٣٩٨ .

(٥) حاشية الشهاب الخفاجى : ٨/ ٢٩٠، وانظر . تفسير التحرير والتنوير : ٢٩/ ٣٩٩ .

فلا قلب إذا ى هاتين القراءتين الشاذتين، وإنما المعنى على البناء لما لم يسم فاعله وهذا خارج عن القلب كما سبق[١].

وفى قراءة ﴿وَحُمِّلَتِ الأَرْضُ﴾[٢] مشددة الميم يقول ابن جنى: «قال ابن مجاهد: وما أدرى ما هذا؟ قال أبوالفتح: هذا الذى تبشع على ابن مجاهد حتى أنكره من هذه القراءة صحيح، وواضح، وذلك أنه أسند الفعل إلى المفعول الثانى حتى كأنه فى الأصل: وحمَّلْنا قُدرتَنا، أو مَلَكا من ملائكتنا، أو نحو ذلك: الأرضَ، ثم أسند الفعل إلى المفعول الثانى، فبنى له، فقيل: فحمِّلت الأرض. ولو جئت بالمفعول الأول لأسندت الفعل إليه، فقلت: وحُملت قدرتُنا الأرض وهذا كقولك: ألبستُ زيدًا الجبَّة.

فإن أقمت المفعول الأول مقام الفاعل قلت: أُلبس زيدٌ الجبة، وإن حذفت المفعول الأول أقمت الثانى مقامه؛ فقلت: أُلبست الجبَّةُ نعم. وقد كان أيضا يجوز مع استيفاء المفعول الأول أن يبنى الفعل للمفعول الثانى؛ فتقول: أُلبست الجبةُ زيدًا. على طريق القلب، للاتساع، وارتفاع الشك.

فإذا جاز على هذا أن تقول: حُمِّلت الأرضُ المَلَكَ؛ فتقيم الأرض مقام الفاعل مع ذكر المفعول الأول فما ظنك بجواز ذلك، وحسنه بل بوجوبه إذا حذف المفعول الأول؟ وكذلك: أطعمْتُ زيدًا الخبزَ وأُطعم زيدٌ الخبزَ. وتتسع؛ فتقول: أُطعم الخبزُ زيدًا. ثم تحذف زيدا، فلا تجد بدًّا من إقامة الخبز مقام الفاعل؛ فتقول: أُطعم الخبزُ. ورحم الله ابن مجاهد[٣] فلقد كان كبيرا فى موضعه، مُسلِّمًا فيما لم يَمْهر به»[٤].

---

(١) ينظر التمهيد :

(٢) سورة الحاقة الآية : ١٤. وهى قراءة ابن أبى عبلة، وابن مقسم، والأعمش، انظر: البحر المحيط: ٨/٣٢٣، ومختصر فى شواذ القراءات ص١٦١.

(٣) هو أبو بكر أحمد بن موسىّ العباسى بن مجاهد التميمى البغدادى. ولد فى بغداد سنة ٢٤٥هـ حفظ القرآن وطلب العلم فى الكوفة وتبحر فى القراءات ومن مؤلفاته: كتاب السبعة فى القراءات. توفى سنة ٣٢٤هـ.

(٤) المحتسب : ٢/٣٢٨.

الحديث هـنا عن الفعل المتـعدى إلى مفـعولين، وأنه إذا بنـى للأول فلا قلب. أما إذا بنى للمفعول الثانى كان القلب والاتساع.

«وهذه قاعدة يقدمـها لنا ابن جنى لنطبقها على كل مثال تعـدى فيه الفعل إلى مفعولين، وهو بذلك يستغل إمكانياته اللغوية، واستيعابه لقواعد النحو، ويشيد ابن جنى بما فى هذا القلب- على ما رآه من حسن. خاصة إذا حذف المفعول الأول.. وقد خفى هذا الحسن على ابن مجاهد- رحمه الله- ؛ إذ لا علاقة له بأمور النحو والبلاغة، كـما يشير ابن جنى حين يرميه بذلك فى أدب جم « فلقد كان كبـيرا فى موضعه، مسلّما فيـما لم يمهر به» ولكنه لم يكن يخفى على من هو فى درجـة ابن جنى من العمق والشمـول والمهارة، والاطلاع الغزير على شواهد هذا الباب..»[1].

والواقع أن الأمر فى هذه القراءة[2] ليس إلا من بناء الفعل «حُمِّل» بتشديد الميم مكسورة لأحد المفعولين بعد حذف الفاعل، لغرض التكثير، ويظهر أثر التضعيف فى النقل إلى المفعول الثانى. وقد جعل ابن جنى ذلك «على طريق القلب، للاتساع، وارتفاع الشك» كما قال. فالقلب البلاغى لا وجود له فى هذه القراءة، وهى لا تدخل فى مفهوم القلب البلاغى.

نعم ينطبق عـليهـا «الاتسـاع» وذلك أن التـصرف فـى نظم الكلام بطرق مختلفة[3] كالإيجاز، والتقديم والتأخير، والمجاز. من الاتساع فى التعبير .

فابن جنى فى (الخـصائص) حمل بعض الآيات القرآنية عـلى المبالغة، أو المجـاز المرسل، لا القلب. وأيد كـلامه بالسـيـاق، وبآيات أخر من القـرآن الكريم ثم بكلام العرب، ورأى أن القلب يبعـد فى الصنعة، ويصغر المعنى. أما فى (المحـتسب) فـإن القراءات الشـاذة التى عدها من القلب الـبلاغى لا تخـرج عن بناء الفـعل لنائب الفـاعل، وهذا من باب الاتسـاع فى اللغـة، ولكنها لا يعد من القلب البلاغى.

(١) أثر النحاة فى البحث البلاغى ٢٨٥.
(٢) انظر الكشاف : ٤/ ١٥١، والبحر المحيط: ٨/ ٣٢٣.
(٣) انظر الخصائص : ١/ ٢٢, ٢٣، والتبيان فى إعراب القرآن القسم الثانى: ٧٧٤.

ثامنا: ابن سنان الخفاجى (ت ٤٦٦هـ):

هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى. عاش فى القرن الخامس الهجرى وهو عصر ازدهار البلاغة العربية، ولكتابه «سر الفصاحة» أثره البالغ فى النقد والبلاغة.

وابن سنان يذهب إلى أن الكلام المقلوب يفسد المعنى، ويصرفه عن وجهه وقد ضرب لهذا أمثلة من الشعر وبين وجه الفساد فيها، فأما عن القلب فى القرآن الكريم فإنه يقول:

« فأما قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾[1] فليس من هذا بشىء، وإنما المراد -والله أعلم- أن المفاتح تَنُوءُ بالعصبة أى: تميلها من ثقلها، وقد ذكر هذا الفراء وغيره، وكذلك قوله -عز اسمه-: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[2] ليس - على ما يزعم بعضهم- المراد به وإن حبه للخير لشديد، بل المقصود به: إنه لحب المال لبخيل. والشدة: البخل أى من حبه للمال يبخل[3].

ثم قال: فأما قول الحطيئة:

فلما خشيتُ الهُونَ والعيرُ ممسِكٌ ... على رُغمهِ ما أمسكَ الحبْلَ حافُره

فقد قيل:

إن الحبل إذا أمسك الحافر فالحافر أيضا قد شغل الحبل.

؛ فعلى هذا ليس بمقلوب، وكذلك قول أبى النجم[4]:

قبل دُنوِّ الأفق من جوزائه

لأن الجوزاء إذا دنت من الأفق فقد دنا منها ».

(١) سورة القصص الآية: ٧٦.
(٢) سورة العاديات الآية: ٨.
(٣) سر الفصاحة: ١٠٤.
(٤) المرجع السابق: ١٠٦.

فقد فسر الخفاجى الآيتين بما يتفق مع نظمهما، وردً على من زعم التفسير بالقلب فى الآية الثانيـة. ثم بين المعنى المراد منها، وبين أن اشتـراك الطرفين فى بيت الحطيئة، وقول أبى النجم يجعل كـلا منهما فى مكانه، قدم أو اخر فلا قلب كذلك فيهما.

فابن سنان من المانعين بالقلب البلاغى فى القرآن الكريم.

تاسعا: الإمام الواحدى* (ت٤٦٨هـ):

ألف الإمام عـلى بن أحمد الـواحدى النيسـابورى تفسـيره: «البسـيط» ورجـع فى تأليـفـه إلى الكثـير من أهـل العلم؛ فـهو يذكـر فـى المسـألة الواحـدة أقوالا متعددة وينسـبها إلى أصحابها. وقد حقق هذا التفسـير تحقيقا علميا مـا عدا الجزء المفقود منه وهو من أول سورة «النسـاء» إلى آخر سورة «التوبة».

وأما الآيات القـرآنية التى رأى بعض العلماء إنها من القلب الـبلاغى فإن الواحدى يفسـرها بما يتفق مع نظمها الذى نزلت عليـه من عند الله تعالى. وإليك أمثلة من هذا التفسير.

فى قـوله تعـالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَـابِي هَٰذَا فَـأَلْقِـهْ إِلَيْـهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْـهُمْ﴾[(١)] يقول[(٢)]: قال مقـاتل: انصرف عنهم. وقيل: اعـرض عنهم. قال ابن زيد هنا على التقديم والتأخير. المعنى: اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم، فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم. قـال الزجاج. وهذا حسن، والتقديم والتأخـير كثر فى الكلام».

* انظر التعريف به ص: ٤١.

(١) سورة النمل الآية: ٢٨.

(٢) انظر تحقيق ودراسة لغوية للجزء السـادس من البسيط للواحدى المتوفى ٤٦٨هـ من سورة الحج إلى آخر سورة السجدة. المجلد الثانى: ٥١٢. رسالة دكتوراة بمكتبة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة للدكتور: محمد حسن عثمان.

ومن لم يجعل الآية على التقديمه والتأخير قال : معناه : ثم تول عنهم مستترا من حيث لا يرونك ؛ فانظر ماذا يردون من الجواب».

فقد نقل الواحدى عن مقاتل بما يفيد القلب، ثم ذكر رأى ابن زيد، والزجاج، وكلاهما يفيد تفسير الآية على النظم. ومن الرأيين يفاد رأى الواحدى.

٢- ويفسر الواحدى التحريم بالمنع فى قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ وذلك أن الرضيع ليس من أهل التكليف. وهذا يتفق مع سياق الآية ونظمها، فيقول: « . . والمراد بالتحريم: تحريم المنع، وليس هناك نهى، ولكنه منعٌ بالتبغيض كالمنع بالنهى. وهذا كما يقال: حرم فلان على نفسه كذا بالامتناع»[١].

٣- وفى قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ يقول: «وقال ابن عباس : لتثقلهم حمل المفاتيح، واختلفوا فى وجه: « لتنوء بالعصبة» فقال أبوزيد: يقال: نُؤتُ بالحمل أَنُوءُ به نَوْءًا: إذا انهضت به، وناء بى الحمل: إذا أثقلنى، وهذا معنى قول ابن عباس: لتثقلُهم، وعلى هذا الباء فى «بالعصبة» للتعدية، وشرح ذلك الفراء والمبرد. . »[٢].

وفى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[٣] يقول: « قال صاحب النظم: هذا من التقديم والتأخير؛ لأن المعنى: ثم تدلى؛ فدنا؛ لأن التدلى بسبب الدنو[٤]. . قال أبو بكر بن الأنبارى. معنى الآية: ثم تدلى جبريل من محمد ﷺ ؛ فقدم دنا على تدلى؛ لأن الفعلين المصطحبين اللذان إذا وقع أحدهما وقع الآخر كان تقدم المتقدم كتأخره كقولك: دنوت فقربت، وقربت فدنوت. لا فرق بينهما . . ومنه قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[٥]

(١) المرجع السابق. المجلد الثانى : ٨٣٠.
(٢) المرجع السابق. المجلد الثانى: ٨٩٧.
(٣) سورة النجم الآية: ٨.
(٤) جامع البيان فى التفسير. المجلد الثانى عشر: ٣٠/ ١٨٠.
(٥) سورة القمر الآية: ١.

معناه: انشق القمر واقتربت الساعة»[١].

فقد فسر الواحدى الآية أولا على التقديم والتأخير، ثم بين أن الفعلين وقعا معا، وعلى هذا إذا قدمتْ إحدى الجملتين على الأخرى فإنها تكون فى مكانها. فالمعنى ملائم لسياق النظم القرآنى.

وأنكر الواحدى على من قال بالقلب فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[٢] فقال:

«ومعنى عداوة الأصنام له هو ما ذكره الفراء[٣]. أى: لو عبدتُهم كانوا لى يوم القيامة ضدا وعدوا، وكأنه ذهب إلى معنى قوله: ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾[٤] الآية.

وذكر ابن قتيبة هذه الآية فى باب المقلوب[٥]، فقال: المعنى فإنى عدو لهم؛ فقلب؛ لأن كل من عاديته عاداك، ونحو هذا حكى بعض المتأخرين عن الفراء. ولم أر ذلك له»[٦].

فقد حكى الواحدى عن الفراء أن عداوة الاصنام على سبيل الفرض، واستشهد بآية الكهف. وهذا يفاد منه تفسير الآية بما يتفق مع نظمها القرآنى.

فالإمام الواحدى فى تفسيره: «البسيط» يفسر هذه الآيات وما شاكلها بما يتفق مع نظمها القرآنى، ولا يرى التفسير فيها بالقلب البلاغى.

(١) من كتاب البسيط للعلامة على بن أحمد بن محمد الواحدى المتوفى سنة ٤٦٨هـ من أول سورة الزخرف إلى آخر القرآن الكريم. تحقيق ودراسة لغوية. المجلد الأول: ٣٤٤ دكتور: جاد مخلوف. رسالة دكتوراة بمكتبة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة. جامعة الأزهر.

(٢) سورة الشعراء الآية: ٧٧.

(٣) معانى القرآن: ٢/ ٢٨١.

(٤) وتمامها: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ سورة مريم الآية: ٨٢.

(٥) تأويل مشكل القرآن ١٨٣.

(٦) تحقيق ودراسة لغوية للجزء السادس من البسيط للواحدى. المجلد الثانى: ٦٧٤ للدكتور: محمد حسن عثمان

عاشرا: البغوى المفسر* (ت ٥١٦هـ):

ونذهب إلى الإمام البغوى فى تفسيره «معالم التنزيل لنرى رأيه فى الآيات التى فسرها بعض العلماء بالقلب. وهذه أمثلة من تفسيره:

١- فى قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ يقول: أى إذا أردتم القيام إلى الصلاة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[1]. فقد قدرت الإرادة قبل القيام إلى الصلاة، وقراءة القرآن. وهذا تفسير يتفق مع نظم الآيتين الكريمتين.

٢- ويفسر قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ بقوله: «معناه أن بنيته وخلقته من العجلة، وعليها طبع. قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾[3]. وقال قوم: معناه: خلق الإنسان يعنى آدم من تعجيل الله فى خلق الله إياه»[4].

فالمعنى على الرأيين يتفق مع النظم. والبغوى يستمد هذا من ابن جنى[5] والشريف المرتضى.

٣- وفى قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ يقول البغوى: «قال عكرمة ومقاتل والكلبى: معناه بل الإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه ويشهدون عليه بعمله وهى سمعه وبصره وجوارحه.. ويحتمل أن يكون معناه: بل الإنسان على نفسه عين بصيرة»[6].

فهذا تفسير بما يتفق مع نظم الآية الكريمة.

---

* هو الحسن بن مسعود بن محمد الفراء، أو ابن الفراء. يلقب بمحيى السنة البغوى. فقيه مفسر محدث. نسبته إلى «بغا» من قرى «خراسان» بين «هراة» و«مرو» من مؤلفاته: مصابيح السنة، والجمع بين الصحيحين. توفى بمرو الروذ سنة ٥١٦هـ. الأعلام: ٢/ ٢٥٩.

(١) تفسير البغوى المسمى معالم التنزيل. ٢/ ١٤.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٨٢.

(٣) سورة الإسراء الآية: ١١.

(٤) تفسير البغوى: ٣/ ٢٤٤.

(٥) انظر. ص:

(٦) تفسير البغوى: ٤/ ٤٢٣.

ويفسر قـوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ بما يلائم النظم فـيقـول: «ثم دنا جـبـريـل بعـد اسـتـوائه بـالأفق الأعلى من الأرض، فـتـدلى؛ فنزل إلى محمـد ﷺ فكان منه قاب قوسين أو أدنى، بل أدنى، وبه قـال ابن عباس والحسن وقتادة، وقيل فى الكلام تقديم وتأخير تقديره: ثم تدلى، فدنا؛ لأن التدانى سبب الدنو»[1].

والقـول بالتقـديم والتـأخـير تفـسـير بما يلائم النـظـم، وليس من القلب البلاغى.

ويفسر البغـوى قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ﴾ بالنظم ثم يحكى القلب فيقول: «لتثـقلُهم. قال أبو عبيدة: هذا من المقلوب تقديره: ما إن العصبة لتنوء بها»[2].

فقـد حكى القلب دون التعـرض له بالرد غير أن حكايـته له تدل على أن هذا مخالف لما رآه من التأويل بالنظم.

فالإمام البـغوى من المفسرين بالـنظم، ولا يرى القلب البلاغى فى تأويل هذه الآيات.

أحد عشر: أبو البقاء العكبرى (ت٥٣٨هـ):

وممن فسر هذه الآيات بما يقتضيه النظم القرآنى أبوالبقاء العكبرى فى كتابه «التبيان فى إعراب القرآن» فهو يبـين بعضَ مفردات الآية، أو القراءات فيها، أو المراد من النص القرآنى بما يـتفق مع النظم وإذا ذكر القلب صـدره بقوله: «وقيل» ، أو «وقال قوم» أو «وقيل: المعنى» ليبين أنه رأى مرجوح، وهذا يدل على أنه لا يوافق غيره على القلب. وهذه أمثلة من كتابه :

١- فى قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ يقول: المعنى وكم من قرية أردنا إهلاكهـا كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى: أردت قراءته.

(١) تفسير البغوى ٤/ ٢٢ دار الكتب العلمية ببيروت. (٢) تفسير البغوى : ٣/ ٤٥٤.

وقال قوم: هو على القلب. أى وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها. والقلب هنا لا حاجة إليه، فيبقى محض ضرورة. والتقدير: أهلكنا أهلها»[١] فقد قلل أبو البقاء من القلب وذكر أن لا ضرورة تدعو إليه وأقول: لا ضرورة فى القرآن، فلا قلب.

٢- ويتبع أبو البقاء قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ﴾[٢] بقوله: «وفى موضع آخر ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[٣] والمعنى واحد، لأن ما بلغك فقد بلغته[٤] فقد فسر الآية بما يوافق النظم حيث اشترك كل من زكريا -عليه السلام- والكبر فى هذا المعنى فأيهما قدم أ أخر كان فى موضعه.

٣- وعلل أبو البقاء القراءة الشاذة فى قوله تعالى: ﴿فتلقى آدمُ من ربه كلمات فتاب عليه﴾ بمثل ما علل فى الآية السابقة، فقال: «يقرأ برفع «آدم» ونصب «كلمات»، وبالعكس؛ لأن كل ما تلقاك فقد تلقيته»[٥] وهو متأثر فى هذا بالفراء.

٤- وفى قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ﴾ يقول أبو البقاء: أى تُنئ العصبة، فالباء معدية، معاقبة للهمزة فى أنأته. يقال: أنأته، ونُؤْتُ به. والمعنى: تثقل العصبة.

وقيل: هو على القلب. أى لتنُوءُ به العصبة»[٦].

فقد بين أبو البقاء المعنى بما يوافق النظم، ثم حكى القلب دون تعرض له بالنقد غير أنه جعله رأيا ثانيا.

---

(١) التبيان فى إعراب القرآن القسم الأول: ٥٥٦.
(٢) سورة آل عمران الآية: ٤٠.
(٣) سورة مريم الآية: ٨.
(٤) القسم الأول: ٥٥٦.
(٥) التبيان فى إعراب القرآن. القسم الأول: ٢٥٨، وانظر. معانى القرآن وإعرابه: ٤٠٨/١.
(٦) التبيان فى إعراب القرآن القسم الأول: ٥٤.

٥- وفى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾[1] يقول:

(فَعُمِيَتْ عَلَيْكُمْ) أى: خفيت عليكم؛ لأنكم لم تنظروا فيها حق النظر. وقيل المعنى: عميتُم عنها كقولهم: أدخلتُ الخاتم فى أصبعى. ويقرأ بالتشديد والضم. أى أبهمت عليكم عقوبة لكم»[2] فقد ذكر أبو البقاء قراءتين: «فعميت عليكم» وبين فيها معنيين:

أولهما: يتفق مع النظم، **والثانى**: حكاية القلب، وهذا بالقياس على قول العرب: أدخلت الخاتم فى إصبعى ولكن دون تعرض له بالنقد. ثم ذكر القراءة بالتشديد «فعُمِّيَتْ».

فأبو البقاء فى بيانه لوجوه الإعراب والقراءات فى بعض آى القرآن الكريم يبين المعانى بما يتفق مع النظم القرآنى وكثيرا ما يحكى القلب عن غيره، وهو يهون منه تارة، أو يقتصر على حكايته تارة أخرى دون تعرض بالنقد.

ثانى عشر: ابن عطية الأندلسى * (ت ٥٤٦هـ):

ألف ابن عطية كتابه «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» وهو سفر فى موضوعه نفيس، فقد رجع فى تأليفه إلى كثير من المصادر فى علوم القرآن الكريم، والحديث الشريف، وعلوم اللغة العربية.. ولهذا التفسير آراؤه السديدة ولاسيما فى البلاغة القرآنية.

وأما النصوص القرآنية التى اختلف العلماء فى تأويلها بما يتفق مع النظم أو القلب فإن ابن عطية يفسرها بما يناسب النظم والسياق وهو يرجع فى ذلك

---

(١) سورة هود الآية: ٢٨.

(٢) التبيان فى إعراب القرآن. القسم الأول: ٦٩٥.

* هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبدالرحمن بن عطية المحاربى الأندلسى من أهل غرناطة. نشأ فى بيت علم وفضل ومجد. ولى ابن عطية القضاء، وهو من أعيان المذهب المالكى. وعده أبوحيان من أجل من ألف فى التفسير وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير. عاش ما بين (٤٨١-٥٤٦هـ). الأعلام: ٣/ ٢٨٢.

إلى أهل العلم ويروى عنهم. وهذه أمثلة من تفسيره:

في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[١] يبين ابن عطية أن الله -تعالى- أمن نبيه ﷺ من ضررهم إذا أعرض عنهم، وحقَّر في ذلك شأنهم قال تعالى: ﴿**لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى**﴾[٢] فرسول الله ﷺ مخيَّر بين الحكم بينهم أو رفضه، ثم قدر المعنى هنا بقوله: (**وَإِنْ حَكَمْتَ**) أي: اخترت أن تحكم بينهم في نازلة ما (**فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ**) أي بالعدل»[٣].

فالاختيار يسبق الحكم، وهو سبب فيه، فيكون هذا من المجاز المرسل بعلاقة المسببية. وهو تفسير يتفق مع نظم الآية الكريمة.

وفي قوله تعالى: ﴿**فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا**﴾[٤] يفسر ابن عطية الضحك على حقيقته، كما يورد قول من فسر هذا النص الكريم على التقديم والتأخير. والمعنى فيهما يتفق مع النظم القرآني، ويضعف قول من فسر الضحك بمعنى الحيض لأنه سبب للتفسير بالقلب. يقول: (**فَضَحِكَتْ**) قال مجاهد: معناه: حاضت.. وهذا القول ضعيف، قليل التمكن. وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب: ضحكت بمعنى حاضت، وقرره بعضهم. ويقال: ضحك إذا امتلأ وفاض، ورد الزجاج قول مجاهد. وقال الجمهور: هو الضحك المعروف..

وقال وهب بن منبه: ضحكت من البشارة بإسحاق، وقال: هذا مقدم بمعنى التأخير.. وقيل: ضحكت سرورا بصدق ظنها؛ لأنها كانت تقول لإبراهيم: إنه لابد أن ينزل العذاب بقوم لوط»[٥].

---

(١) سورة المائدة الآية: ٤٢.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١١١.

(٣) المحرر الوجيز: ٢/١٩٥.

(٤) سورة هود الآية: ٧١.

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٣/١٨٩.

ويتبع بن عطية قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾[١] بقوله: «استعارة كأن الزمان طريق ، والحوادث تتساوق[٢] فيه؛ فإذا التقى حادثان فكأن كل واحد منهما قد بلغ صاحبه. وحقيقة البلوغ فى الأجرام: أن ينتقل البالغ إلى المبلوغ إليه. وحسن فى الآية: ﴿ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ من حيث هى عبارة واهن منفعل. و(بلغت) عبارة فاعل مستعل فتأمله. ولا يعترض على هذا بقوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[٣]؛ لأنه قد أفصح بضعف حاله فى ذكر المعنى»[٤].

فقد فسر هذا النص حسب ترتيب نظمه حيث جعل الكبر كأنه سائر فى الزمان حتى بلغ زكريا -عليه السلام- وهذا على سبيل الاستعارة المكنية، فكأن الزمان طريق، والحوادث تتسابق فيه، فيبلغ الواحد منها الآخر؛ فالكبر على هذا بلغ زكريا عليه السلام.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[٥] يبذل ابن عطية جهدا فى تأويله حسب النظم، فيجعل المراد بالقيام: القيام بمعناه العام، ثم يكون الاستعداد للصلاة، ويورد هنا شواهد كثيرة ثم يستنتج أن فى الآية تقديما وتأخيرا؛ فهو يقول:

« ولما كانت محاولة الصلاة فى الأغلب إنما هى بقيام جاءت العبارة (إِذَا قُمْتُمْ). واختلف الناس فى القرينة التى أريدت مع قوله: (إِذَا قُمْتُمْ)؛ فقالت طائفة: هذا لفظ عام فى كل قيام سواء كان المراد على طهور، أو محدثا فإنه ينبغى له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ. وروى أن على بن أبى طالب كان

(١) سورة آل عمران الآية: ٤٠.

(٢) نتساوق: تتابع. جاء فى اللسان (سوق): «انساقت وتساوقت الإبل تساوقا: إذا تتابعت.. والمساوقة: المتابعة. كأن بعضها يسوق بعضا. والأصل فى تساوق: تتساوق. كأنها لضعفها وفرط هزالها تتخاذل، ويتخلف بعضها عن بعض».

(٣) سورة مريم الآية: ٨.

(٤) المحرر الوجيز: ١/ ٤٣١.

(٥) سورة المائدة الآية: ٦ .

يفعل ذلك ويقرأ الآية.. وقال زيد بن أسلم(١)، والسدى معنى الآية: إذا قمتم إلى الصلاة من المضاجع يعنى النوم.

قال القاضى أبومحمد: والقصد بهذا التأويل أن يعم الأحداث بالذكر ولاسيما النوم الذى هو مختلف فيه. هل هو فى نفسه حدث؟

وفى الآية عل هذا تقديم وتأخير تقديره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ أى النوم(٢) ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ يعنى الملامسة الصغرى ﴿فَاغْسِلُوا﴾»(٣)

فالمعنى إذا على التقديم والتأخير، أو الايجاز بالحذف، أو المجاز المرسل وهذه التأويلات تتفق مع النظم والسياق وقال بهذه التأويلات النحاس، والزجاج وآخرون.

واستشهد ابن عطية بآية المائدة هذه على آية سورة النحل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(٤) من حيث تقدير السبب قبل المسبب، فقال: «وتقدير الآية: فإذا أخذت فى قراءة القرآن كما قال عزوجل: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أو كما تقول لرجل: إذا أكلت فقل: « بسم الله »(٥) فالتفسير على هذا التأويل موافق للنظم القرآنى.

ولا يرى ابن عطية القلب فى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ فهو يقول:

المعنى واذكر يوم يعرض. وهذا العرض هو المباشرة. تقول: عرضت العود على النار» فالمراد بالمباشرة: التعذيب. ومعلوم أن العرض إذا فسِّر بهذا فلا قلب. أما إذا فسر بإبرار النار، وإظهارها للكافرين ثم يكن التعذيب

---

(١) وردت عبارته فى إعراب القرآن للنحاس: ٢/ ٩.

(٢) انظر المرجع السابق، والصفحة.

(٣) المحرر الوجيز: ٢/ ١٦٠. (٤) سورة النحل الآية: ٩٨.

(٥) المحرر الوجيز: ٣/ ٤٢٠.

بعد. كان هذا من القلب[١].

ويجمع ابن عطية بين التفسير بما يتفق مع النظم، وكذا القلب البلاغى غير أنه يجعل الثانى مرجوحا، أو يحكيه عن غيره وذلك فى قوله تعالى: **﴿خلق الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾**[٢] فهو يفسـره على المبالغة أولا، ثم يحكى رأى من يرى القلب، ويستشهد بالادلة على هذين التفسيرين: ويبدو تأثر ابن عطية فى هذا بكل من ابن جرير (ت ٣١٠هـ) والشريف المرتضى[٣] (ت ٤٣٦هـ). فهو يقول:

وصف -تعالى- الإنسـان الذى هو اسم الجنس بأنه خلق من عجل وهذا على جهة المبالغة كما تقـول للرجل البطال: أنت من لهو، وكما قال رسول الله ﷺ « لست من دَد ولا الدَّدُ منى »[٤] . وهذا التأويل يتم به معنى الآية المقصود فى أن ذمت عجّلتهم».

وقال بعض المفسرين[٥]: إنه على المقلوب. كـأنه أراد: خلق العـجل من الإنسان على مـعنى أنه جعل طبـيعة من طبـائعه، وجزءًا من أخـلاقه. وهذا التأويل ليس فيه مبالغة. وإنما حمل قائليه عليه عدم التجوز والاستعارة فى أن يبقى الكلام على ترتيبه ونظير هذا القلب الذى قالوه قول العرب: إذا طلعت

(١) انظر الكشاف : ٢/ ٥٠٠، ٣/ ٤٣٠.

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٣٧.

(٣) انظر جامع البيان فى تفسير القرآن المجلد التاسع: ٢٦، وأمالى المرتضى ١/ ٤٦٥.

(٤) قال أبو عبيدة : الدَّد : اللَّهو واللعب ومنه حديث النبى ﷺ : «ما أنا من دد ولا الدَّدُ منى» غـريب الحـديث: ١/ ٤٠ وقال ابن الأثيـر: ومـعنى تنكر الدَّد فى الجـملة الأولى الشياع والاستغـراق ، وأن لا يبقى شىء منه إلا وهو منزه عنه. أى ما أنا فى شىء من اللهو واللعب. وتعريفـه فى الجملة الثانية لأنه صار معهـودا بالذكر كأنه قال: ولا ذلك النوع منى وإنما لم يـقل: ولا هو منى؛ لأنه الصـريح آكـد وأبلغ. النهـاية فى غـريب الحديث والأثر المجلد الثانى (باب الدال مع الدال) ص١٠٩.

(٥) انظر أمالى المرتضى : ١/ ٤٤٦.

الشعرى استوى العود على الحرباء.. وكما قال الشاعر(١):

حسرتُ كفِّي عن السِّربال آخذه   فرداً يجر على أيدى المفدينا

ثم ذكر ابن عطية آراء أخرى فى المراد بالإنسان وأنه آدم.. ثم ضعف هذه الآراء.

وحكاية ابن عطية للقلب فى معنى الآية تدل على أنه يأباه؛ ولذا قوَّى التأويل بما يتفق مع النظم.

ويبين ابن عطية قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(٢) بما يتفق مع النظم ثم يتأثر بابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فيقول: «وقيل فى الكلام قلب؛ لأن الاصنام لا تعادى أحدا، وإنما هو عاداها»(٣).

وفى قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾(٤) يقول: «والوجه أن يقال: إن العصبة تنوء بالمفاتح المثقلة لها. وكذلك قال كثير من المتأولين: المراد هذا، لكنه قلب كما تفعل العرب كثيرا، فمن ذلك قول الشاعر:

فديتُ بنفسه نفسى ومالى   وما آلوك إلا ما أطيق

.. ومن ذلك قول الآخر(٥):

وتُركب خيلٌ لا هوادة بينها   وتشقى الرماح بالَّضيا طرة الحمْر

---

(١) هو ابن مقبل «يريد: حسرت السربال عن كفى. ونحو ذلك من المقلوب». جامع البيان. المجلد التاسع: ٨٢.

(٢) سورة الشعراء الآية: ٧٧.

(٣) المحرر الوجيز: ٤/ ٢٣٤.

(٤) سورة القصص الآية: ٧٦.

(٥) روي لخداش بن زهير فى تأويل مشكل القرآن: ١٩٨، والموازنة: ١/ ٢١٨، واللسان (ضطر). وروايته فى الموازنة: «وتُركبُ خيلٌ».. وتشقى «وفى تأويل المشكل «وتُركبُ خيل. وتعصى» وفى اللسان: «وتركبُ خيلاً.. وتشقى»، وانظر. مجاز القرآن: ٢/ ١١٠، وسر الفصاحة: ١٠٦، والأضداد لابن الانبارى: ٨٥.

وهذا البيت لا حجة فيه ؛ إذ يتـجه على وجهه. فتأمله[(١)] تفسير هذه الآية بما يتفق مع النظم هو الوجه، وقد حكاه ابن عطية عن كثير من المتأولين.

وأخـيرا فـإن ابن عطية بـذل جهـدا فى تفسـير الآيات بما يوافق نظمهـا القـرآنى، وقلمـا يحكى القـلب فى تأويل بعـض الآيات أو يجـعله رأيا مرجوحا، وهذا مع وضوح فى العبارة والبيان.

فابن عطية من المفسرين بالنظم فى الآيات التى قيل فيها بالقلب البلاغى.

ثالث عشر: حازم القرطاجنى *(ت ٦٨٤هـ):

جاء حديث حـازم عن القلب البلاغى فى كتابه: «منهـاج البلغاء وسراج الأدباء» معتمدا على الجدل والحوار والاستطراد، وتداخل التقسيمات، وهو منهج منطقى فيه كثير من الغموض.

وقد عدَّ حازم من وجـوه الغموض فى المعانى[(٢)] «القلب» لأنه خارج عن

(١) المحرر الوجـيز : ٢٩٨/٤. وقال ابن قـتيبـة فى معناه: أى تعـصى الضيا طرة الحـمر بالرماح وهذا مـا لا يقع فيه التأويل؛ لأن الرمـاح لا تعصى بالضيـا طرة، وإنما يعصى الرجال بها أى يطعنون».

وأتبعـه الآمدى بقـوله «وإنما الضيـا طرة هى التى تشقى بالرمـاح» ووجهـه ابن منظور على الاعتبارين فقال: «قال ابن سـيدة: يجوز أن يكون عنى أن الرماح تشقى بهم. أى أنهم لا يحسنون حملهـا ولا الطعن بها، ويجوز أن يكون على القلب. أى تشـقى الضياطرة الحمر بالرماح» اللسان. (ضطر).

* هو حازم بن محـمد بن حسن بن حازم القرطاجنى، أديب من الـعلماء من أهل قرطاجنَّه تعلم بها وبمرسـية، واخذ كـذلك عن علماء غرناطة، وأشـبيلية. هاجـر إلى مراكش. وتونس. من كتبه: منهاج البلغاء، وديوان شعر. وهو صاحب المقصورة التى مطلعها:

لله مـا قـد هجت يـا يوم النوى ... على فـؤادى من تباريح الجـوَى

الأعلام : ١٥٩/٢.

(٢) عدَّ حـازم من وجوه الغمـوض فى الألفاظ والعبارات: الحـوشى والمشترك. والغـموض بنوعيه تعسف وخارج عن الطريق السَّوى. ثم أرشد إلى الآتى:

(أ) إذا أمكن حمل بعض الكلام على القلب الذى يبعد عن المعنى فإنه لا يحمل عليه. ==

الطريق السَّوى للنظم.

ويحكى حازم ما قيل فى تأويل بعض آيات القرآن؛ فيقول:

وقد حمل قوم قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[2] على القلب.

وحمل الكلام على القلب فى غير القرآن إذا أمكن حمله على الاستقامة تعسف شديد؛ فكيف فى الكتاب العزيز!

والواجب أن تجعل الباء فى قوله تعالى: (بِالْعُصْبَةِ) للتعدية ويكون المراد -والله أعلم- إن المفاتح تُنُوءُ بالعصبة. أى تميلها من ثقلها، وهو قول الفراء، وأن يكون قوله تعالى: (لشديد) بمعنى: لبخيل. أى إنه لحب المال لبخيل. والخير: المال»[3].

فحازم يمنع القلب فى القرآن الكريم، لأنه إذا أمكن حمل كلام الناس على الاستقامة كان حمله على القلب تعسف شديد، فكيف نقول به فى الكتاب العزيز؛ ولذا فإن حازم فسر الآيتين بما يتفق مع نظمها القرآنى.

== (ب) وإذا كان لا يهتدى إلى المعنى إلا بتأويل وجب الوقوف عند ظاهر المعنى، دون تأويل؛ لأن النظم إما خطأ من أصله، أو هو مما غيره بعض الرواة؛ والواجب عدم القياس على الأمثلة التى قيل إنها من القلب، لأن أرباب الفصاحة إذا رأوا للمتقدمين طريقة فى النظم قاسوا عليها، وقد يكون بين الطريقتين مفارقة؛ فيقع الخطأ فى القياس، ولذا فإنه يجب ألا يقبل من النصوص المتماثلة إلا ما اجتمعت الروايات الصحيحة عليه عند الفصحاء وهذا فى كلام الناس. منهاج البلغاء: ١٧٩-١٨١ باختصار.

(١) سورة القصص الآية: ٧٦ .

(٢) سورة العاديات الآية: ٨ .

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ١٨٣ ، وانظر البرهان فى علوم القرآن : ٣/ ٣٩٢.

رابع عشر: محمد بن على الجرجانى (ت ٧٢٩هـ)*:

جاء ذكر القلب عند الجرجانى فى كتابه: «الإرشاد والتنبيهات فى علم البلاغة» آخر مباحث المسند إليه. والجرجانى يذهب إلى أن القلب خال من البلاغة، ولم يعتد به إلا فى التشبيه المقلوب «للمبالغة». هذا فى كلام الناس.

وأما فى كلام رب العزة فإن القلب ممنوع مطلقا، وما ورد مما يوهم القلب منه يجب تأويله بما يتفق مع النظم القرآنى.

يقول الجرجانى:

«.. وإن جاء فى القرآن ما يوهم القلب يجب تأويله كقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾[1]. وأراد: أردنا إهلاكها، وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[2]. أراد: دنا النبى دنو الكمال، فتصور كهيئة المتدلى، لا فى العالم العلوى بكله، ولا فى العالم السفلى بكله»[3].

فالجرجانى حملته نزعته الدينية على إنكار القلب فى القرآن الكريم، وأنه يجب التأويل فيه بما يتفق مع نظمه، وبذلك حمل الآية الأولى على المجاز المرسل، والثانية على التمثيل لقرب جبريل من النبى ﷺ، وبذلك أنكر القلب.

---

* هو الشيخ محمد بن على بن محمد الجرجانى الاسترابإذى منشأ ومولدا، الحلّى مسكنا. أصولى متكلم من العلماء الأفاضل ألف بالفارسية وترجم عنها وهو موسوعة إسلامية عربية فقد ألف فى التفسير والقراءات والنحو وعلم الكلام. توفى (٧٢٩هـ).

(١) سورة الأعراف الآية: ٤ .

(٢) سورة النجم الآية: ٨.

(٣) الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة: ٥٩، وانظر حاشية الشهاب الخفاجى: ٨/١١١.

خامس عشر: الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ):

ويجيء الإمام جلال الدين محمد بن سعد الدين بن عبدالرحمن القزويني الشافعي خطيب الخطباء فيصنف «متن التلخيص» وهو تلخيص للقسم الثالث من «مفتاح العلوم» للسكاكي، ثم يؤلف «الإيضاح» ليكون كالشرح لمتن التلخيص.. وقد ورد القلب البلاغي في الكتابين موزعا على علوم البلاغة[١] المعاني والبيان والبديع. والذي يهمنا منه هو ما ورد في «علم المعاني».

ذكر الخطيب آراء العلماء في القلب ثم أفصح عن رأيه والذي كان بحق ﴿**فَصْلَ الْخِطَابِ**﴾[٢] حيث قال: «ومنه القلب كقول العرب: عرضت الناقة على الحوض. وردَّه مطلقا قوم، وقبله مطلقا قوم منهم السكاكي[٣]. والحق أنه إن تضمن اعتبارا لطيفا قبل، وإلا رُدّ». ثم قال:

«وقد ظهر من هذا أن قوله تعالى: ﴿**وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا**﴾[٤] ليس واردا على القلب؛ إذ ليس تقدير القلب فيه اعتبار لطيفة، وكذا قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ**﴾[٥] وكذا قوله: ﴿**اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ**﴾[٦].

فأصل الأول: أردنا إهلاكها؛ فجاءها بأسنا. أي إهلاكنا وأصل الثاني: ثم أراد الدنوَّ من محمد ﷺ فتدلَّى؛ فتعلق عليه في الهواء.

ومعنى الثالث: تنحَّ عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه؛ ليكون ما يقولونه بمسمع منك؛ فانظر ماذا يرجعون؛ فيقال: إنه دخل من كوة؛ فألقى الكتاب إليها، وتوارى في الكوة»[٧].

(١) انظر التمهيد.
(٢) سورة ص الآية: ٢٠.
(٣) مفتاح العلوم: ٢١١.
(٤) سورة الأعراف الآية: ٤.
(٥) سورة النجم الآية: ٨.
(٦) سورة النمل الآية: ٢٨.
(٧) الإيضاح: ١/١٦٦.

فالخطيب ردَّ على من قال بالقلب فى هذه الآيات، وأول المعنى فى كل منها بما يتفق مع نظمها؛ وقد حمل الآيتين الأولى والثانية على المجاز المرسل بتقدير الارادة، وفسّر «تول عنهم» فى الثالثة بما يتفق مع أداء الهدهد لمهمته وهو «تنح عنهم..» .

والخطيب فى هذه التأويلات متأثر بكل من ابن جنى[1] (ت ٣٩٢هـ) والزجاج (ت ٣١٦)، والزمخشرى (ت ٥٢٨هـ) الخ. وهو من المفسرين بما يتفق مع النظم فى الآيات التى دار حولها الخلاف فى التأويل بالنظم أو القلب البلاغى.

سادس عشر: أبو حيان الأندلسى (ت ٧٤٥هـ)*:

لأبى حيان الأندلسى من المؤلفات ولكن أشهرها «البحر المحيط» وأبوحيان يبدو فيه قوى الشخصية، يصدر عن علم، وسعة اطلاع، وغيرة على كتاب الله تعالى، وتفسيره حافل بالدراسات البلاغية.

وأما عن القلب البلاغى فإن أبا حيان ينكره فى القرآن الكريم، ويبين أن حمل المعنى عليه عجز وسوء نظر، وقد حكاه قليلا عن بعض العلماء وهذا يدلّ على أنه لا يقره ولا يرتضيه فى تفسير الكتاب العزيز، وهذه أمثلة من «البحر المحيط».

فى قوله تعالى: ﴿**فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ**﴾[2] يرى الفراء (ت ٢٠٧هـ): القلب، فيستحسنه ابن جرير (ت ٣١٠هـ)

---

(١) انظر الخصائص : ٢/٢٠٣ ، ومعانى القرآن وإعرابه : ١/٢١٨، والكشاف : ٣/٤٢٨.

* هو محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الغرناطى الأندلسى. أقام بالقاهرة زمنا من مؤلفاته: منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، وارتشاف الضرب من لسان العرب.

(٢) وأول الآية: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ**﴾ سورة البقرة: ٢١٣.

ويختاره. ويجىء ابن عطية (ت٥٤٦هـ) فيوجز ما ذكره ابن جرير من السبب الذى دعا الفراء إلى القول به ثـم يرد عليه؛ لأن المعنى يتفق مع ترتيب نظم الآية الكريمة وذلك أن هذا النص ليس جمـلة واحدة؛ فنقول بالقلب، ولكنه جملتان والثانية مبينة للأولى. ثم إن القلب خاص بالشعر.

وفى البـحر المحـيط يؤيد أبو حيَّـان مـا ذهب إليه ابن عطيـة، فى هذا، فيقول: وقال الفراء[1]: فى الكلام قلب. وتقـديره: فهـدى الله الذين آمنوا للحق مما اختلفـوا فيه، واختاره الطبـرى. قال ابن عطية[2]: ودعاه إلى هذا التقـدير خوف أن يحتمـل اللفظ أنهم اختلفوا فى الحق، فـهدى الله المؤمنين لبعض[3] ما اختلفوا فيه، وعساه غير الحق فى نفسه. قال: وادعاء القلب على لفظ كـتـاب الله دون ضرورة تدفع إلـى ذلك عجـز وسـوء نظر. وذلك أن الكلام يتـخرج على وجهـه ورصفـه؛ لأن قوله: «فـهدى الله» يقتـضى أنهم أصابوا الحق، وتم المعنى فى قوله: «فيـه» وتبين بقوله: «من الحق» جنس ما وقع الخلاف فيه.

والقلب عند أصـحابنا يختـص بضـرورة الشعـر، فلا نخـرج عليه كـلام الله»[4].

فقـد أيد أبو حيان ابن عطـية فى الرد على الفراء القـائل بالقلب وبين أن حمل المعنى عليـه عجز وسوء نظر. ثم وضح أن معنى الآيـة يوافق نظمها. وذلك أن فى الجملة الأولى نوع إبهـام، والثانية بينت هذا الابهـام ووضحت جنس ما وقع فيه الخلاف. وبذلك ينتهى الإشكال فى حمل الآية على القلب، ويثبت التفسير بالنظم.

---

(١) معانى القرآن: ١/ ١٣١.

(٢) المحرر الوجيز: ١/ ٢٨٧.

(٣) ذكرابوحيان أقـوالا فى المختلف فيه: الجمعة، أو الصلاة، أو عـيسى -عليه السلام- أو الكتب حيث آمن السابقون ببعضهـا، وكفروا بالبعض الآخر، أو الصيام. وقد هدنا الله إلى الحق فى ذلك كله؛ فلله الحمد.

(٤) البحر المحيط. المجلد الثانى: ١٣٩.

٢- وفى قوله تـعالـى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾[١] يـقـول أبو حيان: «أى وإن اخترت الحكم (بالقسط) بالعدل كما تحكم بين المسلمين والقسط هو المبين فى قوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾[٢] وهو ﷺ لا يحكم إلا بالقسط»[٣].

فالاختيـار سابق على الحكم وسبب له، فيكون عبـر عن السبب بالمسبب على سبـيل المجاز المرسل؛ فـالتفـسير عـلى هذا جار على سيـاق نظم الآية الكريمة.

ويقول أبوحيـان فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾[٤]: «ومـعنى : إذا طلقتـم » أى : إذا أردتم تطليقـهن»[٥] فقد عـبر بالمسبب عن السبب وهذا التفسير جار على النظم، دون قلب.

ويفسر أبوحيان قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[٦] على المبالغة ، ويردّ على من قال بالقلب، كـما يذكر أقـوالا فى المراد بكل من : «الإنسان» و«عــجل» وهو مــتــأثر فى هذا بابــن جنى[٧] (ت٣٩٢هـ)، والزجـــاج (ت٣١٦هـ)، وابن جـرير (ت٣١٠هـ)، والشـريـف المرتضى (ت٤٣٦هـ)، وابن عطية (ت٥٤٦هـ) وقد نقل عنهم. يقول أبو حيان:

ولما كانوا يسـتعجلون عـذاب الله وآياته الملجئة إلى الإقـرار والعلم نهاهم -تعالى- عـن الاستعـجال، وقـدم أولا ذم الإنسان على إفراط العـجلة وأنه مطبـوع عليها. والـظاهر أن يراد بالإنسان هنا اسم الجنس، وكـونه خلق من

(١) سورة المائدة الآية: ٤٢. (٢) سورة المائدة الآية: ٤٩

(٣) البحر المحيط . المجلد الثالث: ٤٩٠.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٣٢.

(٥) البحر المحيط المجلد الثامن : ٢٨١.

(٦) سورة الأنبياء الآية: ٣٧.

(٧) انظر الخصائص : ٢/٢٠٢ ، ومعانى القـرآن وإعرابه: ١/٢٣٩، وجامع البيان. المجلد التاسع: ٢٦، وأمالى المرتضى: ١/٤٦٥، والمحرر الوجيز: ١١/١٨٦.

عجل، وهو على سبيل المبالغة لما كان يصدر منه كثيرا كما يقال لمكثر اللعب: أنت من لعب. وفي الحديث: «لست من دد ولا ددٌ مني»[١] وبهذا التأويل يتم معنى الآية. . .

ومن يدعى القلب وهو أبو عمرو، وأن التقدير: خلق العجل من الإنسان. . على معنى أنه جعل طبيعة من طبائعه، وجزء من أخلاقه فليس قوله بجيد؛ لأن القلب الصحيح فيه ألا يكون في كلام فصيح، وأن بابه الشعر»[٢] وقد أورد أبوحيان هنا شواهد كثيرة من الشعر.

٣- ورجع أبوحيان في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ إلى كل من ابن عباس (ت٧٠هـ) وابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) والزمخشري (ت٥١٨هـ) والرازي (ت٦٠٦هـ) فـفسره بما يوافق النظم ثم ذكر لطيفة في أمر سليمان -عليه السلام- الهدهد بالتولى بعد إلقاء الكتاب فقال:

أي: تنحَّ عنهم إلى مكان قريب بحيث تسمع ما يصدر منهم[٣]، وما يرجع به بعضهم إلى بعض من القول. . وقال وهب: أمره بالتولى لينتحى حسب ما يتأدب به الملوك بمعنى: وكن قريبا بحيث تسمع مراجعاتهم وقال ابن زيد: أمره بالتولى بمعنى الرجوع إليه. أي: ألقه وارجع. قال: وقوله: ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ في معنى التقديم على قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ثم أورد أبوحيان ردَّ أبي على «على قول ابن زيد؛ فقال:

«وقال أبو علي: ولا ضرورة تدعو إلى التقديم والتأخير. بل الظاهر أن النظر معتقب التولى عنهم».

(١) انظر تحقيقه في مبحث ابن عطية ص١٠٣ وقد تأثر به أبوحيان.

(٢) البحر المحيط المجلد السادس / ٣١٢، والكشاف: ٣/ ١٦٤.

(٣) انظر: تنوير المقباس: ٢٣٦، والكشاف: ٣/ ١٤٦، والتفسير الكبير المجلد الثالث عشر: ٢/ ٦٦.

فهذا التفسير يناسب نظم الآية. سواء فسر «تول عنهم» بما يتأتى للهدهد معه من النظر فى مراجعاتهم هذا الأمر، أو حمل المعنى على التقديم والتأخير.

٤- ويفسر أبوحيان قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾[١] بما يتفق مع النظم، ثم يحكى تفسيره عن الزمخشرى التفسير بالقلب وينقده مبينا أن القلب موضعه الشعر للضرورة. قال:

(**وَيَوْمَ يُعْرَضُ**) أى يعذب بالنار كما يقال: عرضت العود على النار. أى باشرت به النار. وقال الزمخشرى : ويجوز أن يراد عرض النار عليهم. من قولهم: عرضت الناقة على الحوض. يريدون عرض الحوض عليها؛ فقلبوا. ويدل عليه تفسير ابن عباس: يجاء بهم إليها؛ فيكشف لهم عنها[٢].

ولا ينبغى حمل القرآن على القلب؛ إذ الصحيح فى القلب مما اضطر إليه فى الشعر، وإذا كان المعنى صحيحا واضحا مع القلب فأى ضرورة تدعو إليه!، وليس فى قولهم: عرضت الناقة على الحوض، ولا فى تفسير ابن عباس ما يدل على القلب؛ لأن عرض الناقة على الحوض، وعرض الحوض على الناقة كل منهما صحيح؛ إذ العرض أمر نسبى[٣]، يصح إسناده لكل واحد من الناقة والحوض.

ذكر أبوحيان أن عرض الكفار على النار بمعنى التعذيب حقيقة، وذكر

(١) سورة الأحقاف الآية: ٢٠.

(٢) الكشاف : ٣/ ٥٢٣.

(٣) ذكر أبوحيان فى البحر المحيط: ٨/ ٣٣ سبب الخلاف فى تفسير العرض بالحقيقة أو المجاز فى المثال المذكور والآية الكريمة. وهو أن المعروض لا اختيار له كالحوض، والاختيار إنما هو للمعروض عليه كالناقة. هذا هو الشأن.

أو إما أن يعتبر فى العرض أمران معا: ١-حركة المعروض، أو تحريكه نحو المعروض عليه.
٢- وإرادة المعروض عليه للشىء الذى عرض عليه باختياره- وإما إن يعتبر أحد الامرين فقط. خلاف يحتاج إلى تأمل.

التفسير الثاني للزمخشري وهو على القلب، واستدل بقول ابن عباس، ورد على أبي حيان تفسيره بالقلب، وبين أن العرض في المثال المذكور امر نسبي.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لفظ عام في الأشياء التي لها آجال؛ لأنه ليس منها شيء إلا وله أجل في بدئه وفي خاتمته. وذلك الأجل مكتوب محصور. وقال الضحاك والفراء: لكل كتاب أجل.

ولا يجوز ادعاء القلب إلا في ضرورة الشعر. أما هنا فالمعنى في غاية الصحة بلا عكس، ولا قلب بل ادعاء القلب هنا لا يصح المعنى عليه؛ إذ ثم أشياء كتبها الله -تعالى- في أزليته كالجنة والنار، ونعيم أهلها لا آجال لها»[١].

٦- وذكر أبوحيان[٢] الرأيين في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ ثم رجح التفسير بما يوافق النظم، وأيده بما نقله عن ابن عطية في المحرر الوجيز.

٧- وحكى أبو حيان القلب عن أبي عبيدة ثم نقده، ففي قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾[٣] يقول: «وقال أبو عبيدة: هو مقلوب وأصله: لتنُوء بها العصبة[٤] أي تنهض. والقلب عند أصحابنا بابه الشعر والصحيح أن الباء للتعدية. أي: لتُنِيءُ العصبة كما تقول: ذهبت به، وأذهبته، وجئت به وأجأته»[٥].

---

(١) البحر المحيط المجلد الخامس: ٣٩٧.

(٢) البحر المحيط المجلد الخامس: ٥٣٥، والمحرر الوجيز: ١٠/ ٢٨٠.

(٣) سورة القصص الآية: ٧٦.

(٤) مجاز القرآن: ١/ ١١١.

(٥) انظر إعراب القرآن للنحاس ٤٣/ ٢٤٢.

٨- ويرد أبو حيان على من قال بالقلب فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[١] ويذكر أن لا ضرورة تدعو إلى ذلك ويفسر الآية على الإيجاز بالحذف[٢].

ويحكى القلب فى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾[٣] فيقول:

« . . وقيل : هو من المقلوب كما جاء: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[٤] . . وقال الراغب[٥]: « إذا بلغت الكبر فقد بلغك».

وأخيرا فإن أبا حيان تصدى لمن فسر بعض الآيات القرآنية بالقلب دون ضرورة - ولا ضرورة فى كتاب الله وبين أن هذا يختص بالشعر؛ فلا نخرج عليه كلام الله، وأنه إذا كان المعنى صحيحا دون قلب فأى ضرورة تدعو إليه؟! . هذا إلى أن القلب فى بعض الآيات غير مطرد فلا يصلح أن يكون سبيلا لتفسيرها.

وإذا كان أبوحيان حكى القلب فى آية آل عمران فإن هذا ليس رأيه، ولذا صدره بقوله : «وقيل».

فأبو حيان من المانعين للقلب البلاغى فى القرآن الكريم.

---

(١) سورة الشعراء الآية : ٧٧ .

(٢) انظر البحر المحيط . المجلد السابع: ٢٣ .

(٣) سورة آل عمران الآية: ٤٠ .

(٤) سرة مريم الآية: ٨ .

(٥) هو الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهانى أو الأصبهانى أديب من الحكماء العلماء من أهل «أصبهان» سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالى من كتبه: محاضرات الأدباء، والمفردات فى غريب القرآن توفى سنة ٥٠٢هـ.

سابع عشر: ابن هشام الأنصارى (ت ٧٦١هـ):

وفى مقدمة علماء النحو أبومحمد جمال الدين بن يوسف الأنصارى المصرى. وأهم مؤلفات ابن هشام: «مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب» وابن هشام يتعرض للقلب البلاغى فى عدة مواضع من هذا الكتاب ويستشهد ببعض النصوص القرآنية، وبكلام العرب ويختلف بيان ابن هشام لها من اتفاق المعنى مع اتساق النظم، أو القلب البلاغى وهذه الأمثلة تبين ذلك.

أولا: فى بيانه لـ «ما» النافية يذكر أنها تقع فى ثلاثة أبواب؛ فيقول: «والثالث. قولهم إذا أرادوا المبالغة فى الإخبار عن أحد بالإكثار من فعل كالكتابة: إنَّ زيدًا ممَّا أنَ يكتب. أى إنه من أمر كتابة. أى أنه مخلوق من أمر. وذلك الأمر هو الكتابة. و«ما» بمعنى «شىء»، و«أن» صلتها فى موضع خفض بدل منها. والمعنى مثله فى ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ جعل لكثرة عجلته كأنه خلق منها»[1].

ثانيا: وفى موضع من المغنى يذكر ابن هشام هذه الآية الكريمة ويتبعها بقول الشاعر:

وضنَّت علينا والضنين من البخل[2]

ثم يقول: «فجعل الإنسان والبخيل مخلوقين من العجَل، والبخل مبالغة»[3].

ثالثا: ويقول ابن هشام* : (القاعدة الخامسة أنهم يعبرون بالفعل عن أمور)

أحدها: وقوعه . . . .، . . .

---

(١) مغنى اللبيب : ٣٩٢.

(٢) صدره : «**ألا أصبحتْ اسماءُ جاذمةَ الحبل**» وروى البيت للبعيث فى اللسان (ضنن)، وهو فى الخصائص: ٢/٢٠٢، وأمالى ابن الشجرى: ١/ ٧٢ دون نسبة.

(٣) مغنى اللبيب: ٤٠٩ ، وانظر : ٤٢٤.

* عقد ابن هشام «الباب الثامن. فى ذكر أمور كلية يتخرج عليها مالا ينحصر من المعانى «ص٨٨٤ ، وهذه القاعدة منها.

الثالث: إرادته، وأكثر ما يكون ذلك بعد أداة الشرط نحو ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا﴾، ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[١]، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾[٢]، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾[٣]، ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٤]، ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا﴾[٥]، ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[٦].

وفى الصحيح: «إذا أتى أحدكم الجمعة فليغتسل»[٧].. ومثله ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾[٨] أى أردنا إهلاكها، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[٩] أى: أراد الدنو من محمد -عليه الصلاة والسلام- فتدلى، فتعلق فى الهواء، وهذا أولى من قول من ادَّعى القلب فى هاتين الآيتين، وأن التقدير: وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها، ثم تدلى»[١٠].

فقد فسر ابن هشام المعنى فى هذه الآيات بما يتفق مع نظمها القرآنى، ورد على من قال بالقلب فى الآيتين الآخيرتين.

وأورد هنا تأويل بعض هذه الأمثلة:

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٤٧، وسورة مريم الآية: ٣٥.
(٢) سورة المائدة الآية: ٤٢. (٣) سورة النحل الآية: ١٢٦.
(٤) سورة المجادلة الآية: ٩. (٥) سورة المجادلة الآية: ١٢.
(٦) سورة الطلاق الآية: ١.
(٧) أخرجه البخارى فى صحيحه. الجزء الثانى. كتاب الجمعة ص٦ برواية «حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب عن الزهرى قال: حدثنى سالم بن عبدالله أنه سمع عبدالله ابن عمر ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من جاء منكم الجمعة فليغتسل».
(٨) سورة الأعراف الآية: ١١. (٩) سورة النجم الآية: ٨.
(١٠) مغنى اللبيب: ٩٠٢-٩٠٤.

قال ابن عطية (ت ٥٤٦هـ) في آية آل عمران: «وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ﴾ معناه: إذا أراد إيجاده[١] وقال أبو السعود (ت ٥٩١هـ): «﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ من الأمور أي: أراد شيئا»[٢].

وقال في آية المائدة: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ أي: اخترت أن تحكم بينهم في نازلة ما ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾[٣].

قال أبو السعود (ت ٥٩١هـ) في آية الطلاق: والمعنى: إذا أردتم تطليقهن وعزمتم عليه كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾[٤].

ومعنى الحديث الشريف: إذا أراد أن يأتي أحدكم الجمعة فليغتسل.

رابعا: وقال ابن هشام:

«ومنه - القلب- في الكلام: أدخلت القلنسوة في رأسي وعرضت الناقة على الحوض، وعرضتها على الماء. قال الجوهري وجماعة منهم السكاكي والزمخشري، وجعل منه: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ وفي كتاب التوسعة ليعقوب بن إسحاق السكيت[٥]: إنَّ: عرضت الحوض على الناقة مقلوب، وقال آخر: لا قلب في واحد منهما، واختاره أبوحيان، ورد على الزمخشري في الآية»[٦].

فقد حكى ابن هشام القلب في الآية الكريمة وذكر الخلاف في ذلك. وأخيرا فإن ابن هشام حكى القول بما يتفق مع النظم، والقلب في قوله

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١/ ٤٣٥.
(٢) تفسير أبي السعود: ١/ ٣٧.
(٣) المحرر الوجيز: ٢/ ١٩٥.
(٤) تفسير أبي السعود: ٧/ ٢٦٠.
(٥) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكيت البغدادي النحوي، ديّن خيّر حجة في العربية. أخذ عن أبي عمرو الشيباني وطائفة، وروى عنه عكرمة الضبي. له من التصانيف نحو عشرين كتاب منها: إصلاح المنطق، وأدب الكاتب، والتوسعة في كلام العرب. سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٦.
(٦) مغني اللبيب: ٩١٣.

تعالى: ﴿اذهب بكتابي هذا﴾ ،و ﴿فعميت عليكم﴾، و﴿ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة﴾. فهو رأى غيره.

فابن هشام ذكر القلب البلاغى فى غير موضع من كتابه: المغنى وبين بعض الآيات القرآنية بما يتفق مع النظم تارة، وعلى القلب تارة أخرى كما حكى ذلك عن بعض المفسرين. فهو من المانعين للقلب البلاغى فى القرآن الكريم.

ثامن عشر: شيخ زادة (ت ٩٥١هـ)* :

كان لتفسير «الكشاف» أثره فى دراسة بلاغة النظم القرآنى. ولأهمية هذا التفسير فقد كتب عليه عدد من المختصرات والحواشى. ومن هذه المختصرات «تفسير القاضى البيضاوى» وعلى هذا التفسير كتبت «حاشية محيى الدين شيخ زادة»، و«حاشية الشهاب الخفاجى» وكلتا الحاشيتين كثيرة الفوائد وخصوصا فى البلاغة القرآنية.

وشيخ زادة مفسر وفقيه وبيانى، ولديه ذوق بلاغى. وقد رجع فى حاشيته إلى كثير من كتب التراث حتى غدت من أمهات هذه الكتب، وشيخ زادة فى هذه الحاشية يفسر الآيات التى عدها بعض العلماء من القلب يفسرها بما يتفق مع النظم الذى جاءت عليه ذاهبا إلى اعتبارات بلاغية تعينه على هذا التأويل وسنبين ذلك.

-١-

فى قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾[1] ينقل شيخ زادة قول القاضى البيضاوى : «استقبله بالأخذ والقبول، والعمل بها حين علمها» ثم يبينه بقوله:

«قال النحرير التفتازانى -رحمه الله- فالأرض استقبلته وتلقته، ومنه تلقيته وربيته. وإنما لم يجعل من هذا مع ظهوره حيث استعمل بـ «من» ليرتب عليه

* هو محيى الدين بن مصطفى القوجى، مفسر من فقهاء الحنفية. عمل مدرسا فى استانبول. وأهم مؤلفاته: حاشيته على «انوار التنزيل، وشرح الفوائد السراجية توفى عام ٩٥١هـ-١٥٤٤م. هدية العارفين: ٢/ ٢٣، والاعلام : ٧/ ٩٩ .

(١) سورة البقرة الآية: ٣٧.

الأخذ والقبول والعمل وسائر ما يدخل فى استقبال الرجل أعزته وأحباءه، فعلى هذا يكون « من ربه » حالاً من «كلمات» انتهى كلامه.

قال القفال[١] -رحمه الله- : أصل التلقى هو التعرض ثم وضع موضع الاستقبال؛ لأن الإنسان يستقبل من يتعرض له ثم وضع موضع الأخذ والقبول؛ لأن الإنسان إنما يستقبل ما يريد أخذه، ولأن فى استقبال الأعزة ومن يعظم قدره إكراما لهم وإكرام الله -تعالى- بالقبول والعمل بما فيها. وكان آدم يتلقى الوحى. أى يستقبله ويأخذه»[٢] .

فالتلقى مسبب عن التعرض والاستقبال لما بينهما من تعلق، ثم يزيد المفسر الأمر وضوحا؛ فيبين المقصود من التلقى، وأنه يكون وصفا مشتركا لمن وقع بينهما هذا المعنى، وذلك ليمهد به إلى قراءة ابن كثير فيقول:

«قد مرَّ أن تلقى الشيء فى الأصل عبارة عن التعرض للقائه. وإذا كان هذا أصل الكلمة، وكان من تلقى رجلا فقد تلقى كل واحد منهما صاحبه وأضيف الاجتماع إليهما صلح أن يشتركا فى الوصف بذلك ؛ فيقال : كل ما تلقيته فقد تلقاك[٣] فيجوز أن يقال:

تلقى «آدمُ» كلمات : أى استقبلها بالأخذ والقبول. وتلقى آدمَ كلماتٌ بنصب «آدم»، ورفع «كلمات» على معنى: جاءته عن الله كلمات .

ثم ينقل عن الواحدى (ت ٤٦٨هـ) أن هذه طبيعة مواد اللغة، ويرتب عليه استواء قراءة ابن كثير وقراءة الجمهور من حيث المعنى فيقول:

قال الإمام الواحدى: وذلك أن من الأفعال ما يكون إسناده إلى الفاعل كإسناده إلى المفعول وذلك نحو : أصبتُ، ونلتُ ولقيتُ. تقول: نالنى خيرٌ، ونلتُ خيرًا، وأصابنى خيرٌ ، وأصبت خيرًا، ولقينى زيدٌ ، ولقيتُ زيدًا.

وإذا كان معانى هذه الأفعال على ما ذكرنا كان نصب آدم ورفع الكلمات كرفع آدم ونصب الكلمات من حيث المعنى»[٤] .

---

(١) انظر ترجمته ص: ٣٩ .

(٢) حاشية محيى الدين شيخ زادة على تفسير القاضى البيضاوى: ١/ ٢٦٧.

(٣) انظر : معانى القرآن : ١/ ٢٨، والبيان فى إعراب القرآن: ١/ ٥٧، والتبيان فى إعراب القرآن. القسم الأول : ٥٤.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٢٦٩.

فقد استند «شيخ زادة» فى تفسر التلقى إلى أقوال العلماء؛ ثم استنتج منه أن التلقى وصف مشترك لمن يقع بينهما اللقاء.

والنتيجة: أن لا قلب فى قراءة، ابن كثير.

وأقوال: أتعب شيخ زادة نفسه فى غير طائل. فثمة فرق بين قراءة الجمهور وقراءة ابن كثير فكيف يكون المعنى عليهما واحدا. يقول الزجاج (ت ٣١٦ هـ) : والاختيار ما عليه الإجماع، وهو فى العربية أقوى؛ لأن آدم تعلم هذه الكلمات؛ فقيل: تلقي هذه الكلمات. والعرب تقول: تلقيت هذا من فلان. المعنى فهمى قبله من لفظه»[١].

ويقول ابن جرير (ت ٢١٠هـ): «. . غير جائز عندى فى القراءة إلا رفع آدم على أنه المتلقى؛ لإجماع الحجة من القراءات وأهل التأويل من علماء السلف والخلف على توجيه التلقى إلى آدم، دون الكلمات»[٢].

وفى قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ يقول القاضى أردنا إهلاك أهلها، أو أهلكناها بالخذلان» فيبين شيخ زادة[٢] أن تقدير الإرادة لازم كى لا يفهم أن مجيء البأس بعد الإهلاك، وتقدير الإهلاك بالخذلان وعدم التوفيق؛ فكل منهما سبب للإهلاك فعلى هذا حذف السبب اكتفاء بالمسبب، والفاء للسببية كما سبق؛ فلا قلب.

وفى قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ يورد قول القاضى: «كأنه خلق منه لفرط استعجاله، وقلة تأنيه، كقولك: خلق زيد من الكرم. جعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع، وهو منه مبالغة فى لزومه له، ولذلك قبل: إنه على القلب.

ولكن شيخ زادة يهون من هذا القلب؛ فيقول: «قوله: ولذلك قيل: . .» أى وللاحتياج إلى التأويل فى جعل العجل مبدأ لخلق الإنسان قيل: إنه على

---

(١) معانى القرآن وإعرابه: ١/ ١١٦.

(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن. المجلد الأول: ١٩٣ وانظر تعليق شيخ زادة على تفسير القاضى فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾(النحل: ٩٨) المجلد الثالث: ١٩٨ حيث رجح بالأدلة التفسير بالنظم.

القلب والمعنى: خلق العجل من الإنسان كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾[١]. أى تعرض النار عليهم. وهو بعيد؛ لأنه لما أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه لا وجه لأن يقال: هو مقلوب»[٢].

ويبين شيخ زادة قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ موافقا للنظم، فيجعل الباء فى «بالعصبة» للتعدية كالهمزة فى: أناءه الحملُ أى: أثقله؛ فيقول: «والمعنى: إن المفاتح لتثقل العصبة الأقوياء، فكما يعدى «ذهب» تارة بالباء، والأخرى بالهمزة فكذا «ناء» بمعنى: ثقل يتعدى بالهمزة؛ فيقال: أناءه الحملُ، ويعدى أيضا بالباء؛ فيقال: ناء به أى أثقله»[٣].

وفى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[٤] يقول القاضى: «لكل وقت حكم يكتب على العباد ما يقتضيه استصلاحهم» فيبينه شيخ زادة بما يوافق نظم الآية الكريمة[٥].

وينقل القاضى عن الزمخشرى أن عداوة الأصنام لإبراهيم على سبيل المجاز فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[٦] فيبينه شيخ زادة بأن شبهت الأصنام بالعدوّ بجامع لحوق المضرة بهم، ثم استعير لفظ «عدو» لها، أو أن الأصنام وصفت بالعداوة؛ لأنها سبب فيها[٧].

فهذا التفسير على الاستعارة التصريحية الأصلية أو المجاز المرسل وهو تفسير بما يوافق نظم الآية الكريمة.

(١) سورة الأحقاف الآية: ٢٠.
(٢) حاشة شيخ زادة. المجلد الثالث: ٥٢٢.
(٣) المرجع السابق: ٣/ ٥٢٢.
(٤) سورة الرعد الآية: ٣٨.
(٥) المرجع السابق: ٣:٢٢١، وانظر الكشاف: ٢/ ٣٦٣.
(٦) سورة الشعراء الآية: ٧٧.
(٧) انظر حاشية شيخ زادة: ٣/ ٤٧٢.

وينقل شيخ زادة رأى الواحدى (ت ٤٦٨هـ) فى قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾[١] وأنه من المقلوب ثم ردّ الفخر الرازى[٢] عليه والذى بين أنه من التقديم والتأخير مع ذكر سرّه البلاغى. فقد أيد شيخ زادة الإمام الرازى فى تفسير النص الكريم بما يناسب النظم، لا القلب.

-٢-

وفى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾[٣] ينقل شيخ زادة قول القاضى: « يعذبون بها، وقيل: تعرض النار عليهم؛ فقلب مبالغة كقولهم: عرضت الناقة على الحوض » ثم يتبعه بقوله:

«والعرض يتعدى باللام و«على» يقال: عرضت له أمر كذا، وعرضت عليه الشىء أى: أظهرته له، وأبرزته. قال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾[٤] ثم يستشهد بقول الفراء فيقول:

قال الفراء: أبرزناها حتى نظر إليها الكفار[٥] فالمعروض عليه أوله يجب أن يكون من أهل الشعور والاطلاع، والنار ليست منه؛ فلابد أن يحمل العرض على التعذيب مجازًا بطريق التعبير عن الشىء باسم ما يؤدى إليه كما يقال: عُرض بنُو فلان على السيف إذا قتلوا به، ويجعل باقيا على أصل معناه، ويكون الكلام محمولا على القلب.. والنكتة فى اعتبار القلب: المبالغة بادعاء أن النار ذات تمييز وقهر وغلبة»[٦].

وأقول: ذهب «شيخ زادة» إلى تفسير الآية بما يتفق مع النظم؛ فقال: «فلابد أن يحمل العرض على التعذيب مجازا..» ثم ناقض نفسه بقوله:

(١) سورة يونس الآية: ١٠٧.
(٢) انظر ص: ٤١ ، وقول الواحدى فى البرهان: ٣/ ٢٩٠.
(٣) سورة الأحقاف الآية: ٢٠
(٤) سورة الكهف الآية: ١٠٠.
(٥) معانى القرآن: ٢/ ١٦٠، وانظر الكشاف: ٣/ ٥٢٢.
(٦) حاشية محيى الدين شيخ زادة. المجلد الرابع: ٣٣٧.

«ويجعل - العرض - باقيا على أصله معناه، ويكون محمولا على القلب». فكيف يجتمع المجاز مع الحقيقة فى تأويل واحد؟!.

ولكن يفهم من كلام شيخ زادة وجوب التفسير بما يتفق مع النظم؛ فقد قال: «فلابدَّ أن يحمل العرض على التعذيب».

وأخيرا فإن «شيخ زادة» صاحب حاشية يشرح ما يراه من كلام القاضى، وكثيرا ما يخالفه، فصاحب الحاشية يحمل معنى الآيات القرآنية على النظم بما فى ذلك التقديم، أو المجاز وله فى ذلك تأويلات كثيرة.

تاسع عشر: أبو السعود (ت ٩٥١هـ)*:

فسر العلامة أبوالسعود الآيات القرآنية التى قيل فيها بالقلب فسرها بما يلائم النظم التى نزلت عليه من الله سبحانه، بل إن بالسعود لم يرد فى تفسير شىء عن القلب. وهذه أمثلة من تفسيره:

١- فى قوله تعالى: **﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾**[١] يقول: (**لما اختلفوا فيه**) بيان للحق الذى اختلف فيه من اختلف (**من الحق**) بيان لـ « ما » وفى إبهامه أولا ثم تفسيره ثانيا ما لا يخفى من التفخيم»[٢] فهذا تفسير بما يلائم النظم، وقد تأثر فيه بكل من ابن جرير (ت ٣١٠هـ)، والزمخشرى (ت ٥٢٨هـ). وقد بين أبوالسعود الغرض من البيان بعد الابهام وأنه التفخيم.

ويفسر أبوالسعود قوله تعالى: **﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾** بما نقله عن الزمخشرى، وهو «تنحَّ إلى مكان قريب..»[٣].

وفسر آيات كثيرة بتقدير الإرادة، وهذا يتفق مع نظم هذه الآيات. ففى قوله تعالى: **﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾**[٤]. يقول: « والمراد

(١) سورة البقرة الآية: ٢١٣.
(٢) تفسير أبى السعود: ١/ ٢١٤.
(٣) المرجع السابق: ٣/ ٢٨٢.
(٤) سورة الأعراف: ٤.

بإهلاكها: إرادة إهلاكها كما فى قوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ أى: أردنا اهلاكها»[١]. وقدر الإرادة أيضا فى تفسير قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ إذا إردت قراءته..»[٢] وقال فى آية النجم: ﴿ثم دنا فتدلى﴾ المعنى: « أراد جبريل -عليه السلام- الدنو من النبى ﷺ (فتدلى)[٣]».

فهذا التفسير جار على نظم هذه الآيات الكريمة.

وفسر أبو السعود قوله تعالى: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ بقوله: «منعناه أن يرتضع من المرضعات»[٤] وهى عبارة القاضى البيضاوى (ت ٦٩١هـ) فى تفسيره[٥].

فالمنع هنا: تحريم تكوينى؛ ليضطر آل فرعون إلى البحث عن مرضع يتقبل ثديها» وهو أيضا على المجاز، وذلك أن الصبى ليس من أهل التكليف؛ فيحل له شىء أو يحرم عليه[٦].

وفسر العلامة قوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ بالمبالغة وهو تفسير يتفق مع نظم الآية. قال: «جعل لفرط استعجاله، وقلة صبره كأنه مخلوق عنه»[٧].

ويطول بنا المقام إذا تتبعنا أبا السعود فى تفسيره، ولكن بيانه لهذه النصوص الكريمة يدل على أنه يفسرها بما يتفق مع نظمها القرآنى، فهو يقول بالمبالغة، أو يشير إلى المجاز بنوعيه، أو يفسر بعض المفردات القرآنية بما يتفق مع السياق والنظم. وهذه الوجوه بعيدة عن التفسير بالقلب.

---

(١) تفسير أبى السعود: ٣/ ٢١٢.
(٢) تفسير أبى السعود: ٥/ ١٣٩.
(٣) الرجع السابق: ٨ / ١٥٥.
(٤) المرجع السابق: ٧/ ٥.
(٥) أنوار التنزيل: ٧ / ٦٦ بهامش (حاشية الشهاب الخفاجى).
(٦) انظر الكشاف: ٣/ ١٧٦، وحاشية الشهاب الخفاجى: ٧ / ٦٦.
(٧) تفسير أبى السعود. ٦/ ٦٧، وانظر: فتح القدير: ٣/ ٥٨٣.

عشرون: مؤلفوا: « التفسير الوسيط » :

من أبرز كتب التفسير فى العصر الحديث «التفسير الوسيط للقرآن الكريم» وهو ثمرة جهود مخلصة لعدد من علماء المسلمين بإشراف مجمع البحوث الإسلامية* بالأزهر الشريف. وقد طبع تفسير كل حزب من القرآن فى كتاب مستقل، وذلك ما بين عامى : (١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م = ١٤١١هـ - ١٩٩١م).

---

* رأى المجمع حاجة المسلمين إلى وضع تفسير وسيط للقرآن الكريم فى أسلوب ميسر، يسهل للقارئ الوصول إلى معانيه؛ فأصدر فى مؤتمره الرابع. توصية بوضع هذا التفسير، وعهد إلى عدد من أعضائه بالإشراف على إخراجه وتنفيذه - التفسير الوسيط للقرآن الكريم - (الحزب الأول من التفسير الوسيط ص: ٥ بإختصار).

ويحدثنا فضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطيِّر أحد هؤلاء الأعضاء بإيجاز عن تنسيق المجمع لهذا العمل، والخطة التى سارت عليها اللجنة المكلفة بهذا العمل الجليل؛ فيقول:

«. . . فهاهم أولاد علماء المسلمين الذين يمثلون العالم الإسلامى فى مجمع البحوث التابع للازهر الشريف قرروا تأليف تفسير للقرآن الكريم، لا هو مختصر لا يشبع النهم، ولا هو مطول يستتبع الملل، ولكنه يكون بين ذلك قواما.

وقد ألف المجمع لجنة من أربعين عالما لتأليف هذا التفسير. وقد انتخبت هذه اللجنة من بينها لجنة التنسيق. مهمتها تنسيق ما يؤلفه الأعضاء، ليكون التعبير عن معانيه على نسق واحد، بحيث يشعر قارؤه باتحاد الأسلوب كأنه تأليف عالم واحد. . .

وقد اهتمت اللجنة بتجريد التفسير من الإسرائيليات والخرافات، واختيار أقوى المعانى، وأيسر العبارات فى تفسير الآيات. وعند تقارب معنيين فى القوة تذكرهما وتترك للقارئ الخيار، وما كان فى القرآن متشابها أو مبهما ولم تبينه السنة تركت اللجنة أمره إلى الله -تعالى- فهو أعلم بمراده. وأهتمت اللجنة من جهة الشكل بأمرين: أحدهما: مستحدث، والآخر: قديم. فأما المستحدث فهو ذكر المفردات اللغوية الغريبة وتفسيرها باختصار قبل التعرض لتفسير الآية أو الآيات المترابطة، وإتباع التفسير لهذه المفردات. .

وأما القديم فهو : وضع كل جزء يراد تفسيره من الآية بين قوسين، وتفسيره عقب ذلك حفاظا على النمط المألوف فى التفسير، وليكون المعنى بجانب الجزء الذى يفسره من الآية. والله نسأل أن ينفع به عباده ، وأن ينشر هداه بين العالمين-(اتجاه التفسير فى العصر الحديث منذ الإمام محمد عبده إلى مشروع التفسير الوسيط: ٣٠٢-٣٠٤).

وأما الآيات الكريمة والتى اختلف فى تأويلها بين التفسير بالنظم أو القلب فإن اللجنة المشكلة لهذا التفسير قد عملت على تفسير هذه الآيات بما يتفق مع نظمها القرآنى؛ وذلك عملا بما جاء فى منهجه من «اختيار أقوى المعانى، وأيسر العبارات فى تفسير الآيات»

وإليك أيها القارئ الكريم هذه الأمثلة من «التفسير الوسيط».

فُسر قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[1] بأن: ألقى الله فى روع «آدم» أن يتوسل إليه بكلمات ألهمه إياها؛ ليتوب الله عليه؛ فاستقبلها بالأخذ والقبول، والعمل بها حينما تعلمها»[2] فهذا التفسير يتفق مع القراءة برفع «آدم» على أنه فاعل التلقى، وهو يناسب نظم الآية الكريمة.

ويبدو تأثر المفسر هنا واضحا بكل من أبى عبيدة، والزمخشرى، فقد جاء فى الكشاف[3]: «تلقِّى الكلمة: استقبالها بالأخذ والقبول، والعمل بها حين علمها».

وجاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾[4] الآتى:

المفردات:

(وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ) : أدركتنى الشيخوخة .

التفسير :

لما بشرته الملائكة بذلك، وتحقق من البشارة تعجب من وقوع ذلك مع وجود الموانع؛ فقال: يا رب من أين يكون لى غلام وقد أدركتنى الشيخوخة! فقد كانت سنّه على ما روى عن ابن عباس مائة وعشرين سنة» (وامراتى عاقر) لا تلد!»[5].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٣٧.

(٢) التفسير الوسيط. الحزب الأول: ٨٢.

(٣) جـ١ ص٢٧٤، وانظر. معانى القرآن: ١/ ٣٨.

(٤) سورة آل عمران الآية: ٤٠.

(٥) التفسير الوسيط الحزب السادس : ٥٦١.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[١]: « لكل وقت من الزمان شرع كتبه الله يناسب حال أهله، وينتهي بانتهاء الحاجة إلى هذا الشرع؛ فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوال العباد في المبدأ أو المعاد.

ويترتب على ذلك أن الشريعة تختلف على حسب اختلاف أحوال الناس التي تتغير بتغير الأوقات، وتتابع الأزمان والأجيال، ومثل ذلك كمثل اختلاف العلاج باختلاف أحوال المرضى، وبحسب الأوقات»[٢].

فهذا التفسير يوافق نظم الآية الكريمة.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾[٣]: «والمعنى: أنه- تعالى- إن يُردْه عبده بخير من فضله فلن يستطيع أحد منع هذا الخير عنه؛ فإن ارادته -جل وعلا- نافذة، وفضله- سبحانه- لا يستطيع أن يرده أحد من خلقه»[٤].

فالتفسير جار على نسق النظم حيث جعل المفعول به «عبده» مقدما على الجار والمجرور « بخير ».

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[٥] الآتي:

المفردات:

(حَرَّمْنَا): منعنا ؛ فالتحريم مجاز عن المنع؛ لأن من حرم عليه شيء فقد منعه[٦].

التفسير:

والمعنى : منع الله موسى أن يُرضع ثدى امرأة قط. قال ابن عباس: لا يُؤتى له بمرضع؛ فيقبلها. وهذا تحريم منع ، لا تحريم شرع.

---

(١) سورة الرعد الآية: ٣٨.

(٢) التفسير الوسيط الحزب السادس والعشرون: ٤٥٢.

(٣) سورة يونس الآية: ١٠٧.

(٤) التفسير الوسيط. الحزب الثانى والعشرون: ١٥٢.

(٥) سورة القصص الآية: ١٢.

(٦) هذا من : روح المعانى : ٢/ ٥٠.

قال امرؤ القيس[١]:

جالَتْ لِتصرَعَنى فقلتُ لها: اقْصرى
إنِّى امرؤٌ صَرْعِى عليكِ حَرَامُ

أى: ممتنع »[٢].

تفسير التحريم بالمنع مناسب لنظم الآية الكريمة، وللحال والمقام ولذا أورد له شاهدًا من الشعر؛ فامرؤ القيس يخاطب فرسه، وهى غير مكلفة، فالمراد بتحريم صرعها له: امتناعه كما يرى!

ويبدو تأثر الأستاذ المفسر هنا بالإمام الطبرسى فى «مجمع البيان»[٣].

وفى قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ﴾[٤] يقول المفسر:

المفردات:

(لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ) : العصبة : الجماعة يتعصب بعضها لبعض، ويشد أزره. ومعنى: «تنُوءُ بالعصبة» تُثقلُها . يقال: ناء به، وأناءه، أى: أثقله كما يقال: ذهب به، وأذهبه. فالباء للتعدية. وبه قال الخليل وسيبويه والفراء. واختاره النحاس[٥].

التفسير :

أى : وأعطيناه من كنوز الاموال ما دفعه إلى التكبر والتعالى على قومه وظلمهم. فالمراد من الكنوز: الأموال المدَّخرة. ويصف الله عظمة هذه الكنوز بأن مفاتحها تنُوء بالعصبة أولى القوة»[٦].

---

(١) ديوانه: ١١٦ . وهو من قصيدة مطلعها:

لمن الديارُ غشيتُها بسُحام فَعَمَا يَتَين فَهضْبِ ذِى أقْدامِ

(٢) التفسير الوسيط. الحزب الأربعون: ١٨٠٦ .

(٣) الجزء العشرون: ٢٧١ .

(٤) سورة القصص الآية: ٧٦ .

(٥) يبدو التأثر هنا واضحا بالألوسى فى : روح المعانى: ٢٠/ ١١١ .

(٦) التفسير الوسيط . الحزب الأربعون: ١٨٠٦ .

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[١] يقول:

لَمَّا ذكر -سبحانه وتعالى- أحوال بعض الأشقياء ومآلهم أردفه -جل وعلا- بذكر حال الكافرين عامة فى أخراهم.

أى: ذكر يا محمد هؤلاء المعاندين المكابرين -ذكرهم- يوم يُظهر الله للكفار نار جهنم، فينظرون إليها، ويعلمون أنهم ملاقوها؛ فيقال لهم - تقريعًا وتوبيخًا وتسفيهًا عما قدموا: استنفدتم طيباتكم من المآكل والمشارب والملابس والفارش وأنواع المتع والشهوات ، وتمتعتم بتلك اللذائذ واستعجلتموها فى الدنيا؛ فليس لكم حظ لا نصيب منها فى الآخرة، لأنكم لم تكونوا مؤمنين حتى تنالوا النعيم الأبدى الخالد، بل اشتغلتم بشهوات الدنيا ولذائذها، وقضيتم حياتكم فى لهو الشهوات وحمأة المعاصى، وعميت أبصارهم عما ينفعكم فى الآخرة من الإيمان بالله والعمل فى مرضاته . . »[٢].

يوم القيامة هو يوم الجزاء، وإظهار النار للكفار قبل إلقائهم فيها نوع من التعذيب النفسى، وهو بلا شك بداية للتعذيب الأبدى. قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾[٣].

فالمراد -والله أعلم- بإظهار نار جهنم للكفار، والذى فسر به قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ التعذيب أو بدايته فيكون التفسير جاريا على نظم الآية الكريمة. ولذا لم ينص الشيخ المفسِّر على أن العَرضَ يراد به القلب كما قال الزمخشرى[٤].

(١) سورة الأحقاف الآية: ٢٠ .
(٢) التفسير الوسيط. الحزب الواحد والخمسون: ٩٢٣.
(٣) سورة الكهف الآية: ٥٣ .
(٤) انظر . ص : ٣٤ .

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[1] يقول:

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ) :

أى : ثم قرب جبريل -عليه السلام- من رسول الله ﷺ .

٨- (فَتَدَلَّىٰ) : فتعلق فى الهواء ودنا من رسول الله ﷺ دُنُوًّا خاصًا ونزل بقربه.

٩- (كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ) :

أى: فكان مقدار مسافة قرب جبريل -عليه السلام- من رسول الله ﷺ - كمقدار قوسين عربيتين أو أقرب من ذلك على تقديركم ومعاييركم. وهذا كناية عن شدة القرب»[2].

فعلى هذا : الدنو والتدلى معناهما واحد، وإن زاد أحدهما عن الآخر فى المعنى، وتفسير الآية الثانية على الكناية، وأن المعنى كمقدار قوسين عربيتين. . تفسير لهما بما يوافق النظم القرآنى. والتأثر هنا ظاهر بالشهاب الخفاجى فى حاشيته[3] على القاضى البيضاوى.

وبعد عرضنا لهذه الأمثلة من «التفسير الوسيط» ودراستها تبين لنا أن من قاموا بتأليفه فسَّروا الآيات التى وقع الخلاف فى تأويلها بالنظم أو القلب- فسَّروها بما يوافق نظمها القرآنى، وأنهم ساروا على الرأى القويم فى هذا التفسير؛ فجزاهم الله خير الجزاء.

★ ★ ★

(١) سورة النجم الآيتان : ٨ ، ٩ .

(٢) التفسير الوسيط. الحزب الثالث والخمسون: ١١٤٥.

(٣) جـ ٨: ص: ١١٠، ١١١ .

فالمانعون للقلب البلاغى فى تأويل بعض آيات القرآن الكريم كثير، وهم من علماء اللغة والنقد والبلاغة والتفسير . . . فقد فسروا هذه الآيات على النظم الذى جاءت عليه، وذلك بالتقديم والتأخير، أو المبالغة عملا بما يقتضيه النظم والسياق، كما فسروا الباء الجارة فى قوله تعالى: ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ﴾ على أنها للتعدية، أو الملابسة، وفى قوله تعالى: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾على الملابسة، أو المصاحبة. وهذا يفيد أن الاختلاط واقع بين كلٍّ من الماء والنبات بلا فرق، فينتفى التفسير بالقلب.

وذهب هؤلاء العلماء إلى أن اشتراك الطرفين فى المعنى أو الصفة يكون من دواعى التفسير بالنظم، وبذلك فسروا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ كما ذهبوا إلى المجاز فى تفسير عدد من الآيات القرآنية. ومن صريح أقوال هؤلاء العلماء :

١- إذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو أولى من أن يحمل على أنه مقلوب - (الفخر الرازى).

٢- ادعاء القلب على لفظ كتاب الله دون ضرورة تدفع إلى ذلك عجز وسوء نظر- (ابن عطية الأندلسى).

الفصل الثالث

أسباب الخلاف وأدلته بين المجيزين والمانعين للقلب البلاغى

المبحث الأول : أسباب الخلاف

ترجع أسباب الخلاف بين الفريقين إلى اختلافهم فى المراد بالكلمة، أو فى موقعها الإعرابى، وكذا فى مقدار الجملة ونهايتها. وإليك البيان:

أولا: الاختلاف فى المراد بالكلمة.

والمراد بالكلمة هنا: الفعل، أو الحرف العامل، فالاختلاف فى تفسيرها كان من أسباب التأويل بما يتفق مع النظم، أو القلب . وهذه أمثلة للبيان:

-١-

فى قوله تعالى حكاية عن سليمان -عليه السلام- للهدهد: **﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾** اختلف فى المراد بفعل الأمر: «تول» فمن فسره بالتولى إلى مكان قريب بحيث يتمكن الهدهد معه من النظر فى مراجعة بلقيس للملأ كان هذا التفسير يتفق مع نظم الآية الكريمة.

ومن فسره بالتولى إلى مكان بعيد، وحمل المعنى على أنه: اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم. فقد حمل المعنى على القلب.

يقول ابن جرير: «أى كن قريبا، فانظر ماذا يرجعون. وهذا القول أشبه بتأويل الآية؛ لأن مراجعة المرأة قومها كانت بعد أن ألقى إليها الكتاب. وما كان الهدهد لينصرف وقد أمر بأن ينظر إلى مراجعة القوم بينهم ما يتراجعونه قبل أن ينصرف بفعل ما أمره به سليمان»[1].

واختلف فى المراد بالضحك من قوله تعالى فى امرأة ابراهيم - عليه السلام: **﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾** فمن فسره على

(١) جامع البيان : المجلد التاسع: ٩٥.

الحقيقة كان تفسير الآية متفقا مع نظمها، ومن فسره بأنه: الحيض كان تفسير الآية على القلب البلاغي.

يقول ابن عطية: « قال مجاهد: معناه حاضت، وهذا القول ضعيف، قليل التمكن. وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب «ضحكت» بمعنى: حاضت، وقرره بعضهم، ورد الزجاج[١] قول مجاهد. وقال وهب بن منبّه ضحكت من البشارة بإسحاق..»[٢].

-٢-

والخلاف في تفسير الباء العاملة من أسباب الخلاف في التفسير بما يوافق النظم، أو القلب. عن جعلها للتعدية، أو الملابسة، أو المصاحبة كان تفسيره للآية متفقا مع النظم، ومن جعلها للسببية كان تفسيره على القلب.

- فالفراء يفسر قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾[٣] بقوله: «لَتُنِيءُ العصبة. أي: تميلهم من ثقلها»[٤] فالباء على هذا للتعدية وعلى هذا جرى جمهور العلماء.

ويقول الشيخ ابن عاشور (ت١٢٩٣هـ): «ويظهر أن الباء في قوله: «بالعصبة» باء الملابسة. أن تثقل مع العصبة الذين يحملونها؛ فهي لشدة ثقلها تثقل مع أن حملتها عصبة أولي قوة»[٥] فهذا التعليل يتفق مع التفسير بالنظم؛ لأن المتلابسين يقعان معا؛ فأيهما إذا قدِّم، أو أخر كان في موضعه، دون قلب.

وأما من فسر الباء على السببية فإنه قال: «ما إن العصبة ذوى القوة لتنوء بمفاتح نعمه»[٦]. وهذا على القلب البلاغي.

- وتبدو ثمرة هذا الخلاف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾[٧]. فمن العلماء من جعل

(١) معاني القرآن وإعرابه: ٤/١١٧.
(٢) المحرر الوجيز ٣/١٨٩، وانظر. مجمع البيان. المجلد الثاني ٢/١٨٨.
(٣) سورة القصص الآية: ٧٦.
(٤) معاني القرآن: ٢/١٠١.
(٥) التحرير والتنوير: ٢٠/١٧٦.
(٦) مجاز القرآن: ٢/١١٠.
(٧) سورة يونس الآية: ٢٤.

الباء فى قوله: «فاختلط به» للسببية، ومنهم من جعلها للمصاحبة.

يقول الألوسى: (أى : فكثر بسببه «نبات الأرض» حتى الْتفَّ بعضه ببعض، فالباء للسببية.

ومنهم من أبقاها على المصاحبة، وجعل الاختلاط بالماء نفسه، فإنه كالغذاء للنبات؛ فيجرى فيه، ويخالطه. والأول هو الذى يقضيه كلام ابن عباس رضي الله عنهما»[1].

فإذا فسر كثرة النبات بسبب الماء كان هذا على القلب ، وأما تفسير اختلاط الماء بالنبات على المصاحبة فهو تفسير بما يقتضيه نظم الآية الكريمة؛ لأن المتصاحبين يقعان معا فإذا سبق أحدهما الآخر فهو فى مكانه، فلا قلب بينهما.

ثانيا: الاختلاف فى المحل الاعرابى:

وكان هذا الاختلاف من أسباب التأويل بالنظم أو القلب، ويبدو هذا واضحا فى تأويل قوله تعالى: ﴿ **بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ** ﴾[2] فقد ذكر فيه إعرابان[3]:

الأول: الإنسان : مبتدأ، وبصيرة : خبره، و«على نفسه» متعلق ببصيرة.

الثانى: الإنسان : مبتدأ، وبصيرة : مبتدأ ثان، وعلى نفسه خبره وجملة المبتدأ الثانى وخبره خبر المبتدأ الأول، والعائد علّى المبتدأ الأول الضمير من «نفسه».

فالتفسير على الإعرابين تفسير يتفق مع نظم الآية؛ لأن التقديم والتأخير من بلاغة النظم، وله أسراره ومواقعه، ولكن ابن قتيبة ذكر الاعراب الأول وذلك على القلب، فقال: «أى : على الإنسان من نفسه بصيرة. يريد شهادة

---

(١) روح المعانى : ١١/ ١٠٠.

(٢) سورة القيامة الآية: ١٤.

(٣) انظر حاشية محيى الدين شيخ زادة : ٤/ ٥٨١.

جوارحه عليه»[١] ولذا اقتصر أبو جعفر النحاس[٢] على الاعراب الثانى.

- ومنه اختلاف إحدى القراءات مع القراءة المتواترة. فقد ذهب بعض العلماء إلى التأويل بالقلب فى القراءة الشاذة بنصب «آدم» ورفع «كلمات» من قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾. فقد أولت القراءة الشاذة على جعل التلقى للكلمات. أى على أنها الفاعل. وأما على القراءة المتواترة برفع «آدم» فإنه يكون فاعل التلقى، لا الكلمات.

يقول الزركشى فى « باب القلب»: «وجعل ابن الضائع منه: «فتلقى آدمُ من ربه كلمات». فآدم- صلوات الله على نبينا وعليه- هو المتلقى للكلمات حقيقة. ويقربُ أن ينسب التلقى للكلمات؛ لأن من تلقى شيئا، أو طلب أن يتلقاه؛ فلقيه كان الآخر أيضا قد طلب ذلك.. قال: ولقرب هذا المعنى قرئ بالقلب».

ثالثا: الاختلاف فى مقدار النص المفسَّر:

وهذا النوع - فيما قرأت - يبدو فى نص واحد، وهو قوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾[٥]؛ فعلى اعتباره جملة واحدة يكون التفسير بالقلب، وعلى اعتباره جملتان والثانية مبينة للأولى يكون التفسير متفقا مع نظمه ووضعه.

والمعنى: « كان الناس أمة واحدة» متفقين على دين الإسلام « فبعث الله النبيين» يريد: فاختلفوا؛ فبعث الله.. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[٦]. وقيل[٧]: كان الناس أمة واحدة كفاراً، فبعث الله النبيين؛ فاختلفوا عليهم. والأول الوجه»[٨].

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ١٧٣.

(٢) إعراب القرآن: ٥/٢٨.

(٣) سورة البقرة الآية: ٣٧.

(٤) البرهان: ٣/ ٢٩٠.

(٥) سورة البقرة الآية: ٢١٣.

(٦) سورة يونس الآية: ١٩.

(٧) هذا تفسير ابن عباس: المحرر الوجيز: ١/ ٢٨٦.

(٨) الكشاف: ١/ ٣٥٥.

وبين الفراء المعنى بقوله: «فهدى الله الذين آمنوا للإيمان بما أنزل كله وهو حق»[١] وبينه ابن عطية بقوله: «وقال الفراء: فى الكلام قلب واختاره الطبرى. قال[٢]: وتقديره: فهدى الله الذين آمنوا للحق مما اختلفوا فيه» ثم بين ابن عطية سبب هذا القلب بقوله: «ودعاه إلى هذا التقدير خوف أن يحتمل اللفظ أنهم اختلفوا فى الحق؛ فهدى الله المؤمنين لبعض ما اختلفوا فيه، وعساه غير الحق فى نفسه. نما إلى هذا الطبرى فى حكايته عن الفراء» ثم رد ابن عطية التأويل بالقلب؛ لأنه عجز وسوء نظر، وبين أنه يمكن التفسير بالنظم فقال:

«وذلك أن الكلام يتخرج على وجهه ورصفه؛ لأن قوله: «فهدى» يقتضى أنهم أصابوا الحق. وتم المعنى فى قوله: «فيه». وتبين بقوله: «من الحق» جنس ما وقع الخلاف فيه»[٣]. ولذا قدر الزمخشرى المعنى بقوله: فهدى الله الذين آمنوا للحق الذى اختلف فيه من اختلف[٤].

وعلى هذا تكون اللام فى «لِما» متعلقة بـ «الحق»، ويراد بالحق: الدين ويكون تأويل الفراء محمول على أن الكلام جملة واحدة. وأريد به القلب.

وعلى تفسير ابن عطية بأن المعنى تم عند قوله: «فيه» ثم تبين بقوله: «من الحق» جنس ما وقع الخلاف فيه» يكون هذا النص جملتين؛ إذ بتمام المعنى تتم الجملة وقد بين ابن عطية أن الكلام على هذا التأويل يتخرج على وجهه. أى يوافق المعنى النظم، دون قلب.

ويبين أبو السعود سر إبهام الحق، ثم تفسيره بعد بقوله: «وفى إبهامه أولاً وتفسيره ثانياً ما لا يخفى من التفخيم»[٥] ولا شك أن الشىء إذا برز فى صورتين مختلفتين نال حظا من العناية والتوكيد فثبت فى الفؤاد.

(١) معانى القرآن: ١/ ١٣١
(٢) جامع البيان. المجلد الأول: ١٩٣.
(٣) المحرر الوجيز: ١/ ٢٨٧.
(٤) الكشاف: ١/ ٣٥٥، ونقله أبو السعود فى تفسيره: ١/ ٢١٤.
(٥) تفسير أبى السعود: ١/ ٢١٥.

المبحث الثانى
أدلة المجيزين والمانعين

لكل من المجيرين للقلب البلاغى فى القرآن الكريم والمانعين له أدلة بنوا عليها تفسيرهم لهذه النصوص القرآنية، ولكن أدلة المانعين تعبر عن رأى صائب، وفكر ثاقب، وإدراك واع؛ ولذا كان رأيهم هو الرأى. وهذه الأدلة منها ما هو مشترك بين الفريقين. ومنها ما هو خاص بالمجيزين، ومنها ما هو خاص بالمانعين. وسنبين هذه الأدلة مشفوعة بالأمثلة والتوضيح.

أولا: أدلة مشتركة بين كل من المجيزين للقلب والمانعين:

١- الاستشهاد بكلام العرب:

استشهد المجيزون للقلب البلاغى بمأثور كلام العرب، فقد قاسوا عليه تأويل بعض النصوص القرآنية. وأعنى به من حيث طريقة التعبير والأداء فقط.

فأبو عبيدة يبين القلب فى قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى الْقُوَّةِ﴾. فيقول: «ومجازه: ما إن العصة ذوى القوة لتنوء بمفاتح نعمه. ويقال فى الكلام: إنها لتنُوء بها عجيزتُها، وإنما تنُوء بعجيزتِها كما ينُوءُ البعير بحمله. والعرب قد تفعل هذا...»[١].

ووجد المانعون للقلب البلاغى أيضا فى كلام العرب ما يؤيد ما ذهبوا إليه من التفسير بمقتضى النظم. فالزجاج يفسر قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ على المبالغة فى وصف الإنسان بالعجلة، ثم يقول: «والعرب تقول للذى يكثر الشىء: خلقت منه كما تقول: أنت من لعب، وخلقت من لعب. تريد المبالغة بوصفه باللعب»[٢].

(١) مجاز القرآن: ٢/ ١١٠.
(٢) معانى القرآن وإعرابه: ٢/ ٣٩٢.

٢- الاحتجاج بالواقع :

نقل ابن فارس عن بعض العلماء فى التعليل للقلب فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وهو : «والأصنام لا تعادى أحدا، فكأنه قال: فإنى عدوٌّ لهم. وعداوته لها: بغضه إياها، وبراءته منها»[1] والقاضى البيضاوى يفسر قوله تعالى: ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ بقوله: «ومنعناه أن يرتضع من المرضعات » ويعلل الشهاب الخفاجي تفسير هذا التحريم بالمنع؛ فيقول: «لأن الصبى ليس من أهل التكليف».

٣- اشتراك الطرفين فى المعنى :

والمراد بالطرفين : هما اللذان يقع بينهما التقديم والتأخير، أو القلب سواء كان ذلك فى جملة أو أكثر.

فابن قتيبة يحكى القلب فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وأورد ابن قتيبة لهذا نظائر من الشعر منها قول الحطيئة:

فلما خشيتُ الـهُون والعيرُ ممسكٌ على رُغمهِ ما أمسك الحبلَ حافرُه

وبينه بقوله:

« وكان الوجه أن يقول :ما أمسك حافره الحبلَ؛ فقلب؛ لأن ما أمسكته فقد أمسكك، والحافر ممسك للحبل، لا يفارقه مادام مربوطا، والحبل ممسك للحافر . . . »[2].

فقد احتج ابن قتيبة لهذا القلب باشتراك كل من الحبل والحافر فى الإمساك.

وابن سنان الخفاجى (ت ٤٦٦هـ) من المنكرين للقلب البلاغى فى القرآن

---

(١) الصاحبى: ٣٣٢، ونقله الزركشى فى البرهان: ٣/ ٢٩١. حاشية الشهاب الخفاجى: ٧/ ٦٦ وبالهامش (تفسير البيضاوى).

(٢) تأويل مشكل القرآن : ١٩٤ ، وانظر: الموازنة ١/ ٢١٩.

الكريم. وقد بين أن هذا الاشتراك لا يقتضى القلب، فهو دليل التأويل بالنظم؛ فبعد أن فسر آيتى «القصص»(١)، و«العاديات»(٢) قال:

فأما قول الحطيئة:

فلما خشيتُ الـهُون والْعيرُ ممسكٌ على رُغمه ما أمسك الحبلَ حافرُه

فقد قيل فيه: إن الحبل إذا أمسك الحافر فالحافر ايضا قد شغلَ الحبلَ؛ فعلى هذا ليس بمقلوب.

وكذلك قول أبى النجم:

قبل دنوِّ الأُفق من جوزائهِ

لأن الجوزاء إذا دنت من الأفق فقد دنا منها»(٣).

والزجاج بين ن هذا الاشتراك دليل من فسر النص على مقتضى النظم؛ ففى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ يقول:

«ومعنى «دنا» و«تدلى» واحد؛ لأن المعنى: أنه قرب، و«تدلَّى»: زاد فى القرب، كما تقول: قد دنا فلان وقرب. ولو قلت: قد قرب منى ودنا جاز»(٤).

ثانيا: أدلة خاصة بالمجيزين للقلب البلاغى:

١ - الاستشهاد على نظم آية بآية أخرى. وذلك من حيث المعنى فأبو البقاء يتبع قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ بقوله: «وفى موضع آخر ﴿بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ﴾. والمعنى واحد؛ لأن ما بلغك فقد بلغته فقد استشهد على تقدير القلب فى آية «آل عمران» بنظم آية «مريم»(٥) وذلك من حيث المعنى.

---

(١) قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ ٧٦.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾: ٨.

(٣) سر الفصاحة: ١٠٦.

(٤) معانى القرآن واعرابه: ٥/ ٧٠.

(٥) التبيان فى إعراب القرآن. القسم الأول: ٢٥٨.

٢- الاستشهاد على تقـدير القلب فى آية بتقديره فى آية أخرى. يقول ابن جرير: «حدثنا المثنى قال: حدثنا إسـحاق بن يوسف بن جويبر عن الضحاك فى قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[1]: لكل كتاب ينزل من السمـاء أجل؛ فيمحو الله من ذلك ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

قـال جـعفـر: وهذا القـول نظيـر قـول الله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾[2] وكان أبو بكر -رحمه الله- يقرؤه: وجاءت سكرة الحق بالموت.

٣- النظر عند التأويل إلى النص دون اعتبار أى نوع من المجاز.

على هذا فسـر المجيزون قـوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ بقولـه: «إذا استعـذت بالله فاقـرأ. بينما حـمله المانعون للقلب عـلى المجاز المرسل. أى: إذا اردت قراءة القرآن..

ثالثا: أدلة المانعين للقلب:

وأدلة هؤلاء كثيرة؛ فقد ناهضـوا المجيزين للقلب البلاغى فى القرآن وبينوا خطأهم بالأدلة والحجج، وكانوا فى الانتصار لا ذهبوا إليه من التفسير بالنظم هادئين حينا، وثائرين، وناقدين أحيـانا أخرى. وكما قلت: إن رأى المانعين لهذا القلب فى القرآن هو الرأى.

وهذه ادلتهم فى إيجاز.

١- امكان التأويل بما يوافق النظم القرآنى:

أفاض العلماء فى هذا الدلـيل، وبينوا أنه إذا أمكن تأويل الـنص القرآنـى بما يتفق مع نظمه، فلا داعى إلى القلب. وهذه أمثلة منها:

ذكر الإمام الرازى وجوها من التأويل فى قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ

---

(١) سورة الرعد الآية: ٣٨.

(٢) سورة ق الآية: ١٩. جامع البيـان. المجلد الرابع: ١٣/١١١، وانظر. معانى القرآن: ٢/٦٥، ٦٦.

عَجَلٍ﴾ وقد بدأها بالمبالغة، وثنى بالقلب. ثم قال:

«والقول الأول الأقرب إلى الصـواب، وأبعد الأقوال هذا القلب؛ لأنه إذا أمكن حمـل الكلام على معنى صـحيح وهو على ترتيـبه فـهو أولى من أن يحمل على أنه مقلوب»[1].

ويرد أبو حيان على من أجاز القلب في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ثم يقول:

« ولا ينبغى حمل القرآن على القلب.. وإذا كان المعنى صـحيحا واضحا مع عدم القلب فأى ضرورة تدعو إليه[2]»؟

والزمخشرى يفسر قوله تعالى: ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِى هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ بقوله: «تنحَّ عنهم إلى مكان قريب، تتوارى فـيه؛ ليكون ما يقولونه بمسمع منك»[3].

فقد فسر التولى بمالا يحوج إلى القلب.

٢- حمل المعنى على التقديم والتأخير.

ذهب كثير مـن العلماء إلى التأويل بالتقديم والتأخـير فى عدد من الآيات التى عدَّها البعض من القلب. والتـقديم والتأخير من البلاغـة فى الصميم، ولهذا المبـحث أسراره ولطائفه فى البـيان العربى، والتـأويل به من التفسـير بالنظم.

فابن الأنبـارى عَدَّ قـوله تعالى: ﴿ اذْهَب بِّكِتَـابِى هَذَا ...﴾ الآية مـن التقديم والتأخير، لا القلب»[4].

(١) التفسير الكبير. المجلد العاشر: ١٤٩/٢٠
(٢) البحر المحيط: ٨ / ٦٣.
(٣) الكشاف: ١٤٥/٣.
(٤) الأضداد: ١١١.

واستحسن الزجاج التقديم والتأخير فى الآية وقال: «والتقديم والتأخير كثر فى الكلام»(١).

ونقل القرطبى عن بعض العلمــاء أن قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ من التقديم والتأخير، وأن المعنى: لكل كتاب أجل»(٢).

ولما قال الواحدى بالقلــب فى قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ ردَّ عليه الفخر الرازى بأنه من التقديم والتأخير»(٣).

ويطول بنا المقــام إذا تتبعنا مــا قاله العلماء فى هــذا المعنى، وفيمــا ذكرناه كفاية.

٣- حمل المعنى على المبالغة:

ردَّ كثير من العلماء على من قال بالقلب فى تأويل بعض الآيات بأن المعنى محمول على المبالغة.

فالشريف المرتضى يبين أن وصف الإنسان بالمصدر فى قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ محمول على المبالغة.. ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾(الإسراء: ١١).

وقال السَّمين الحلبى: «وصف -تعالى- الإنسان الذى هو اسم الجنس بأنه خلق من عجل. وهذا على وجه المبالغة، كما تقول للرجل البطَّال: أنت من لعب ولهو»(٤).

٤- التأويل بالتشبيه:

التشبــيه من الحقيقــة ؛ لأن كلا طرفيه مســتعمل فى معناه الحــقيقى، وفى التشبــيه ادعاء اتصاف المشــبه بأظهر صفــات المشبه به، وقد يدعــى اتحادهما وذلك فى التشبيه البليغ.

---

(١) معانى القرآن وإعرابه : ٤/ ١١٧.
(٢) الجامع لاحكام القرآن . المجلد السابع: ١٢/ ١٦٣.
(٣) التفسير الكبير. المجلد التاسع: ١٧/ ١٤٠.
(٤) الدر المصون فى إعراب الكتاب المكنون : ٥/ ٨٥.

ومن ذلك أنه حمل كثير من المفسرين قوله تعالى حكاية عن ابراهيم -عليه السلام- فى الأصنام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ على التشبيه البليغ.

يقول الألوسى: «فإطلاق العدو عليهم من باب التشبيه البليغ»[1].

وبينه الشيخ ابن عاشور بقوله: «أى: هم كالعدو فى أنى أبغضهم وأخزهم، وهذا قريب من قوله تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾. أى: عاملوه معاملة العدو»[2]. فالتفسير بالتشبيه يناسب نظم الآية الكريمة. ويبعد عن القلب.

٥- حمل المعنى على المجاز:

والقول بالمجاز فى تفسير كثير من هذه الآيات ردده جمهور المفسرين للقرآن الكريم، وعلماء اللغة، وشغل هذا حيزا كبيرا فى مؤلفاتهم، وهو لون من التفسير بالنظم.

ففى قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ قدرت الإرادة ونحوها فقيل: إذا أردتم، أو أردت، أو أردنا وهذا على المجاز المرسل بالتعبير بالمسبب عن السبب بعلاقة المسببية كما سبق.

وفى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ينقل القاضى البيضاوى قول الزمخشرى: «يعذبون بها. وقيل: تعرض النار عليهم؛ فقلب مبالغة» فيبين الشهاب الخفاجى التأويل الأول؛ فيقول: «قوله: يعذبون بها» يعنى أن عرضهم على النار إما مجاز عن تعذيبهم من غير قلب، فهو كقولهم: عرض الأسارى على السيف: إذا قتلوا به كما مر»[3].

---

(١) روح المعانى: ١٩ / ٩٤.

(٢) تفسير التحر والتنوير: ١٩/ ١٤٠، وما ذكره مأخوذ من الكشاف: ٣/ ١١٧.

(٣) حاشية الشهاب الخفاجى. المجلد الثامن: ٣٣.

فيكون شبه التعذيب بالعرض على السيف لهذا الغرض، لأنه بداية العذاب ثم استعير العرض على السيف لهذا المعنى بجامع الألم البليغ، واشتق منه «يعرض» على سبيل الاستعارة التبعية.

وجعله الشهاب الخفاجي في موضع آخر من الاستعارة التمثيلية. ففي قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[١] ينقل قول القاضي: «عرضهم على النار إحراقهم بها من قولهم: عرض الأسارى على السيف إذا قتلوا به وذلك لأرواحهم..» ثم يعلق بقوله:

«.. والظاهر أنه مجاز، ولا حاجة إلى دعوى القلب فيه فعرضهم على النار وعرضه على السيف استعاة تمثيلية بتشبيههم بمتاع يبرز لمن يريد أخذه، وجعل السيف والنار كالطالب الراغب فيهم؛ لشدة استحقاقهم للهلاك»[٢].

فالمجاز اللغوى من أدلة المتأولين لبعض الآيات بما يتفق مع نظمها القرآني، وفي كتب التراث من ذلك الكثير.

٦- عدم اطراد القلب في تفسير بعض الآيات:

وبيان ذلك أن الشأن في القواعد والمصطلحات العلمية أن تكون مطردة فلا تتخلف في بعض الأمثلة... وقد رد أبو حيان على من فسر قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ بالقلب، فقال: «... المعنى في غاية الصحة بلا عكس ولا قلب. بل ادعاء القلب هنا لا يصح المعنى عليه، إذ ثم أشياء كتبها الله -تعالى- في أزليته كالجنة والنار، ونعيم أهلها، لا آجال لها» فهذه -بفضل الله- باقية، ومن ثم انتقض التفسير بالقلب البلاغي.

هذه مجمل أدلة المانعين للقلب البلاغي في الكتاب العزيز، وهي تعبر عن صواب الرأى، وعمق الفهم، وبعد النظر؛ ولذا كان رأيهم هو الرأى.

---

(١) سورة غافر الآية: ٤٦.

(٢) المرجع السابق. المجلد السابع: ٣٧٥.

الفصل الرابع

مع المجيزين والمانعين للقلب البلاغى فى القرآن

تحليل ومناقشة وتقويم

تبين مما سبق أن لكل من الفريقين طريقته فى التفسير، وأدلته فى توجيه المعنى.

والمتأمل فى ذلك يرى أن أدلة المجيزين للقلب لا تقف أمام أدلة المانعين، فأدلة المانعين تلائم النظم والسياق، وهى جدّ قريبة، وبعيدة عن الغموض. وقد ساعدهم على هذا تمكنهم من اللغة والبيان. فقد وجدوا فى تفسير بعض المفردات، وفى ألوان البيان من تقديم وتأخير، وتشبيه ومجاز وكناية إلخ ما يؤيد ما ذهبوا إليه من التفسير بما يقتضيه النظم القرآنى.

وكان ردُّ المانعين لهذا القلب هادئا حنيا، وعنيفا بل وسخرية من المجيزين له أحيانا أخرى؛ فرأى المانعين للقلب البلاغى هو الرأى وهو الصواب.

وأقول : إن كلا الفريقين يتسم بسلامة القصد، وحسن النية ، وبذل الجهد فى خدمة الكتاب العزيز، فالكل قد اجتهد. والمجتهد مثاب من الله ما أخلص النية وكان هدفه خدمة هذا الكتاب الخالد. . فجزاهم الله خير الجزاء.

وفى هذا الفصل مبحثان :

الأول : نصوص قرآنية فى ميدان هذه الدراسة التطبيقية .

الثانى : الأغراض البلاغية للتفسير بالنظم والقلب .

المبحث الأول

نصوص قرآنية فى ميدان الدراسة التطبيقية

الآية الأولى

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٣٧) هذه الآية الكريمة فى سياق ابتلاء «آدم» عليه السلام، وما كان من إغواء إبليس له هو وزوجه بالأكل من الشجرة، وما ترتب عليه من الخروج من الجنة، ثم ما كان بعد من توبة الله عليه. قال تعالى:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة الآيتان: ٣٥، ٣٦. وقد اختلفت الآراء فى تعيين الشجرة التى نهى الله -تعالى- آدم وزوجه عن الأكل منها. والأولى ما ذكره ابن جرير بقوله: «والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله - جل ثناؤه- نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، فأكلا منها، ولا علم عندى بأى شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن، ولا من السنة الصحيحة». جامع البيان: المجلد الأول: ١٩٣ - فالأولى تفويض علم ذلك إلى الله وحده ومعرفة الشجرة بعينها لا يفيدنا فى كنه القصة، وفى العبر المستفادة منها.

واختلفت الروايات فى الكلمات التى كانت سببا فى قبول توبة آدم وزوجه ولعل أقواها ما دواه ابن كثير بقوله: «وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: يا رب. أرأيت إن تبت وأصلحت؟

قال الله: إذن أرجعك إلى الجنة فهى من الكلمات.

ومن الكلمات أيضا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(الأعراف: ٢٣). تفسير القرآن العظيم. المجلد الأول: ١١٦، وانظر جامع البيان. المجلد الأول: ١٩٤ والبحر المحيط: ١/ ١١٦، والمحرر الوجيز: ١/ ١٣٠.

وفى هذه الآية قراءتان[١] :

الأولى: برفع «آدم» على أنه الفاعل ونصب «كلمات» وهى قراءة الجمهور.

الثانية: بنصب «آدم» ورفع «كلمات» على أنها الفاعل وهى قراءة «ابن كثير».

والمعنى على القراءة الأولى : «ألقى الله فى روع آدم أن يتوسل إليه بكلمات ألهمه إياها؛ ليتوب الله عليه؛ فاستقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حينما تعلمها»[٢] .

يقول أبو عبيدة : ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أى : قبلها، وأخذها عنه»[٣] .

ووجه الزمخشرى معنى الآية على القراءتين بقوله: «معنى تلقى الكلمة: استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها.

وقرئ بنصب «آدم» ، ورفع الكلمات على أنها تقبلته بأن بلغته، واتصلت به»[٤] .

فالمعنى على القراءتين موافق لنظم الآية الكريمة.

وقال الزركشى فى حديثه عن القلب: «وجعل ابن الضائع منه : ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: فآدم - صلوات الله على نبينا وعليه - هو المتلقى للكلمات حقيقة. ويقرب أن ينسب التلقى للكلمات؛ لأن من تلقى شيئا، أو طلب أن يتلقاه؛ فلقيه كان الآخر أيضا قد طلب ذلك؛ لأنه قد لقيه. قال: ولقرب هذا المعنى قرئ بالقلب»[٥].

(١) البحر المحيط : ١/١٦٥ .
(٢) التفسير الوسيط. الحزب الأول : ٨٢ .
(٣) مجاز القرآن : ١/٣٨ .
(٤) الكشاف : ١/ ٢٧٤ .
(٥) البرهان فى علوم القرآن ٣ / ٢٩٠ .

فقوله: «ويقرب أن ينسب التلقى للكلمات» إشارة إلى قراءة ابن كثير.

وعارض جمهور العلماء هذا القلب استناداً إلى تفسير معنى: التلقى.

يقول الفراء: «(آدم) مرفوع، والكلمات فى موضع نصب وقد قرأ بعض القراء: فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ؛ فجعل الفعل للكلمات. والمعنى -والله أعلم- واحد؛ لأن ما لقيك فقد لقيته، وما نالك فقد نلته»(١).

وقد كان لتوجيه الفراء أثره عند كثير من العلماء. فابن الانبارى (ت ٥٧٧هـ) يقول فى هذه الآية الكريمة:

«... وإسناد الفعل -تلقى- إلى كل واحد منهما جائز كإسناده إلى الآخر. ألا ترى أنك تقول: تلقيتُ الحديث، وتلقانى الحديثُ؛ فيكون كل جائز؛ لأن كل ما تلقيته فقد تلقاك»(٢).

ويقول الرازى فى الردّ على من قال بالقلب: «... وإذا كان هذا أصل الكلمة، وكان من تلقى رجلا؛ فتلاقيا، لقى كل منهما صاحبه، فأضيف الاجتماع إليهما معا صلح أن يشتركا فى الوصف بذلك؛ فيقال: كل من تلقيته فقد تلقاك؛ فجاز أن يقال: تلقى آدم كلماتٌ. أى أخذها ورعاها واستقبلها بالقبول.

وجاز أن يقال: تلقى كلماتٌ بالرفع على معنى: جاءته من الله كلمات»(٣).

ويقول أبو البقاء: «يقرأ برفع «آدم»، ونصب «كلمات»، وبالعكس؛ لأن كل ما تلقاك فقد تلقيته»(٤).

ويسهب محيى الدين شيخ زادة فى بيان هذا المعنى ثم يقول: «قال الإمام

(١) معانى القرآن: ١/ ٢٨.

(٢) البيان فى إعراب القرآن: ١/ ٧٥.

(٣) التفسير الكبير. المجلد الثانى: ٣/ ١٩.

(٤) التبيان فى اعراب القرآن. القسم الأول: ٥٤.

الواحدى : وذلك أن من الأفعال ما يكون إسناده إلى ـعـعن كإسناده إلى المفعول. وذلك نحو : أصبتُ ونلتُ ولقيتُ. تقول: نالنى خيرٌ، ونلتْ خيراً، وأصابنى خيرٌ، وأصبت خيراً. . وإذا كان معانى هذه الأفعال على ما ذكرنا كان نصب «آدم» ورفع الكلمات كرفع آدم ونصب الكلمات من حيث المعنى»[١].

ويقول أبو حيان : «وقرأ الجمهور برفع آدم ونصب الكلماتٌ، وعكس ابن كثير. ومعنى تلقى الكلمات لآدم: وصولها إليه؛ لأن من تلقاك فقد تلقيته فكأنه قال: فجاءت «آدمُ» من ربه «كلماتٍ»[٢].

فإذا كان كل من الطرفين : آدم، وكلمات اشتركا فى التلقى فإنه لا يحكم بالقلب فى قراءة ابن كثير، وإن التاويل عليها يتفق مع نظم الآية الكريمة. وهذا ما ذهب إليه جمهور علماء اللغة والبيان والتفسير. غير أن القراءة برفع «آدم» هى المتواترة، والأخرى شاذة.

يقول ابن جرير بعد أن بين معنى التلقى : «. . غير جائز عندى فى القراءة إلا رفع «آدم» على أنه المتلقى؛ لإجماع الحجة من القراء وأهل التأويل من علماء السلف والخلف على توجيه التلقى إلى «آدم» دو الكلمات. وغير جائز الاعتراض عليها فيما كانت عليه مجمعة بقول من يجوز عليه السهو والخطأ»[٣].

ويقول الزجاج : «وقرأ ابن كثير : فتلقى آدم من ربه كلمات والاختيار ما عليه الإجماع، وهو فى العربية أقوى؛ لأن آدم تلقى هذه الكلمات؛ فقيل: تلقى هذه الكلمات. والعرب تقول: تلقيت هذا من فلان؛ المعنى : فهمى قبلهُ من لفظه»[٤].

---

(١) حاشية محيى الدين شيخ زادة : ١/ ٢٦٩ . (٢) البحر المحيط : ١/ ١٦٥ .
(٣) جامع البيان فى تفسير القرآن . المجلد الأول : ١٩٣ .
(٤) معانى القرآن وإعرابه : ١/ ١١٦ .

الآية الثانية

وقريب من التـأويل فى الآية الأولى التأويل فى قولـه تعالى: حكاية عن زكريا -عليه السلام- ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ﴾(١)؛ فهو يفيـد تعجب زكريا -عليه السلام- من بشارة الملائكة له بإنجابه بعـد فوات الأوان، ووجود الموانع؛ فقد كـانت سنه - على ما روى ابن عـباس- مـائة وعـشرين سنة وقـيل : تسع وتسعون سنة، ولامرأته ثمان وتسعون، وكذلك يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة(٢).

وقد فسـر العلماء هذا النص الكريم بما يتفق مع نظمه، كمـا فسر بالقلب البلاغى .

(أ) فأبو عبيدة يفسره بالقلب، فيقول: « ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ﴾ أى : بلغت الكبر. والعـرب تصنع مثل هذا. تقول: هذا القـميص لا يقطعنى. أى أنت لا تقطعهُ. أى أنه لا يبلغ ما أريد من تقدير»(٣).

فقد فسره أبو عبيدة على القلب، واستشهد بكلام العرب.

ويقول ابن قتيبة :

« ومن المقلوب : أن يقدم ما يوضحه التأخير، ويؤخر ما يوضحه التقديم» ويضرب لذلك أمثلة كثيرة من القرآن الكريم، ومن كلام العرب ومنها قوله :

« قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ﴾ أى : بلغتهُ »(٤).

---

(١) قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(آل عمران: ٤٠).

(٢) انظر الكشاف : ٤٢٨/١ ، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم. الحزب السادس: ٥٦٣ .

(٣) مجاز القرآن : ٩٢/١ .

(٤) تأويل مشكل القرآن : ١٩٣-١٩٥ .

ويقول الزركشى فى مبحث «القلب»:

«وقوله . . ، ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أى: بلغت الكبر»[١]. وذلك أن الإنسان هو الذى يبلغ الكبر، لا العكس.

(ب) وفسَّر الجمهور هذا النص بما يتفق مع نظمه.

– فابن جرير يقول: « ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ وقد قال فى موضع آخر ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[٢]؛ لأن ما بلغك فقد بلغته، وهو كقول القائل: قد بلغنى الجهدُ بمعنى: إنِّى لفى جهد»[٣].

فقد استشهد بالآية الثانية على الأولى من حيث المعنى وذلك مع اختلاف النظم فيهما واشتراك كل من زكريا، والكبر فى صفة البلوغ وكان ذلك هاديا إلى التفسير بما يتفق مع نظم الآية.

– ويستشهد الزجاج بالآية الثانية على الأولى ثم يقول: «. . وكل شىء صادفته وبلغتهُ فقد صادفك وبلغك»[٤].

– ويقول الإمام الرازى:

« قال أهل المعانى: كل شىء صادفته وبلغته فقد صادفك وبلغك، وكلما جاز أن يقول: بلغتُ الكبر جاز أن يقول: بلغنِىَ الكبرُ. يدل عليه قول العرب: لقيتُ الحائطَ، ولقينى الحائطُ»[٥].

– وفسر الزمخشرى البلوغ فى الآية بالتأثير – وهذا على المجاز العقلى–

---

(١) البرهان فى علوم القرآن: ٣ / ٢٩٠.
(٢) سورة مريم الآية: ٨.
(٣) جامع البيان فى تأويل القرآن؛ المجلد الثالث: ١٨، وانظر التبيان فى إعراب القرآن. القسم الأول: ٢٥٨.
(٤) معانى القرآن وإعرابه: ١/ ٤٠٨.
(٥) التفسير الكبير. المجلد الرابع: ٨/ ٣٤.

فالفعل من جانب الكبر فقط. وبذلك تفادى التفسير بالقلب، وسار فى أثره القاضى البيضاوى.

فالزمخشرى يقول: « ﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ كقولهم: أدركتهُ السِّن العالية. والمعنى: أثر فِيَّ الكبرُ؛ فأضعفَنى.. »[1].

- ويقول القاضى: « أدركنى كِبرُ السِّن، وأثَّر فِيَّ »[2].

ويتضح مما سبق أن أدلة المفسرين بالنظم أكثر وأقوى ورأيهم هو الرأى.

★ ★ ★

الآيتان: الثالثة والرابعة

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ (مريم: ٦).

٢- وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (النحل: ٩٨).

فسر جمهور العلماء هاتين الآيتين على ما يقتضيه نظمهما القرآنى، وذلك بتقدير الإرادة، أو التشمير، أو العزم على القيام إلى الصلاة قبل فعلها، وهذا على المجاز المرسل بعلاقة: المسببية كما صرح به كثير من العلماء. وكذا بتقدير الإرادة فى آية «النحل»، أو حمل المعنى على التقديم والتأخير، كما فسرها عدد قليل بالقلب البلاغى.

وقرنت البحث فى هاتين الآيتين لاتفاقهما فى تقدير الإرادة، ولأن كلا منهما ترد شاهدا للأخرى من حيث التأويل بالنظم.

---

(١) الكشاف: ١ / ٤٢٨، وفسر الزمخشرى بلوف الكبر فى سورة مريم بأنه: «اليبس فى المفاصل والعظام؛ فيصير كالعود القاحل». الكشاف: ٢/ ٤٢٨.

(٢) تفسير القاضى البيضاوى. هامش (حاشية الشهاب. الخفاجى): ٣ / ٣٤.

وسأبين فى هذا المقام آراء عدد من العلماء.

يقول أبو عبيدة : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ مقدم ومؤخر؛ لأن الاستعاذة قبل القراءة»[1]. وللقديم والتأخير بلاغته وأسراره فى النظم القرآنى.

ويقول الزجاج فى هذه الآية : «معناه : إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. ليس معناه: استعذ بالله بعد أن تقرأ. وهو مستعمل فى الكلام مثله: إذا أكلت فقل: (بسم الله)، ومثله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ . فالهيئة -التهيؤ- قبل الصلاة. والمعنى إذا أردتم ذلك فافعلوا»[2].

وتأثر كثير من العلماء بما قاله الزجاج .

– فالإمام الطبرسى يقول فى آية النحل « إذا اردت يا محمد قراءة القرآن فاستعذ بالله من شر الشيطان المرجوم المطرود الملعون: وهذا كما يقال: إذا أكلت فأغسل يديك ، وإذا صلَّيت فكبِّر ، ومنه: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[3].

ويقول الزمخشرى : فى آية النحل:« فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ كقوله : ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ وكقولك : إذا أكلت فسمِّ الله».

ثم بين وجه التجوز بقوله:

فإن قلت: لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل ؟

قلت: لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه فكان

---

(١) مجاز القرآن : ١/ ٢٦٨ .

(٢) معانى القرآن وإعرابه : ١/ ٢١٨ .

(٣) مجمع البيان: ١٤/ ١٢٠ .

منه بسبب قوى، وملابسة ظاهرة»[١] فهذا إشارة إلى علاقة المسببية.

ويقول المنتجب الهمذانى: « ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى إذا أردت قراءة القرآن، كقولك: إذا أكلت فسمِّ الله»[٢].

وفى تفسير آية «المائدة» يقول الرازى: «المراد: إذا شمرتم للقيام إلى الصلاة، وأردتم ذلك»[٣].

ولكنه فى تفسير آية «النحل» يتأثر كثيرا بالزجاج، ثم يستطرد؛ فيرد على «الواحدى» الذى ذهب إلى أن قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾[٤] من المقلوب. فهو عنده من التقديم والتأخير، لأن تقديم الضمير من «يردك» لغرض بلاغى هو: زيادة العناية، وذلك أنه يدل على أن المقصود هو الإنسان، وسائر الخيرات مخلوقة لأجله[٥].

ويفسر كل من الرازى[٦]، وأبى السعود[٧]، والقاسمى[٨] آية «النحل» بتقدير الإرادة. وتأثر ابن عطية[٩] فى تفسير آية «النحل» بالزجاج فبين أن المعنى على تقدير السبب قبل المسبب، ثم استشهد على هذا بآية «المائدة».

وممن صرح ببيان نوع المجاز وعلاقته فى الآيتين الكريمتين:

١- الألوسى فهو يقول فى آية «النحل»:

---

(١) الكشاف ٢/٤٢٨.
(٢) الفريد فى اعراب القرآن المجيد. المجلد الثالث: ٢٤٦. د/ فؤاد على مخيمر.
(٣) التفسير الكبير. المجلد السادس: ١١/١١٨.
(٤) سورة يونس الآية: ١٠٧
(٥) انظر ص٤١، والتفسير الكبير. المجلد العاشر: ١٤/١١٩.
(٦) انظر التفسير الكبير. المجلد الرابع: ٥٢٢.
(٧) تفسير أبى السعود: ٥/١٣٩.
(٨) تفسير القاسمى: ٦/٨٧٧.
(٩) المحرر الوجيز: ٣/٤٢٠.

« أى : إذا أردت قراءة القرآن فاسأله -عزجاره- أن يعيذك من وساوس الشيطان الرجيم، كى لا يوسوسك فى القراءة؛ فالقراءة مجاز مرسل عن إرادتها، إطلاقا لاسم المسبب على السبب»[1].

٢- الشوكانى، فهو يقول آية : «المائدة»:

« إذا أردتم القيام، تعبيرا عن المسبب بالسبب، كما فى قوله: « **إذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** »[2]، وهو يتبع قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**﴾[3] بقوله: «إذا أردتم تطليقهن»[4].

٣- السمين الحلبى ؛ فهو يقول فى آية «المائدة»:

«وهو من إقامة المسبب مقام السبب، وذلك أن القيام متسبب عن الإرادة، والارادة سببه»[5].

٤- ويزيدنا الشيخ الطاهر بن عاشور على ما سبق الاهتداء إلى القرينة؛ فيقول:

«ومعنى ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ**﴾ : إذا عزمتم على الصلاة؛ لأن القيام يطلق فى كلام العرب بمعنى الشروع فى الفعل . قال الشاعر:

فقام يذودُ الناس عنها بسيفه   وقال: ألا لا مِنْ سبيلٍ إلى هندِ

وعلى العزم. . والقيام هنا كذلك بقرينة تعديه بـ «إلى» ؛ لتضمنه معنى: عمدتم إلى أن تصلُّوا. . »[6].

---

(١) روح المعانى : ١٢ / ٢٢٨ .
(٢) فتح القدير : ٢/ ٢٥ .
(٣) سورة الطلاق الآية : ١ .
(٤) المرجع السابق : ٥/ ٣٣٧ .
(٥) الدر المصون : ٢/ ٤٩٢ .
(٦) التحرير والتنوير : ٦ / ١٢٨ .

ويزيدنا ابن هشام فى هذا المقام فائدة أخرى، وهى أن تقدير الإرادة يكون بعد أداة الشرط، ويورد لذلك شواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف، فيقول:

«وأكثر ما يكون ذلك بعد أداة الشرط نحو: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ ، ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ . .»[١].

وفسر ابن جنى آية «النحل» على المجاز المرسل -كما سبق- ثم هون من تفسيرها بالقلب؛ إذ لا ضرورة تدعو إليه.

هذا إلى أن القلب غير مطرد المعنى عند تفسير الآية؛ فقد يستعيذ المؤمن بالله من سماع منكر، أو رؤيته، أو فعله، فلا تلازم إذاً بين الاستعاذة وقراءة القرآن. ومما قاله ابن جنى: «. . وهذا أولى من تأويل من ذهب إلى أنه أراد: فإذا استعذت فاقرأ؛ لأن فيه قلبا، لا ضرورة بك إليه، وأيضا فإنه ليس كل مستعيذ بالله واجبة عليه القراءة. .»[٢].

وقد اشار الزركشى[٣] إلى القلب فى آية «النحل».

والخلاصة : أنه لا يجوز تفسير آية «النحل» بالقلب البلاغى ، وإن تفسيرها بالتقديم والتأخير، وكذا تفسيرها هى، وآية «المائدة» بالمجاز المرسل لعلاقة «المسببية» هو الصواب؛ لأنه يتفق مع النظم القرآنى.

---

(١) انظر ص١١٧ .
(٢) انظر ص٨٥ .
(٣) البرهان : ٣ / ٢٩٢ .

الآية الخامسة

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ .

وهو من الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (الرعد: ٣٨) .

يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية :

« كان الرسل قبله بشراً مثله ذوى أزواج وذرية، وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم، ولا يأتون بما يقترح عليهم والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات؛ فلكل وقت حكم يكتب على العباد. أى يفترض عليهم ما يقتضيه»[١] .

وذكر الألوسى أن اختلاف الشرائع للأمم إنما هو حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية، وأنه كاختلاف العلاج حسب اختلاف المرض بحسب الأوقات[٢] .

وأما قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ فالجمهور يفسره بما يتفق مع النظم كما سبق في قول كل من الزمخشري والألوسى .

وفسره قليل من العلماء بالقلب.

– فالفراء يقول : «جاء في التفسير : لكل كتاب أجل»[٣] وهو تفسير الضحاك بن مزاحم، وهو على القلب.

ويذكر الإمام الطبرسي وجوها في تفسير هذا النص الكريم ، ومنه قوله :

«والثالث : أنه من المقلوب. والمعنى: لكل كتاب ينزل من السماء أجل ينزل فيه. عن ابن العباس والضحاك»[٤].

– والحافظ ابن كثير يفسره على النظم ثم يقول : «وكان الضحاك

(١) الكشاف : ٢/ ٢٦٣ .

(٢) انظر روح المعانى : ١١/ ٦٩ .

(٣) معانى القرآن : ٣ / ٧٨ .

(٤) مجمع البيان . المجلد الرابع : ١٨٥ .

ابـن مزاحم يقول: أى لكل كتاب أجل»[١].

ويذكـر الإمام الرازى فى تفـسيـره خمـسة آراء يـبدؤها بالنظم ثم يذكـر القلب، ومن ذلك قوله:

«الأول : أن لكل شىء وقتا مقدراً ، . . .

والثالث : أن هذا من المقلوب. والمعنى: أن لكل كتاب منزل من السماء، أجلا ينزل فيه. أى لكل كتاب وقت يعمل به؛ فوقتٌ العمل بالتوراة والإنجيل قد انقضى، ووقتٌ العمل بالقرآن قد أتى وحضر»[٢].

ووضع أبو حـيان الحق فى نصـابه حيث فـسر النص الكريم بما يتـفق مع نظمه، ثم اتبعه بالتفسير بالقلب ونقده فقال :

« . . . وقال الضحاك والفراء : لكل كتاب أجل .

« ولا يجوز ادعاء القلب إلا فى ضرورة الشعـر. أما هنا فالمعنى فى غاية الصحة بلا عكس ولا قلب، بل ادعاء القلب هنا لا يصح المعنى عليه؛ إذ ثم أشيـاء كتبهـا الله -تعالى- فى أزليتـه كالجنة والنار ، ونعيم أهلهـا لا آجال لها»[٣].

وقول أبى حيان : «بل ادعـاء القلب هنا لا يصح المعنى عليه الخ» معناه : أن القلب لا يصح تفسير الآية عليه ، لأنه غير مطرد بدليل أن الجنة والنار لا آجال لهما» .

فـهذا يتـفق مع ما مـضى من قول جنى لـرد القلب. فى قولـه تعـالـى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ حيث قـال: « . . . وأيضا فـإنه ليس كل مستعيذ بالله واجبة عليه القراءة» .

(١) تفسير القرآن العظيم. المجلد الرابع: ١٨٩ .
(٢) التفسير الكبير. المجلد العاشر: ١٩/٥١ .
(٣) انظر ص١١٤ ، والبحر المحيط . المجلد الخامس: ٣٩٧ .

الآية السادسة

قوله تعالى:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ (الأعراف : ٤).

(كم) خبرية بمعنى : كثيرا. قال الراغب: والقرية : اسم للموضع الذى يجتمع فيه الناس وللناس جميعا، ويستعمل فى كل واحد منهما[١] فالمعنى: وكثيرا من القرى وأهلها أهلكهم الله .

وقد فسر كثير من العلماء هذا النص القرآنى بما يتفق مع نظمه ولهم فى ذلك تأويلات شتى كما فسره البعض على القلب البلاغى وسنبين ذلك:

١- يقول الفراء: يقال: إنما أتاها -القرية- البأس من قبل الإهلاك فكيف تقدم الهلاك؟

قلت : لأن الهلاك والبأس يقعان معا كما تقول: أعطيتنى فأحسنت . فلم يكن الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله. إنما وقعا معا؛ فاستجيز ذلك.

وإن شئت كان المعنى : وكم قرية أهلكناها فكان مجئ البأس قبل الإهلاك، فأضمرت «كان». وإنما جاز ذلك على شبيه بهذا المعنى[٢].

فالفراء يجيب عن هذا السؤال بجوابين :

الأول : اشتراك الإهلاك والبأس فى الوقوع، فهما يقعان معا، وعلى هذا فإن تقديم أحدهما أو تأخره لا يجعله من التقديم والتأخير، أو القلب.

الثانى : أن المعنى على حذف «كان» . أى أهلكناها، فكان مجئ البأس قبل الاهلاك فالترتيب موجود عند الحدث فيهما.

وقد كان لاعتراض الفراء صدى عند كثير من العلماء كابن جرير ،

(١) المفردات فى غريب القرآن : (قرى) ٤٠٢ . (٢) معانى القرآن : ١/ ٣٧١ .

والرازى ، والنيسابورى وغيرهم . فقد وجدوا فيه ما يدفع القلب عن الآية الكريمة.

٢- وأورد ابن جرير اعتراض الفراء السابق بإسهاب ثم أورد عن العلماء عليه جوابين[١].

وخلاصة الأول : أن المراد بالإهلاك: خذلان[٢] أهلها عن اتباع ما أنزل الله إليها من البينات والهدى، وأختيارها اتباع أمر أوليائها المغويها عن طاعة ربها ﴿**فَجَاءَهَا بَأْسُنَا**﴾ جزاء لمعصيتهم ربهم على ذلك .

والثانى : أن يكون الإهلاك هو البأس بعينه، فذكر مجئ أحدهما فيه الدلالة على مجئ الآخر وهذا كقولهم: زرتنى فأكرمتنى ؛ فالزيارة هى الكرامة، وتقديم أحداهما على الأخرى بمعنى سواء.

فابن جرير فسر أولا: الإهلاك بالخذلان عن تنفيذ الشرائع؛ فهو سبب لوقوع البأس، والخذلان أمر معنوى، ووقوع البأس حسى معنوى. كما تأثر فى الثانى بالفراء الذى قال: «إن الهلاك والبأس يقعان معا» فهما إذا بمعنى.

٣- وأورد الإمام الرازى[٣] اعتراض الفراء بإيجاز، ثم ذكر أن العلماء أجابوا عليه بوجوه:

الأول : المراد بقوله : (أهلكناها) أى : حكمنا بهلاكها، (فجاء بأسنا).

ثانيا : أوأردنا إهلاكها. . .

وذكر فى الرابع جواب الفراء بإختصار.

---

(١) جامع البيان . المجلد الخامس : ٧/ ٨٧ .

(٢) الخذلان ضد التوفيق. والخذلان لغة: ترك النصرة والإعانة، وشرعاً: خلق قدرة المعصية فى العبد والداعية إليه. شرح البيجورى على الجوهرة: ٩١ . ويكون هذا بناء على علم الله الأزلى أن هذا العبد غير موفق ولا مهتد، فالعبد هو الذى ظلم نفسه.

(٣) التفسير الكبير. ١٣/ ١٦١ .

فـالمعنى على أن (أهلكناها) : حكمنا أزلاً بهـلاكـها، أو هو على المجـاز المرسل بعلاقة المسببية، أو أن الإهلاك، والبأس معناهما واحد .

٤- وذكر أبو البقاء العكبرى المعنى على المجاز المرسل كما سبق آنفا، ثم حكى القلب عن غيره، ورده بقوله:

« المعنى : وكم من قـرية أردنا إهـلاكهـا كـقـوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ﴾[1] أى : أردت قراءته.

وقال قوم : هو على القلب. أى : وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها. والقلب هنا لا حاجـة إليه؛ فيـبقى محض ضـرورة. والتقدير: أهـلكنا أهلها فجاء أهلها»[2].

٥- وأورد النيسابورى* سؤال الفراء ثم ذكر أن العـلماء أجابوا بوجوه[3]. وهى لا تخرج عن إجابة كل من الفراء، والرازى. ثم قال:

« فإن قيل : كيف يصح والعطف يوجب المغايرة ؟

فالجـواب أن الفاء قـد تجيء للتفـسير كـقوله ﷺ «لا يقـبل الله صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه؛ فيغسل وجهه ويديه»[4] فإن غسل الوجه واليدين كـالتفسيـر لوضع الطهور مواضـعه. فكذا هـهنا: مجئ البـأس جارٍ مجرى التفسير للإهلاك.. وقريب منه قول الفراء :« لا يبعد أن يقال: البأسَ

(١) سورة النحل الآية : ٩٨ . (٢) التبيان فى إعراب القرآن. القسم الأول: ٥٥٦ .

* نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمى النيسابورى ت٧٢٨هـ .

(٣) انظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان على مصحف التهجد. المجلد الثانى: ١٣٥٤ .

(٤) قال ابن حجر العسقلانى فى: تلخـيص الحبر: ١/ ٥٩ : «لم أجده بهذا اللفظ.. وقال النووى: إنه ضعيف غير معـروف، وقال الدارمى فى جمع الجوامع: ليس بمعروف، ولا يصح ، وفى رواية لأبى داود والدارقطنى: «لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله فيـسغل وجهه ويديه إلى المـرفقين، ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعـبين» تلخيص الحبر فى تخريج أحاديث الرافعى الكبير : ١/ ٥٩ .

والهـلاك يقعـان معـا. . ومنها: أنه من باب الـقلب الذى يشجع عليـه أمن الإلباس ، كقولهم: عرضت الناقة على الحوض».

وخلاصة ما قاله النيـسابورى: أن المراد بالإهلاك الحكم به أزلا قبل مجىء البأس، أو أن المعـنى على المجاز المرسل. أى أردنا إهلاكـها، أو أن الإهلاك والبـأس بمعنى واحد، أو أن الفـاء فى (فجـاءها) تفـسيـرية. فالمعنى واحـد كذلك. فهذا يوافق النظم.

أو أن المعنى على القلب حيث لا لبس.

٦- وذكر الفضل بن الحسن الطبرسى أقوالا[١] أهمها :

الأول : المراد بالإهلاك الحكم به. . . ،

الثالث : أنه مثل زرتنى فأكرمتنى فإن نفسى الإكرام هى الزيارة .

قال : « على بن عيسى»[٢] : وليس هذا مثل ذلـك؛ لأن هذا إنما جاز لأنه قصد الزيارة ثم الإكرام بها».

يعنى : أن المثال مخالف للآية الكريمة ؛ فمعنى الترتيب والتعقيب متحقق فى المثال، بخلاف الآية.

. . وقال الفراء : إن الفاء ههنا بمعنى الواو[٣]. وردَّ عليه «على بن عيسى» بأنه نقل حرف عن معناه بغير دليل ، وذلك لا يجوز ».

فإذا كانت الـواو لمطلق الجمع، والفاء هنا بمعنى الواو عند الفـراء فقد رد عليه «على بن عيسى» بأن ذلك لا يجوز . .

(١) مجمع البيان فى تفسير القرآن. المجلد الثالث : ١٠ .

(٢) هو على بن عيسى بن على بن عبدالله ابو الحسن الرُّمانى. باحث معتزلى مفسر من كبار النحاة. مولده ووفاته «بغداد» له مائة مصنف منها: شرح سيبويه، ومعانى الحروف توفى سنة ٣٨٤هـ .

(٣) ذكر الشوكانى فى : «فتح القدير» . المجلد الثانى ٢٧٥ قول الفراء هذا.

٧- وقدر القاسمي في محاسن التأويل : «أردنا اهلاكها بسبب مخالفة المنزل إليهم»[١] وقال أبو السعود : «والمراد بإهلاكها : إرادة إهلاكها كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾[٢]».

٨- وفي التحرير والتنوير[٣] : «وفعل «أهلكناها» يجوز أن يكون مستعملا في معنى الإرادة بحصول مدلوله، ويجوز أن يكون مستعملا في ظاهر معناه».

٩- ويورد الأستاذ «عبد الكريم الخطيب» معنى سؤال الفراء ثم يقول[٤]:

«والجواب : أن الإهلاك حكم واقع مقرر قبل مجيء البأس ، وأن هذه القرى الظالمة كانت تحت حكم الإهلاك قبل أن تهلك بزمن طويل..» وهو بذلك يشرح قول الإمام الرازي : «المراد بقوله: (أهلكناها) أي : حكمنا بهلاكها» .

١٠- ويقول القاضي البيضاوي : « (أهلكناها) أردنا إهلاك أهلها ، أو أهلكناها بالخذلان (فجاءها) فجاء أهلها (بأسنا) عذابنا» ويعلق عليه «شيخ زادة» بقوله :

« (قوله : أو أهلكناها بالخذلان) توجيه ثان لعطف قوله: (فجاءها) على (أهلكناها) بالفاء التعقيبية . ،

وتقريره : أن الإهلاك عبارة عن الخذلان، لأن الخذلان ، وعدم التوفيق سبب للهلاك؛ فعبر بالمسبب عن سببه، والمعنى : خذلناهم. ولم نوفقهم؛

---

(١) جـ٧ ص٢٦١٠ .

(٢) سورة المائدة الآية: ٦ تفسير أبي السعود: ٣/ ٢١١ وهي إجابة الزمخشري في الكشاف : ٢/ ٦٧ على معنى سؤال الفراء، وانظر تفسير المنار : ٨/ ٣١١ .

(٣) جـ٨ ص١٩ .

(٤) التفسير القرآني للقرآن. الكتاب الرابع: ٣٦٧ .

فجاءهم الإهلاك والعذاب»[١].

– وعلق الشهاب الخفاجى على قول القاضى، ولكن أجمل ما قاله العلماء فقال:

(قوله : أردنا إهلاك أهلها الخ) لما كانت الفاء للتعقيب، والهلاك بعد مجىء البأس بحسب الظاهر أو لوا النظم بوجوه :

أحدها : أن (أهلكنا) مجاز بمعنى : أردنا إهلاكها كما فى ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾..

وقيل: إنه من القلب.

وقيل : الفاء بمعنى الواو. أو المراد : فظهر[٢] مجىء بأسنا، واشتهر. وقدر المصنف –رحمه الله– هنا مضافا مع أن القرية تتصف بالهلاك، وهو الخراب.

وجوز حمله على الاستخدام[٣]، لأن القرية تطلق على أهلها

(١) حاشية محيى الدين شيخ زادة على تفسير القاضى البيضاوى: ٢/ ٢٣٧ .

(٢) يعنى أن ظهور مجئ البأس حكم تنجيزى حادث، وهو تنفيذ للتنجيزى القديم. وفى الكلام إيجاز بالحذف .

(٣) وهو أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما ، ثم بضميره معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحدهما وبالآخر الآخر. فالأول كقول الشاعر :

إذا نزل السماءُ بأرض قومٍ ... رعيناهُ وإن كانُوا غضابَا

أراد بالسماء : الغيث ، وبضميرها: النبت .

والثانى كقول البحترى :

فسقى الغضا والساكنيه وإن همُ ... شبُّوهُ بين جوانح وضلوع

أراد بضمير الغضا فى قوله: والساكنية – المكان، وفى قوله: شبوه: الشجر. الإيضاح : ٤/ ٣٤ .

وأما الآية الكريمة فقد أريد بالضمير فى «أهلكناها» : المكان، وبالضمير الثانى فى «فجاءها» أهل القرية.

مجازا . . »[(١)].

فالشهاب الخفاجى يرفض القلب ولذا صدره بقوله : «وقيل» وجمهور العلماء على تفسير الآية بوجوه من النظم كالتقديم والتأخير، أو أن الإهلاك والبأس بمعنى واحد، أو أن الاهلاك حكم أزلى، ومجىء البأس حكم تنفيذى حادث، أو أن المعنى: أردنا إهلاكها. على المجاز المرسل. . الخ أما القلب فلا حاجة إليه ما أمكن التفسير بالنظم.

★ ★ ★

الآية السابعة

قوله تعالى :

﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ هذا النص الكريم من الآيتين التاليتين :

الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٢٤).

والثانية قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾(الكهف: ٤٥).

وقد اختلف المفسرون فى المراد بهذا النص من الآيتين الكريمتين وذلك من حيث التفسير بالنظم، أو القلب. وعلل البعض التفسير على الثانى بأن لغرض بلاغى يلائم الغرض والمعنى.

(١) حاشية الشهاب الخفاجى: ١٤٨/٤، ١٤٩.

ومنشأ هذا الخلاف : اختلافهم فى مرجع الضمير فى «به» وأنه إلى «ماء» أو «نبات» ، وكذا اختلافهم فى المراد بلفظ «اختلط» ثم ما يترتب على ذلك من معنى الباء من «به» هل هو : السببية، أو المصاحبة والمجاورة؟

وسنبين هذا على ضوء ما ذهب إليه العلماء .

أولاً: التفسير بالنظم:

١- فسر الإمام الطَّبرَسى هـذا النص القرآنى بما يتفق مع نظمه، ثم حكى تفسيره بالقلب؛ فقال فى تفسير آية «يونس»:

« (فاختلط به) أى بذلك المطر (نبات الأرض) لأن المطر يدخل فى خلل النبات؛ فيختلط به. وقيل معناه: فاختلط بسببه بعض النبات بالبعض؛ فاختلط ما يأكل الناس بما يأكل الأنعام، وما يقتات بما يتفكه»[(١)].

وقال فى آية «الكهف»: «أى نبت بذلك الماء نبات التف بعضه ببعض يروق حسنا وغضاضة. وهذا مفسر فى سورة يونس»[(٢)].

ففى الآية الأولى جعل المطر مختلطا بنبات الأرض، وفى الثانية جعل الماء ينبت به النبات. وهذا يتفق مع النص فى الآيتين الكريمتين.

٢- وقال أبو حيان: «الظاهر أن النبات اختلط بالماء، ومعنى الاختلاط: تشبثه به- يقصد تشبث النبات بالماء- وتلقفه إياه، وقبوله له؛ لأنه يجرى له مجرى الغذاء. فتكون الباء للمصاحبة، وكل مختلطين يصح فى كل منهما أن يقال: اختلط بصاحبه. . . وقال الكرمانى* : فاختلط به اختلاط مجاورة؛ لأن الاختلاط: تداخل الأشياء بعضها فى بعض. انتهى.

(١) مجمع البيان فى تفسير القرآن. المجلد الثانى: ٣/ ٧٤ .
(٢) المرجع السابق. المجلد الرابع: ١٥/ ١٦٦ .
* هو تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى. نسبة إلى «كرمان» عاش فى أواخر القرن الخامس الهجرى وأول السادس. صنف : لباب التفسير، وأسرار التكرار فى القرآن. .

ولا يمنع اختلاط النبات بالماء على سبيل التداخل؛ فلا نقول: إنه اختلاط مجاورة.. وقيل معنى اختلط: تركب، وقيل: امتدَّ وطال»[١] فهذه المعانى للكلمة: «اختلط» تفيد مصاحبة الماء للنبات، وتداخلهما، وهذا يؤيد أن كلاً من لفظى: «ماء» و«نبات» فى موضعه. وهذا تفسير يلائم نظم هذا النص القرآنى.

ثانيا: التفسير بالقلب.

١- قال الشوكانى فى آية «يونس»:

« عن ابن عباس فى قوله: ﴿**فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ**﴾ قال: اختلط فنبت بالماء كل لون ﴿**مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ**﴾»[٢].

٢- وقال القاسمى فى آية «الكهف»:

« ﴿**كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ**﴾ فالتف بسببه، وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا؛ فشب وحسن وعلاه الزهر والنَّورُ والنضرة»[٣].

٣- وأفادنا الإمام الرازى أن النبات يكون بسبب الماء، وأن المراد بالنبات فى الآية: الحب الذى لم يكن نابتا قبل نزول المطر، أو النبت الذى هو فى أول بروزه من الأرض، ومبدأ حدوثه، ولكنه لم يترعرع ولم يهتز[٤].

وتفسير «نبات» على الأول من المجاز المرسل بعلاقة: اعتبار ما يكون.

٤- وفى تفسير المنار[٥]: «﴿**فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ**﴾ «أى فأبنت الأرض أزواجا شتى من النبات تشابكت بسببه، واختلط بعضها ببعض فى تجاورها وتقاربها على كثرتها، واختلاف أنواعها».

---

(١) البحر المحيط: ٥/١٣٤.
(٢) فتح القدير: ٢/٦٣٧.
(٣) محاسن التأويل: ١١/٤٠٦٥.
(٤) التفسير الكبير. المجلد التاسع: ١٧/٥٩.
(٥) جـ١١ ص٣٤٧.

ثالثا: التفسير بالنظم والقلب:

قال أبو البقاء العكبرى فى آية «يونس»:

«البـاء للسبب . أى اخـتلط النبات بسـبب اتصال الماء به وقـيل : المعنى خالطه نبات الأرض. أى اتصل به فرباه»[١].

فـقد بين المعـنى أولا على القلب ثم حكى التـفسـيـر بالنظم. وذلك أن مـخالطة الماء للنبـات إنما هى امتـزاج وتداخل وتقـارن. وقد نقل المنتـجب الهمذانى»[٢] فى إعرابه[٣] لهذه الآية الكريمة ما قاله أبو البقاء هنا حرفيا.

وقال الزمخشرى فى آية «يونس»:

شبهت حال الدنيا فى سرعة تقضيهـا، وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض فى جـفافـه وذهابه حطاما بعدمـا التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه (فاختلط به) فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا»[٤].

فهـذا التفسيـر على القلب، إذ المعنى: فاشـتبك النبات بسـبب الماء حتى خالط بعضه بعضا.

وقال فى آية «الكهف»:

«فالتف بسببه، وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا . وقيل : نجع فى النبات الماء، فاختلط به حتى روى ورف رفيفا»[٥].

(١) التبيان فى إعراب القرآن . القسم الأول : ٦٧١ .

(٢) هو حسن بن أبى العز رشـيد الدين يعقوب الهمذانى. نسبـة إلى «همذان» ولهذه المدينة مكانة أدبيـة وعلميـة! كان المنتجب متمكنـا فى اللغة والنحـو والقراءات وكان سـنيا، متواضعا صالحا ت ٦٤٣هـ.

(٣) انظر الفريد فى إعراب القرآن المجيد. المجلد الثانى: ٢٤ تحقيق د. فهمى النمر.

(٤) الكشاف : ٢ / ٢٣٣ .

(٥) المرجع السابق : ٤٨٦/٢ .

المعنى على الأول بالقلب، وعلى الثانى بالنظم، وذلك أن فاعل «نجع» ضمير يعود على الماء. أى نجع الماء بمعنى: دخل فى النبات ، فاختلط به. وهو يفيد اختلاط كلاهما بالآخر. وعلى هذا فكل من «ماء» و«نبات» فى موضعه ، ولا قلب .

وتأثر أبوالسعود بالزمخشرى فى تفسير آية «الكهف» ولكنه ذكر سر التفسير بالقلب. فقال:

« (فاختلط به) اشتبك بسببه (نبات الأرض) فالتف ، وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه، أو نجع الماء فى النبات حتى روى ورفَّ.

فمقتضى الظاهر حينئذ : فاختلط بنبات الأرض، وإيثار ما عليه النظم الكريم، للمبالغة فى الكثرة، فإن كلا من المختلطين موصوف بصفة صاحبه»[1].

فقد فسر النص الكريم أولا على القلب، وبين سر العدول إليه، وهو المبالغة فى كثرة النبات، ثم فسر بالنظم. وذلك أن قوله: «نجع» يفيد تداخل الماء بالنبات وهو يفيد أن كلا منهما فى مكانه كما سبق.

وجمع ابن عطية فى تفسير آية «يونس» بين النظم، والقلب وفسر آية «الكهف» بالقلب فقط.

ففى آية «يونس» يقول: « (فاختلط) ووقف بعض القراء[2] هنا على معنى:

(١) تفسير أبى السعود: ٥/ ٢٢٤ .

(٢) قال الأشمونى : «ولا وقف من قوله: «إنما مثل» إلى «الأنعام»؛ فلا يوقف على قوله «فاختلط». وزعم يعقوب الأزرق أنه هنا، وفي الكهف تام على استئناف ما بعده. جملة مستأنفة من مبتدأ وخبر.
وفى هذا الوقف شىء من جهة اللفظ والمعنى. فاللفظ على أن «نبات» فاعل بقوله: «فاختلط» أى: فنبت بذلك المطر أنواع من النبات يختلط بعضها ببعض وفى المعنى تفكيك الكلام المتصل الصحيح. والمعنى الفصيح، وذهاب إلى اللغو والتعقيد». منار الهدى فى بيان الوقف والابتداء : ١٧٥ .

فاختلط المـاء بالأرض، ثم استأنف (به نبات الأرض) على الابتـداء. والخبر المقدم». فهـذا على معنى: اختلط نبات الأرض بالماء عـلى أن «نبات» فاعل «اختلط» .

ثم قال : «ويحتمـل علـى هـذا أن يعـود الضمـير فـى «به» علـى الماء ، أو على الاختـلاط الذى يتضمنه القـول. ووصلت فرقه. فـرفع النبات على ذلك بقوله: «اختلط» . أى اختلط النبات بعضه ببعض بسبب الماء»[1].

- التـفسـير على الأول من القلب وذلك أنـه فى الاستـئناف يكون المعنى اختلط نبات الأرض بالماء. لأن «به» خبر مقدم.

وعلى الاحـتمال الذى ذكـره من عود الضـميـر فى «به» على الماء يكون المعنى: اختلط الماء بالنبـات ، أو أن الاختلاط بهمـا على سبيل المصـاحبة . والمعنى فى قراءة الوصل على القلب كما هو ظاهر.

- القاضى البيضاوى والشهاب الخفاجى :

- فسر القاضى آية «يونس» على القلب، وبين الخـفاجى قول القاضى ثم أشار إلى التأويل بالنظم. وجاء ذلك على الوجه التالى :

فى قوله تعالى: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ يقول القاضى: «فاشتبك بسببه -الماء- حتى خالط بعضه بعضا» .

ويقول الخفـاجى فى بيانه « (قوله: فاشـتبك بسببـه حتى خالط الخ) أى: بسبب الماء كثـر النبات حتى الْتفَّ بعضه ببـعض. ومنهم من جعل الباء على أصلها وهو المصاحبة والاختلاط بالماء نفسه؛ فإنه كالغذاء للنبات، فيجرى فيه ويخالطه»[2].

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/ ١١٤.

(٢) حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير القاضى البيضاوى: ٥/ ٣٠.

وهذا إشارة إلى ما ذكره أبو حيان من أن «كل مختلطين يصح فى كل منهما أن يقال: اختلط بصاحبه».

وتأثر القاضى فى تفسير آية «الكهف» بالزمخشرى الذى فسرها بكل من النظم، والقلب كما تأثر أيضا بأبى السعود فى بيانه لأصل النظم، وسر العدول عنه إلى القلب؛ فقال:

« ﴿أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ فالتف بسببه وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه، أو نجع فى النبات حتى روى ورفّ. وعلى هذا كان حقه: فاختلط بنبات الأرض، لكن لما كان من المختلطين موصوفا بصفة صاحبه عكس؛ للمبالغة فى كثرته».

المراد بقول القاضى: «فالتف بسببه..» أى: التف النبات بسبب الماء- هذا تفسير بالقلب البلاغى.

وعلق الخفاجى بقوله:

« (قوله: فالتف بسببه وخالط بعضه بعضا) يعنى: أن النبات لكثرته بسبب كثرة سقيه التف بعضه ببعض؛ ففاعل: «التّفّ» ضمير النبات. وتكاثفه بمعنى: غلظه وكثرة أوراقه، ونجع بمعنى: دخل... ورفّ بمعنى: تحرك بلطف، لرطوبته ونضرته..».

كما علق على قول القاضى: «وعلى هذا كان حقه»: بأن الشيئين المختلطين يصدق على كل منهما أنه مختلِط ومختلَط به، ثم استدرك على قول القاضى؛ فقال: «لكن فى عرف اللغة والاستعمال تدخل الباء على الكثير الغير الطارئ -يقصد النبات-؛ فلذا جعل هذا من القلب «حيث أريد بالضمير فى «به» قوله: «ماء» وهو المراد من قول القاضى: «بالعكس»[1].

(١) المرجع السابق: ١٠٥/٦.

ويرد الشهاب هذا القلب فى قول القاضى فيقول: «ولما كان القلب مقبولا إذا كان فيه نكتة أشار إلى نكتته بعدما بين المصحح له، وهو أن كلا منهما مختلِط، ومختلَط به وهى المبالغة فى كثرة الماء حتى كأنه الأصل الكثير».

فقد بين القاضى أن اتصاف كل من الماء والنبات بالاختلاط أو التداخل هوالمرجح للقلب، وجاراه الخفاجى حيث شرح ما أجمله القاضى ثم رجحه. وكان الأولى بكل منهما أن ينتصر للتفسير بما يوافق النظم. فالمسألة اعتبارية.

والأولى تجنب التفسير بالقلب، إذ لا ضرورة إليه ما أمكن التفسير بما يتفق مع النظم القرآنى.

★ ★ ★

الآية الثامنة

قوله تعالى: ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ (إبراهيم: ٤٧).

قوله: (فلا تحسبن) تفريع علي ما تضمنته الآيات السابقة من الوعيد والإنذار وكذا التذكير بمصارع الظالمين للتهديد وللتبصرة والاستعداد للقاء الله. قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾[1].

والخطاب فى قوله: (فلا تحسبن) وإن كان ظاهره للنبى ﷺ فإنما هو لأمته، فهو على حد قوله سبحانه ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[2] والنبى ﷺ بعيد عن ذلك.

وقد عدَّ ابنُ قتيبة هذه الآية من المقلوب حيث يقول:

(١) سورة إبراهيم الآيات: ٤٢-٤٦.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٤٧، والأنعام: ١١٤، ويونس: ٩٤.

ومن المقلوب أن يقدم ما يوضحه التأخير، ويؤخر ما يوضحه التقديم كقول الله تعالى: ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ أى : مخلف رسله وعده؛ لأن الإخلاف قد يقع بالوعد كما يقع بالرسل؛ فتقول: اخلفتُ الوعد، وأخلفتُ الرسل»[1].

وجمهور العلماء على أن ما فى الآية من التقديم والتأخير بين المعمولين «وعده» و«رسله» ، لا من القلب.

فالفراء يذكر[2] أنه إذا كان الفعل يقع على شيئين مختلفين فإنه يجوز أن تبدأ بالمفعول الثانى، وعلى هذا قول الشاعر:

ترى الثَّور فيها مدخِل الظل رأسه وسائرهُ بادٍ إلى الشمسِ أجمعُ

فقد أضاف «مدخل» إلى «الظل». وكان الوجه أن يضاف إلى الرأس ويعلل أبو البقاء تقديم المفعول الثانى بأنه على سبيل الاتساع. ويقول: «الأصل: مخلف رسله وعده. ولكنه ساغ ذلك لما كان كل واحد منهما مفعولاً»[3].

ويقول الزمخشرى: «فإن قلت: هلاَّ قيل: مخلِف رسلِه وعدَه، ولم قدم المفعول الثانى على الأول؟

قلت: قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا كقوله: ﴿إنَّ اللَّه لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[4]. ثم قال: (رسلِه) ليؤذن أنه إذا لم يُخلف وعده أحداً -وليس من شأنه إخلاف المواعيد- كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته؟»[5].

(١) تأويل مشكل القرآن: ١٩٣.
(٢) معانى القرآن : ٢/ ٧٩ ، وانظر: جامع البيان. المجلد الرابع: ١٦٣.
(٣) التبيان فى إعراب القرآن . القسم الثانى: ٧٧٤ .
(٤) سورة الرعد الآية : ٣١ .
(٥) الكشاف : ٢/ ٣٨٤ ، ونقله الرازى فى التفسير الكبير. المجلد العاشر: ١١٥ .

وكلام الزمخشرى لا يخلو عن أمرين:

الأول : نزعة الاعتزال .

الثانى : أن تقديم المفعول الثانى: «وعده» يفيد الإطلاق، والنص على قوله: «رسله» يفيد التخصيص .

وعن الأول قال أبوحيان : «وهو جواب على طريقة الاعتزال فى أن وعد الله واقع لا محالة. فمن وعده بالنار من العصاة لا يجوز أن يغفر له أصلا.

ومذهب أهل السنة[١]: أن كل ما وعد من العذاب لعصاة المؤمنين هو مشروط إنفاذه بالمشيئة»[٢].

وأما عن الثانى فإن ابن المنير الاسكندرى أورد نظرا[٣] على الزمخشرى فى

---

(١) قال شيخ الإسلام إبراهيم البيجورى فى شرح قول صاحب جوهرة التوحيد:
(ومنجزٌ لمن أراد وعدَهُ)

قال: «. . وأشار المصنف بذلك إلى أن وعد الله المؤمنين بالجنة لا يتخلف شرعا قطعا . . وأما الوعيد فيجوز الخلف فيه عند الأشاعرة؛ لأن الخلف فيه لا يعد نقصا، بل يعد كرما يمتدح به كما يشير إلى ذلك قول الشاعر:

وإنى إذا أوعدتُهَ أَوْ وعدتهُ ... لمخلفٌ إيعادى ومنجزٌ موعدى

. . فاللائق بكرمه أن يبنى إخباره على المشيئة وإن لم يصرح بها؛ فإذا قال الكريم: لأعذبن زيداً فنيته إن شئت بخلاف الوعد؛ فإن اللائق بكرمه أن يبنى إخباره به على الجزم» شرح البيجورى على الجوهرة: ٩١ , ٩٢.

وقد ورد فى القرآن الكريم تعلق تنفيذ الوعيد على المشيئة فى قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة: ٢٨٤)، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾(المائدة: ١٨) ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(المائدة: ٤٠)، ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾(العنكبوت: ٢١).

(٢) البحر المحيط : ٥/ ٤٣٨ , ٤٣٩ .

(٣) انظر الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال. هامش (الكشاف) نفس الموضع.

الغرض من تقديم هذا المفعول، وكذا فى إفادة «رسله» التخصيص.

وأشار الشهاب الخفاجى -فى إيجاز بليغ- إلى هذا النظر فى الأمرين. وسأكتفى فى هذا المقام بقول الشهاب. فقد قال فى تعليقه على قول القاضى، والذى نقله من الكشاف :

« كذا فى الكشاف. وقيل عليه[١] : إن الفعل إذا تقيد بمفعول انقطع احتمال إطلاقه وهو هنا كذلك؛ فليس تقديم الوعد دالا على إطلاق الوعد، بل على العناية والاهتمام به؛ لأن الآية سبقت لتهديد الظالمين بما وعد الله، وكونه على ألسنة الرسل- عليهم الصلاة والسلام- لا يتوقف عليه التهديد والتخويف ».

فالخفاجى وافق ابن المنير فى الغرض من تقديم «وعدهُ» ، وكذا فى النص على قوله: «رسله».

وأتبع الشهاب ما سبق بقوله:

«وقيل[٢] : إنه قوى لكن ما رده هو القاعدة عند أهل البيان كما قال عبد القاهر فى قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾[٣] إن قدم شركاء للإيذان بأنه لا ينبغى أن يتخذ لله شركاء مطلقا، ثم ذكر الجن تحقيراً؛ فإذا لم يتخذ من غير الجن فالجن أحق بأن لا يتخذوا[٤]. وهذا لا يدفع السؤال بل يؤيده وكذا ما فى الشارح الطيبى[٥] -رحمه الله تعالى- فإنه مع تطويله لم يأت بطائل ،

(١) القائل هو ابن المنيرً الإسكندرى.
(٢) يعنى : أن نظر ابن المنير قوى، ولكن قول الزمخشري هو القاعدة .
(٣) سورة الأنعام الآية : ١٠٠ .
(٤) دلائل الإعجاز : ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
(٥) هو شرف الدين الحسن بن محمد بن عبدالله الطيبى الإمام فى العلوم العربية والعقلية. كان متواضعا، شديد الحب لله ورسوله ألف التبيان فى المعانى والبيان ، وشرح المشكاة توفى سنة ٧٤٣هـ. بغية الوعاة: ٢٢٨.

فالوجـه ما فى الكشف[١] من أن تقديمـه يقتـضى الاعتناء به، وأنه المقـصود بالإفادة.

وما ذكره ممن وقع الوعـد على لسانه إنما بطريق التبع للايضاح والتـفصيل بعد الإجـمال، وهو من أسلوب الترقى كمـا فى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[٢] وقد اشار إليه المصنف رحمه الله -تعالى- بقوله: «فكيف يخلف رسله»[٣].

فقد إفادنا الشـهاب أن النص على «رسله» من الإطناب وهو من صـورة: « الايضاح والتفصيل بعد الإجمال ». وأورد لذلك شاهدا من القرآن الكريم.

وذكر أبو حـيان آراء كثـير من علمـاء اللغة فى تقـديم «وعده» ومن ذلك قوله:

«قال الفـراء وقطرب: لما تعدى الفـعل إليهمـا جميـعا لم يبال بالتـقديم والتأخير..

وقيل: «مخلف» هنا متعد إلى واحد كقوله: ﴿لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ فأضيف إليـه، وانتـصب «رسله» بوعـده؛ إذ هو مـصدر ينـحل بحرف مـصـدرى، والفعل. كأنه قال: مخلف ما وعد رسله. و«ما» مصدرية لا بمعنى الذى»[٤].

والخلاصة: أن ما فى الآية من التقديم والتأخير، لا القلب، والغرض من تقديم المفعول الثانى: التخصيص، أو العناية والاهتمام، وأن النص على قوله تعالى: «رسلـه» التخصـيص، أو هو من الإطناب للإيضاح والتـفصـيل بعد الإجمال.

---

(١) هو كشف الكشاف للفارسى.
(٢) قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (طه: ٢٥).
(٣) حاشية الشهاب الخفاجى: ٥/ ٢٧٨.
(٤) البحر المحيط: ٥/ ٤٣٨، ٤٣٩.

الآية التاسعة

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء: ٣٧).

هذه الآية الكريمة فى مقدمة الآيات التى كثر الخلاف فى تأويلها بالنظم، أو القلب البلاغى. ولكن القائلين بالنظم أكثر ولديهم من الأدلة القوية ما يبطل التأويل بالقلب وسنبين ذلك.

يقول أبو عبيدة: « ﴿خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ مجازه مجاز: خلق العجل من الإنسان، وهو العجلة. والعرب تفعل هذا إذا كان الشىء من سبب الشىء بدءوا بالسبب. وفى آية أخرى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ والعصبة هى التى تنوء بالمفاتيح. ويقال: إنها لتنُوء عجيزتها. والمعن: أنها هى التى تنُوء بعجيزتها.. وقال الأخطل:

مثل القنافذ هداجون قد بلغت ... نجرانَ أو بلغت سوءاتِهم هجرُ

وإنما السوءة البالغة هجر. وهذا البيت مقلوب»[1].

فأبو عبيدة فسر الآية على القلب. وذكر أن العرب تفعله إذا كان أحد الشيئين سبباً للآخر وأنهم يبدءون بالسبب. وقد استشهد لتأويل هذه الآية بالقلب بتأويله فى آية أخرى وبكلام العرب نثرا وشعرا.

وأما الفراء فإنه يفسر هذا النص القرآنى بما يتفق مع النظم؛ فه يتبعه بقوله: «وعلى عجل. كأنك قلت: بِنْيته وخلقته من العجلة، وعلى العجلة»[2].

فقد حمل لفظ «عجل» على المبالغة حتى جعل الإنسان كأنه مخلوق من العجلة. وكان لهذا التفسير أثره فيما بعد.

(١) مجاز القرآن ٢/ ٣٩.

(٢) معانى القرآن: ٣/ ٢٠٣.

ويقول ابن جـرير: «اختلف أهل التأويـل فى تأويله؛ فقال بعـضهم: (من عجل) فى بِنْيته وخِلقته، كأن من العجلة، وعلى العجلة.

وقال آخرون : ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أى : من تعجيل فى خلق الله إياه، ومن سرعة فيه، وعلى عجل»[١].

فقد ذكـر ابن جرير رأيين وكلاهما يتـفق مع النظم. والأول رأى الفراء. وقد نقل البغوى هذين الرأيين فى تفسيره.

وأما ابن جنى[٢] فإنه انتصر لتفسـير الآية بالنظم، وبين عدم مناسبة القلب لمعنى الآية بدليل السياق، وبأدلة أخرى من القرآن الكريم.

فهـو يذكر أنه إذا أخبر بالمصـدر عن الذات فإنه يكون لإفادة المبـالغة، ثم يستشهد بالكثير من أقوال العرب نثرا وشعرا، وبهذه الآية الكريمة.

وعقد الشـريف المرتضى مجلسا[٣] لدراسـة هذه الآية. وذكر فى تأويلهـا وجوها.

أولهـا : « أن يكون مـعنى القـول : المبالغـة فى وصف الإنسـان بكثـرة العجلة، وأنه شديد الاستعجال لما يؤثره من الأمور، لهج باستدناء ما يجلب إليه نفـعا، أو يدفع عنها ضـررا» واستدل على المبـالغة بسيـاق الآية، وبقوله تعالى: ﴿وكان الإنسان عجولا﴾ كمـا أورد شواهد كثيرة من كلام العرب ثم أورد رأى القائلين بالقلب فقال:

«وثانيها: مـا أجاب به أبو عبيـدة وقطرب بن المستنير وغيـرهما من أن فى الكلام قلبا. والمعنى: خلق العجل من الإنسان».

وأورد الشريف شـواهد كثيـرة لذلك ثم حاج أصحـاب هذا الجواب بأننا

(١) جامع البيان . المجلد التاسع: ٦/ ٣٤ . (٢) الخصائص : ٢/ ٢٠٢ .
(٣) أمالى المرتضى. القسم الأول : ٤٦٥-٤٦٩ .

لوتغاضينا عن القول بالقلب فى كتاب الله فإننا نقول لهم: ما المعنى والفائدة فى خلق العجل من الإنسان؟ أتريدون بذلك أن الله -تعالى- خلق فى إنسان العجلة. وهذا لا يجوز، لأن العجلة فعل من أفعال الإنسان ، فكيف تكون مخلوقة فيه لغيره؟ وكيف ينهاهم الله عن الاستعجال لو كان كذلك.. ثم انتهى إلى أن الجواب الأول أوضح، وأصح معنى.

فقد هون الشريف المرتضى من التأويل بالقلب، وبين أن التأويل بالنظم يناسب الغرض والسياق، وهو أصح معنى من الثانى.

وقد فسر ا لشريف الرضى هذه الآية على النظم، وأورد لذلك الأدلة فى كتابه : «تلخيص البيان فى مجازات القرآن»[١]، كما فسرها على النظم كل من الحافظ ابن كثير[٢]، والعلامة أبو السعود[٣]، وابن هشام الأنصارى[٤].

ويورد الطبرسى[٥] الرأيين فى تفسير الآية، ويبين ضعف التفسير بالقلب وقد تأثر بكل من أبى عبيدة، والزجاج، وابن جنى، والشريف المرتضى..

ومما قاله فى الرأيين :

« أحدها : أن معناه خلق الإنسان عجولا. أى خلق على حب العجلة فى أمره» ويستشهد عليه بما ثور كلام العرب.

ثانيها : أنه من المقلوب. والمعنى : خلقت العجلة من الإنسان عن أبى ، وهذا ضعيف؛ لأنه مع حمل كلامه على القلب يحتاج إلى تأويل؛ فلا فائدة فى القلب».

---

(١) ص١٨٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم. المجلد الخامس: ٣٣٦.

(٣) تفسير أبى السعود : ٦/ ٦٧ .

(٤) مغنى اللبيب : ٤٢٤ .

(٥) مجمع البيان . المجلد الرابع : ١٧/ ٢٦ .

ويذكر الإمام الرازى الأقوال التى أثرت عن العلماء فى المراد بالآية الكريمة، ومنها: القلب ، ويذكر أن القول بالمبالغة هو الأولى والأقرب إلى الصواب. فيقول :

« وأبعد الأقوال هذا القلب؛ لأنه إذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو أولى من أن يحمل على أنه مقلوب. وأيضا فإن قوله: خلقت العجلة من الإنسان فيه وجوه من المجاز. فما الفائدة فى تغيير النظم إلى ما يجرى مجراه من المجاز »؟[1].

فحمل المعنى على القلب تعسف، وفيه تعب فى التأويل لا طائل تحته ، وإذا أمكن فهم المعنى مع ترتيب النظم فما الداعى إلى القلب : بل وما الداعى إلى ارتكاب وجوه من المجاز فى سبيله .

ويوجز أبوحيان آراء العلماء فى تفسير الآية، ويرى أن التفسير على المبالغة يتم به معنى الآية ويناسبه ثم يقول عن القلب :

« ومن يدعى القلب فيه وهو أبو عمرو، وأن التقدير: خلق العجل من الإنسان. . فليس قوله بجيد، لأن القلب الصحيح فيه أن لا يكون فى كلام فصيح وأن بابه الشعر»[2].

وأخيرا فإن الشهاب الخفاجي بين وجه التجور فى تفسير «عجل» على المبالغة. فقد علق على قول القاضى : «كأنه خلق منه ؛ لفرط استعجاله، وقلة ثباته» بقوله:

« يعنى : أنه استعارة إما مكنية بتشبيه العجل؛ لكونه مطبوعاً عليه بمادته، ويجوز أن تكون تصريحية»[3].

(١) التفسير الكبير. المجلد العاشر : ٥١/١٩ .
(٢) البحر المحيط . المجلد السادس : ٣١٢ .
(٣) حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير القاضى البيضاوى : ٢٥٥/٦ .

فعلى انه استعارة يكون : تخيل أن للعجل مادة، وبعد استعارتها حذفت، ورمز إليها بشيء يدل عليها وهو «خلق» ؛ فيكون هذا استعارة تخييلية. وعلى الثانية تكون تصريحية أصلية لأن «عجل» مصدراً.

فجمهور العلماء يفسر الآية على المبالغة على أن الإنسان كأنه مخلوق من العجلة. وأما القلب فإنه «يصغر المعنى» كما قال ابن جنى، و«ضعيف» كما قال الطبرسى ، وأنه ليس «بجيد» كما قال أبوحيان. . فتفسير الآية بمقتضى النظم هو الصواب .

★ ★ ★

الآية العاشرة

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

الآية فى سياق حكاية إنكار إبراهيم -عليه السلام- عل قومه عبادة الاصنام[1]، ومنها قوله سبحانه:

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٧٥-٧٧).

الفاء فى قوله : (أَفَرَأَيْتُم) مفرعة على[2] ما تفيده الآيات قبلها، والتى تبين أن القوم كانوا مقتدين بآبائهم فى عبادة الأصنام والغرض : التعجيب من شأنهم فى هذه العبادة.

والفاء فى قوله : (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي) للتفريع على ما اقتضته جملة : (أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ).

---

(١) وهى من قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾. الآيات: ٦٩-٧٧.

(٢) التحرير والتنوير : ١٩/ ١٤١ باختصار.

وقد اختلف المفسرون فى هذه الآية بن التفسير بما يتفق مع النظم أو القلب غير أن القائلين بالنـظم ذكروا وجوها تبين قوة ما ذهبوا إليـه فى تفسير الآية وسنبين ذلك :

- يقول الفراء : « أى لوعبدتهم كانوا لى يوم القيامة ضدا وعدوا، وكأنه ذهب إلى معنى قوله : ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم﴾[١]»[٢].

فعـداوة الأصنام لابراهيم -عليه السلام- يوم القـيامة إنما هى على سـبيل الفرض ولـذا قال الفراء « أى: لـو عبدتهم»، واسـتشـهد لهـذا المعنى بآية «مريم». وهذا تفسير يتفق مع نظم الآية الكريمة ، وكـان لهذا التفسير صداه عند كثير من المفسرين .

- فـابن جرير يقـول : «يقول قـائل : وكـيف يوصف الخشب والحـديد والنحاس بعداوة بنى آدم؟. فإن معنى ذلـك. فإنهم عدو لى لو عبدتهم يوم القيامة كما قال جل ثناؤه : ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[٣]. . ومعنى الكلام: أفرأيتم كل معبود لكم ولآبائكم، فإنى برئ، لا أعبده إلا رب العالمين»[٤].

- ويتأثر الـزمخشـرى بالفراء فـيذكـر أن المغُرى على عبـادة الأصنام هو الشيطان، وآثر ابرهيم -عليه السلام- التعبـير بعداوتها له وهذا من التعريض أملا فى هدايتهم، ويقـول: «وأراهم بذلك أنه نصيحة نصح بهـا نفسه أولا، وبنى عليهـا تدبير أمره لينظروا؛ فـيقولوا: ما نصـحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه؛ ليكون أدعى إلى القبول، وأبعث على الاستماع منه.

---

(١) وتمامها : ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾مريم: ٨٢.

(٢) معانى القرآن : ٢/ ٢٨١.

(٣) مريم : ٨١ ، ٨٢ .

(٤) جامع البيان :١٩/ ٥١ .

ولو قال : فإنه عدو لكم لم يكن بتلك المثابة، ولأنه أدخل فى باب التعريض. وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح؛ لأنه يتأمل فيه؛ فربما قاده التأمل إلى التقبل»[١].

وقال الشوكانى فى فتح القدير[٢]: « قال الجرجانى : تقديره : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين؛ فإنهم عدو لى؛ فجعله من باب التقديم والتأخير ، وجعل «إلا» بمعنى «دون» و«سوى» كقوله : ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ﴾[٣].

وحمل بعض المفسرين الآية على القلب. فابن قتيبة يذكر فى «باب المقلوب» المعنى على القلب؛ فيقول[٤]:

« وكذلك قوله سبحانه : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. أى: فإنى عدو لهم؛ لأن كل من عاديته عاداك» ثم يتصدى لمن فسر بالقلب فى الكتاب العزيز؛ فيقول:

« وهذا ما لا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب الله - عزوجل - لو لم يجد له مذهبا؛ لأن الشعراء تقلب اللفظ، وتزيل الكلام على الغلط، أو على طريق الضرورة للقافية، أو لاستقامة وزن البيت»[٥].

ويستشهد ابن فارس للقلب فيقول فى هذه الآية: «والأصنام لا تعادى أحدا، فكأنه قال: فإنى عدو لهم، وعداوته لها: بغضه إياها، وبراءته منها»[٦].

وينكر ابن عطية تفسير ابن فارس بقوله : « . . . وقيل: فى الكلام قلب، لأن الأصنام لا تعادى أحدا، وإنما هو عاداها»[٧].

---

(١) الكشاف : ٣/ ١١٦ . (٢) جـ٤ ص١٥١ .
(٣) وتمامها : ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾(الدخان: ٥٦).
(٤)(٥) تأويل مشكل القرآن : ١٩٣ , ٢٠٠ .
(٦) الصاحبى : ٣٣٢ . (٧) المحرر الوجيز : ٤/ ٢٣٤ .

فقوله : «وقيل . . » دليل على إنكاره للقلب .

وفسر الواحدى[١] الآية على النظم، وأنكر تفسيرها على القلب ، واستشهد بقول الفراء .

ويذكر الألوسى صورتين للتفسير بالنظم، ثم يقلل من التفسير بالقلب، فيقول: « . . إطلاق العدو عليهم -الأصنام- من باب التشبيه البليغ، وجوز أن يكون من باب المجاز العقلى بإطلاق المسبب على المسبب من حيث إن المغرى والحامل على عبادتهم هو الشيطان الذى هو عدو مبين للإنسان. والأول أظهر، والداعى إلى هذا التأويل : أن الاصنام لكونها جمادات لا تصلح للعداوة.

وما قيل : إن الكلام على القلب. والأصل : فإنى عدو لهم ليس بشيء»[٢] .

فالألوسى يرجح أن يكون المعنى على التشبيه البليغ» ، ويجوز أن يكون الإسناد من «المجاز العقلى»[٣] مع أنه فى جملة اسمية غير أن القول به لا يؤدى ما يؤديه الاول من التنفير من عبادة الأصنام والتحذير من سوء العاقبة.

وأما القاضى البيضاوى فإنه تأثر بالزمخشرى؛ فقال: « ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى﴾ يريد: أنهم أعداء لعابديهم من حيث إنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه، أو أن المغرى بعبادتهم أعدى اعدائهم وهو الشيطان . . ».

---

(١) انظر. تحقيق ودراسة لغوية للجزء السادس من البسيط للواحدى. المجلد الثانى: ٦٧٤ .

(٢) روح المعانى : ١٩/ ٥٤ .

(٣) هذا على رأى الشيخ عبد القاهر؛ فقد عرفه بقوله: «كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول ؛ فهو مجاز». أسرار البلاغة: ٢/ ٢٥٧. والخطيب جعل هذا المجاز فى الجمل الفعلية. انظر الايضاح: ١/ ٥٦ .

وعلق «شيخ زادة» على هذين التأويلين فقال:

« (قوله : من حيث يتضررون من جهتهم) جواب عما يقال: كيف وصف الأصنام بالعداوة وهن جمادات؛ لا تتصور العداوة منهن؟ يعنى: أنها شبهت بالعدو من حيث كونها سببا للحوق المضرة بهم؛ فسميت عدوا على سبيل الاستعارة.

وتقرر الجواب الثانى: أنها وصفت بالعداوة لكون السبب الحامل على عداوتها أعدى عدو الإنسان، وهو الشيطان. فهو من قبيل الإسناد المجازى حيث أسند وصف السبب الحامل إلى مسببه»[١].

واقول : المشبه به موجود وهو «عدو» فكيف يجعل الخفاجى الجواب الأول من الاستعارة؟ أما الجواب الثانى فهو من المجاز المرسل كما قال.

فالعلماء فسروا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ على النظم وذلك على التشبيه البليغ، أو المجاز المرسل بعلاقة المسببية، أو التعريض تنفيرا من عبادة الأصنام، وردوا القول بالقلب.

★ ★ ★

الآية الحادية عشرة

قوله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (النمل:٢٨).

هذه الآية الكريمة فى سياق قصة سليمان -عليه السلام- وتفقده الطير[٢]، وتعجبه من عدم رؤية الهدهد.. ثم ما كان من أمر سليمان -عليه السلام- الهدهد بحمل كتابه إلى بلقيس ملكة سبأ، والنظر فى أمرهم.

---

(١) حاشية محيى الدين شيخ زاده على تفسير القاضى البيضاوى: ٣/ ٤٧٢ .

(٢) سورة النمل الآيات : ٢٠-٤٤ .

وهــذه الآيــة الكريمـة اختـلـف العلـمـاء فـيهـا بـين التفـسـير بالنظـم، أو القلب. وكانت آراء المفسرين بالنظم تتفق مع السياق والواقع.

- يقول الزجاج : « قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فيه قولان: قال بعـضهم : معناه التـقديم والتأخيـر ، ومعناه : اذهب بكتابى هذا فـألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم. وقال هذا لأن رجوعه من عندهم، والتولى عنهم بعد أن ينظر مـا الجواب؟ وهذا حسن. والتقديم والتأخـير كثر فى الكلام.

وقالوا : معنى «ثم تول عنهم» : تول عنهم مستترا من حيث لا يرونك ، فانظر ماذا يردون من الجواب»(١).

فالزجـاج قال بالتقـديم والتأخيـر، وهو من بلاغة النظم القرآنى. وفـسر التولى بما يتأتى معــه من النظر فى أمر الملأ. وقد كان لهذا التفسيـر أثره فيما بعد.

يقول ابــن جرير : «اختلف أهـل التأويل فى تأويل ذلك. فـقال بعـضهم معـناه: إذهب بكتابى هذا فـألقه إليـهم فانظر مـاذا يرجعـون ثم تول عنهم منصرفا إلىَّ. فقال: هو من المؤخر الذي معناه التقديم...

وقال آخرون: بل مـعنى ذلك : اذهب بكتابى هذا، فألقـه إليهم ثم تول عنهم، فكن قـريبا منهم، وانظر مـاذا يرجـعون.. ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى : كن قريبا، فانظر ماذا يرجعون.

وهذا القول أشبه بتأويل الآية؛ لأن مراجعه المرأة قومها كانت بعد أن أُلقى إلها الكتاب، وما كان الهدهد لينصـرف وقد أمر بأن ينظر إلى مراجعة القوم بينهم ما يتراجعونه قبل أن يفعل ما أمره به سليمان»(٢).

(١) معانى القرآن وإعرابه : ٤/ ١١٧.

(٢) جامع البيان. المجلد التاسع : ٩٤ .

فمجمل هذا الكلام: حمل الآية على التقديم والتأخير، أو تفسير «تول عنهم» بأن يكون الهدهد قريبا منهم؛ ليسمع مراجعاتهم. وبذلك يتفق التفسير مع النظم.

ويقول الواحدى: «... قال ابن زيد: هنا على التقديم والتأخير المعنى: اذهب بكتابى هذا، فألقه إليهم، فانظر ماذا يرجعون، ثم تول عنهم»[١] ثم اشار إلى قول الزجاج.

وعد ابن الانبارى[٢] الآية من التقديم والتأخير.

- وذكر الطبرسى فى مجمع البيان تأويلين، وكلاهما يتفق مع نظم الآية. الأول: استتر منهم قريبا بعد إلقاء الكتاب.. والثانى: إنه على التقديم والتأخير. ثم قال: والأول أوجه، لأن الكلام إذا صح من غير تقديم وتأخير كان أولى[٣].

- وفسر الزمخشرى معنى (ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ) بأنه «تنحَّ عنهم إلى مكان قريب، تتوارى فيه؛ ليكون ما يقولون بمسمع منك»[٣] وفسره الرازى بقوله: ثم تول ناحية أدبا ورياسة»[٤].

وتفسير الزمخشرى هذا نقله كل من أبى السعود[٥]، وأبى حيان[٦] الذى رجح هذا التفسير ثم نقل عن «أبى علىّ» أنه لا داعى إلى القول بالتقديم والتأخير إذا فسر التولى بأنه إلى مكان قريب.

- وقال الألوسى « (ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ) أى: تنحَّ.. وحمل على ذلك لأن

---

(١) انظر ص٩٣. (٢) كتاب الاضداد: ١١٤.
(٣) مجمع البيان: ٥/ ٣٤٢. (٤) الكشاف ٣/ ٤٢٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم. المجلد السادس: ١٦٨.
(٥) انظر تفسيره: ٦/ ٢٨٢. (٦) البحر المحيط: ٧/ ٧٠.

التولى بالكلية ينافى قوله: ﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ إلا أن يحمل على القلب كما زعم ابن زيد، وأبو على، وهو غير مناسب»(١).

فمنشأ الخلاف فى تفسير الآية بالنظم، أو القلب هو الخلاف فى معنى التولى.

ونقل ابن جـزِّى قول الزمخـشرى ، ثم أشـار إلى القلب، ولكنه رجح التفسير بالنظم بقوله: «والأول أحسن»(٢).

فالجمهور يفسر الآية بالنظم. إما بالتقديم والتأخير، أو بتفسير «تول عنهم» بأنه: تنحَّ، أو استـتر منهم قريبا. وهـوأحسن. ولكنه يرد القلب، فهو غـير مناسب.

والعجيب أن الزركشى يرجح القلب، فيقول فى «باب القلب» .

«حقيـقته: فانظر مـاذا يرجعون ثم تول عنهم؛ لأن نظره ما يـرجعون من القول غير متأت مع توليه عنهم.

ومـا يفسَّـر به التولى مـن أنه يتوارى فى الكوة التـى أُلقى منها الكتـاب مجاز. والحقيقة راجحة عليه»(٣).

★ ★ ★

الآية الثانية عشرة

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (القصص: ١٢).

هذه الآية الكريمة من قـصة موسى -عليـه السلام- وهى تبين جـانبا من عناية الله به، وحفظه من مكر فرعون عندما كان رضيعا.

(١) روح المعانى : ١٩/ ١٩٣ .
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل : ٣/ ٩٥ ، البرهان : ٣/ ٢٩٢ .
(٣) البرهان : ٣/ ٢٩٢ .

وقوله : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فسره البعض على القلب البلاغى بمعنى: وحرمنا على المراضع أن ترضعه، إذ الرضيع ليس من أهل التكليف.

وفسره جمهور العلماء بما يتفق مع نظمه، وكان لمسائل البيان دور كبير فى هذا التأويل. وسنبين ذلك.

أولا: يقول ابن فارس فى «باب القلب»:

«ومنه قوله -جل ثناؤه- : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ ومعلوم أن التحريم لا يقع إلا على من يلزمه الأمر والنهى وإذا كان كذا فالمعنى: وحرمنا على المراضع أن ترضعه. ووجه تحريم إرضاعه عليهن: ألا يقبل إرضاعهن حتى يرد إلى أمه»[1] .

ونقل «الزركشى»[2] هذا عن «ابن فارس» مع تصرف يسير .

ثانيا: وحمل المفسرون الآية بما يتفق مع النظم. فقد حملوا التحريم على المنع من الإرضاع، أو ما فى معناه، لا التحريم بمعناه الشرعى .

- فابن كثير يقول : «أى تحريما قدريا، وذلك لكرامة الله له ، صيانة عن أن يرتضع غير ثدى أمه»[3].

ويفسره الطبرسى بأنه : « المنع والتبغيض إليه، لا التحريم»[4]، وفسر كل من أبى حيان[5]، وأبى السعود أيضا التحريم بالمنع.

- وبين الألوسى المراد بالمنع بقوله: «أى : منعناه ذلك. فالتحريم مجاز عن المنع. فإن من حرم عليه شىء فقد منعه. ولا يصح إرادة التحريم

(١) الصاحبى : ٣٣١.   (٢) البرهان : ٣/ ٢٩١ .

(٣) تفسير القرآن العظيم. المجلد السادس: ٢٢٣.

(٤) مجمع البيان : ٢/ ٢٧١ .

(٥) انظر البحر المحيط : ٧/ ١٠٧ ، وتفسير أبى السعود: ٧/ ٥ .

الشرعى؛ لأن الصبى ليس من أهل التكليف. ولا دليل على الخصوصية»[١].

- ويبين كل من «شيخ زادة» و«الشهاب الخفاجى» نوع هذا المجاز .

فالقاضى البيضاوى يقول : « ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ ومنعناه أن يرتضع من المرضعات» .

- فيعلق شيخ زادة بقوله :

(قوله : ومنعناه أن يرتضع) لما كان التحريم الحقيقى لكونه عبارة عن النهى، واقتضاء ترك الفعل غير متصور ههنا لكونه فرع التكليف جعل التحريم مستعاراً للمنع من الارتضاع بأن شبه المنع بالتحريم ؛ للمناسبة بينهما فى التأدية إلى الامتناع؛ فأطلق عليه اسم التحريم، واشتق منه «حرمنا»[٢].

فعلى هذا «حرم» استعارة تصريحية تبعية، والجامع بين المنع والتحريم هو: عدم النفع فى كلٍّ .

- ويقول الخفاجى : (قوله : ومنعناه) جعله مجازا، إما استعارة، أو مرسلا؛ لأن من حرم عليه شيء فقد منعه؛ لأن الصبى ليس من أهل التكليف[٣]، وحكمته: أن يكون سببا لعوده لأمه، ولئلا يرتضع لبن كافرة»[٤].

فالخفاجى أفادنا فائدة ثانية- وهى أن المجاز يجوز أن يكون مرسلا. فالعلاقة هى السببية، لأن التحريم سبب المنع.

فالعلماء فسروا الآية على ما يقتضيه النظم ذاهبين إلى تفسير التحريم بالمنع على المجاز المرسل، أو الاستعارة. وردوا تفسيرها بالقلب البلاغى .

---

(١) روح المعانى : ١٩/ ٥٢ .

(٢) حاشية محيى الدين شيخ زادة على تفسير القاضى البيضاوى: ٣/ ٥٠٦ .

(٣) هذه عبارة الألوسى .

(٤) حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير القاضى البيضاوى : ٧/ ١٦ .

الآية الثالثة عشرة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾(القصص: ٧٦).

والآية تتحدث عن قارون وبغيه وطغيانه وكبره مع أن الله أعطاه من الكنوز والأموال ما يعجز عنه الوصف، ولكنه قابل تلك النعم بكفرها ثم ما كان بعد من إهلاكه بالخسف. ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾[1].

وقوله عز شأنه: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ علم على القلب البلاغى عند من قال به فى بعض الآيات القرآنية، فإنك لا تكاد تقرأ عن القلب فى كتب اللغة، أو فى تفسير القرآن وعلومه إلا وتجد الاستشهاد بهذه الآية.

وفسرها جمهور العلماء بما يتفق مع نظمها القرآنى، كما تعرضوا بالنقد والتفنيد لمن فسرها بالقلب. وسنبين ذلك.

أولاً: المفسرون بالقلب:

يقول أبو عبيدة: « مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ »: مجازه: ما إن العصبة ذوى القوة لتنوء بمفاتح نعمه. ويقال فى الكلام: إنها لتنُوء بها عجيزتها، وإنما هى تنُوء بعجيزتها كما ينوء البعير. بحمله..»[2].

فأبو عبيدة فسر هذا النص بالقلب، واستشهد بكلام العرب.

وبين المبرد صحة القلب بقوله:

« والكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب؛ للاختصار. قال الله-عزوجل-:

(١) سورة القصص الآية: ٨١. (٢) مجاز القرآن: ٢/ ١١٠.

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ والعصبة تنُوء بالمفاتيح. أى تستقل بها فى ثقل.

ومن كلام العرب: إن فلانة لتنوء بها عجيزتها. والمعنى: لتنُوء بعجيزتها»[1].

– وبين الشريف الرضى المعنى على القلب، ثم بين علاقة المفاتح بنوء العصبة، وأنه هو الذى سوغ القلب؛ فقال: «وهذه الاستعارة على القلب؛ لأن المراد: العصبة أولى القوة تنوء بتلك المفاتيح. أى تنهض بها نهضا متثاقلا.. ولكن لما كانت هى السبب فى نوء تلك العصبة بها على التثاقل من نهضتها كانت كأنها هى التى تنوء بالعصبة»[2].

والألوسى[3] يفسر الآية بما يناسب النظم، ويبين أنه الأولى، ثم يحكى القلب ويشير إلى أنه مرجوح.

وأبو البقاء يفسرها بما يناسب النظم، ثم يقول: «وقيل: هو على القلب. أى: لتنوء به العصبة»[4] فيذكر أن القلب رأى غيره. وصنع هذا أيضا الإمام البغوى[5] فى تفسيره. وكذلك الشوكانى حيث قال: «المعنى: يثقلهم حمل المفاتيح. قال أبو عبيدة: هذا من المقلوب. والمعنى: لتنوء بها العصبة. أى تنهض بها. وقال الفراء: معنى تنوء بالعصبة: تميلهم بثقلها، واختار هذا النحاس، وبه قال كثير من السلف»[6].

وحكى أبو حيان القلب عن أبى عبيدة ثم أنكره بقوله: «والقلب عند أصحابنا بابه الشعر. والصحيح أن الباء للتعدية. أى لتنىءُ العصبة»[7].

(١) الكامل فى اللغة والأدب: ١/٣٦٩.
(٢) تلخيص البيان فى مجازات القرآن: ٢٨٨.
(٣) انظر ص٤٩.
(٤) التبيان فى إعراب القرآن. القسم الثانى: ١٠٢٥.
(٥) انظر ص٩٧.
(٦) فتح القدير: ٤/ ٢٦٥.
(٧) البحر المحيط. المجلد السابع: ١٣٢.

وأما الزركشى فإنه ذكر الرأيين، وذهب إلى أن نكتة القلب: المبالغة، بجعل المفاتح كأنها مستتبعة للعصبة القوية بثقلها» وأشار إلى رأى الفراء ثم قوّى التفسير بالنظم بقوله:

« وقال ابن عصفور : والصحيح ما ذهب إليه الفارسى أنها باء النقل ، ولا قلب. والفعل غير متعد، فصار متعديا بالباء. وإنما كان مذهب الفارسى أصح؛ لأن نقل الفعل غير المتعدى بالباء مقيس، والقلب غير مقيس، فحمل الآية على ما هو مقيس أولى»[(١)].

- وأخيرا فإن الشيخ الطاهر بن عاشور يقول :

« ويظهر أن الباء فى قوله : «بالعصبة» باء الملابسة. أى تثقل مع العصبة الذين يحملونها؛ فهى لشدة ثقلها تثقل مع حملتها عصبة أولوا قوة. وليست هذه الباء باء السببية.

وأما قول أبى عبيدة بأن تركيب الآية فيه قلب فلا يقبله من كان له قلب»[(٢)].

واخيرا فإن الرأى الصواب هو تفسير الآية بما يتفق مع نظمها القرآنى وأصحاب هذا الرأى أدلتهم قوية، وبيانهم واضح فلم يعدل عنه إلى القلب؟!

- وقال القاسم الحريرى :

« وقلب الكلام من سنن العرب المأثورة، وتصاريف لغاتها المشهورة، ومنه فى القرآن : ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾، لأن تقديره : ما إن العصبة تنوء بمفاتحه. أى: تنهض بها على تثاقل»[(٣)].

- ويقول ابن الأنبارى : «معناه ما إن العصبة لتنوء بمفاتحه؛ فخرج الكلام

(١) البرهان : ٣/ ٢٨٩ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير : ٢٠/ ١٧٦ ، ١٧٧ .
(٣) درة الغواص فى أوهام الخواص : ٤ .

مقلوبا عند وضوح المعنى. هذا قول أبى عبيدة وقطرب»[١].

ثانيا: المفسرون بالنظم:

وأبدأ بإمام المفسرين ابن عباس ﷺ قال الواحدى فى هذه الآية: «وقال ابن عباس: لتُثقلهم حمل المفاتيح»[٢] ثم قال: «وعلى هذا الباء فى «بالعصبة» «للتعدية».

وهذا التفسير نجده عند كثير من المفسرين بالنظم بدءًا بالفرَّاء، والذى تناقل عنه العلماء هذا التفسير، فهو يقول:

« نوءُ العصبة: أن تثقلهم.. والمعنى: ما إن مفاتحه لتُنيءُ العصبة. أى: تميلهم من ثقلها»[٣] ثُم اشار إلى تفسير أبى عبيدة بالقلب.

وفسر الأصمعى هذا النص بقوله: «تثقلهم»[٤] ونقله أبو حاتم السجستانى عن الأصمعى.

واختار النحاس تفسيره بما يلائم النظم حيث قال: «أحسن ما قيل فيه: إن المعنى لتُنئ العصبة. أى تميلهم من ثقلها»[٥].

ونقد حازم القرطاجنى التفسير بالقلب، وبين أن الواجب التفسير بالنظم فقال: «وحمل الكلام فى غير القرآن إذا أمكن حمله على الاستقامة تعسف شديد. فكيف فى الكتاب العزيز!»[٦].

والواجب أن تجعل الباء فى قوله تعالى: «بالعصبة» «للتعدية ويكون المراد -والله أعلم- أن المفاتيح تنوء بالعصبة. أى تميلها من ثقلها. وهو قول الفراء»[٦].

(١) انظر ص٢٨ .
(٢) انظر ص٧٠ ، ٢٤ .
(٣) معانى القرآن : ٢/ ٣١٠ .
(٤) انظر ص٧٠. ٢٤ .
(٥) انظر ص٧٩ .
(٦) انظر ص١٠٦ .

الآية الرابعة عشرة

قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ (غافر: ٤٦).

هذا النص من الكتاب العزيز يبين عذاب فرعون وقومه بعد الغرق فهم يعرضون على النار هذين الوقتين فى الزمن الباقى من الدنيا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[١].

– يقول الزمخشرى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وفى هذا وجه تعظيم النار، وتهويل من عذابها. وعرضهم عليها: إحراقهم بها يقال: عَرَض الأسارى على السيف إذا قتلهم به»[٢].

قوله: «وعرضهم عليها إحراقهم بها..» تفسير يناسب نظم الآية، وهو كقوله بعد فى آية الاحقاف[٣]: «وعرضهم على النار: تعذيبهم بها».

ونقل البيضاوى عبارة الزمخشرى؛ فقال: «فإن عرضهم على النار إحراقهم بها..».

وبينه الشهاب الخفاجي بقوله: «فإن عرضهم الخ» توجيه لتفسيره بالإحراق.. والظاهر أنه مجاز، ولا حاجة إلى دعوى القلب فيه كما فى قولهم: عرضت الناقة على الحوض كما قيل، مع أن فى دعوى القلب فيه نزاعا ذكره فى «عروس الأفراح»[٤] وليس هذا محل تفصيله.

فعرضهم على النار، وعرض الأسارى على السيف استعارة تمثيلية. بتشبيههم بمتاع يبرز لمن يريد أخذه، وجعل السيف والنار كالطالب الراغب فيهم؛ لشدة استحقاقهم للهلاك، وفيه تأييد لتفسيره بعذاب القبر، لجعلهم

---

(١) هذه تكملة آية غافر: ٤٦.
(٢) الكشاف: ٣/ ٤٣.
(٣) وهى رقم (٢٠)
(٤) جـ١ ص٤٩١.

كأنهم لم يهلكوا بالنسبة لما يمسهم بعده»[١].

والقول بالمجاز، وأنه من الاستعارة التمثيلية، أولى من القلب فثمة شبه كبير بين هيئة عرض الكفار على النار، وتمكنها منهم وبين هيئة عرض المتاع لمن يريده، وتمكنه من المتاع بعد.

وذهب الشيخ الفاضل بن عاشور إلى أن أمثلة القلب جارية على مقتضى الظاهر، وليس فى الآية قلب، ولعل الأصل مجاز ساوى الحقيقة. وأذكر هنا هذه السطور من كلامه، قال :

« والعرض حقيقته : إظهار شىء لمن يراه لترغيب أو لتحذير، وهو يتعدى إلى الشىء المظهر بنفسه، وإلى من يظهر لأجله بحرف (على)، وهو يقتضى أن المعروض عليه لا يكون إلا من يعقل، ومنزلا منزلة من يعقل، وقد يقلب هذا الاستعمال لقصد المبالغة. كقول العرب: «عرضت الناقة على الحوض وحقه: عرضت الحوض على الناقة، وهو الاستعمال فى هذه الآية، وقوله فى سورة الاحقاف[٣] : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ .

وعندى أن الاستعمالين على مقتضى الظاهر، وأن العرض قد كثر فى معنى الإمرار، دون قصد الترغيب كما يقال: عرض الجيش على الأمير، ولعل أصله مجاز ساوى الحقيقة؛ فليس فى الآيتين قلب، ولا فى قول العرب: عرضت الناقة على الحوض. قلب. . »[٢].

فالشيخ «ابن عاشور» يتفق مع المحققين فى تفسير هذه الآية بما يناسب النظم، وأن المعنى يفاد معه دون حاجة إلى القلب.

وقوله: «وقد يقلب. . » إشارة إلى ما أثر عن العرب غير أنه جعل القلب جاريا على مقتضى الظاهر؛ فخالف بذلك أئمة البيان.

(١) انظر حاشية الشهاب الخفاجى. المجلد السابع ص٣٧٥ . وما بعدها.
(٢) التحرير والتنوير : ٢٤/١٥٨ . (٣) الآيتان : ٢٠, ٢٤.

الآية الخامسة عشرة

قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ (الأحقاف: ٢٠، ٣٤).

فسرت هذه الآية على ما يقتضيه النظم القرآنى. كما فسرت على القلب البلاغى، وذلك للاختلاف فى المراد بلفظ (يعرض). وسأورد من تراثنا العربى ما يبين ذلك.

- فسر ابن عطية الآية على النظم، فهو يقول: «المعنى واذكر يوم يعرض. وهذا العرض هو المباشرة. تقول: عرضت العود على النار» والمراد بالمباشرة: التعذيب.

- وفسرها الزمخشرى على النظم، ثم على القلب فالثانى رأى مرجوح. يقول: «وعرضهم على النار: تعذيبهم بها. من قولك: عرض بنو فلان على السيف إذا قتلوا به ومنه قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[1]، ويجوز عرض الناقة عليهم من قوله: عرضت الناقة على الحوض. يريدون. عرض الحوض عليها؛ فقلبوا. ويدل عليه تفسير ابن عباس: يجاء بهم إليها؛ فيكشف لهم عنها»[2].

فإذا أريد بالعرض على النار: التعذيب كان التفسير بالنظم، وإذا أريد به: الإبراز والاظهار كان التفسير بالقلب.

- وتأثر الرازى بالزمخشرى فقال: «قيل: يدخلون النار. وقيل: تعرض عليهم النار؛ ليروا أهوالها»[3] كما تأثر به أبو السعود[4].

واستدرك ابن المنير على الزمخشرى القول بالقلب فى الآية، لأن المثال إن

---

(١) سورة غافر الآية: ٤٦.
(٢) الكشاف: ٣/ ٥٢٣.
(٣) انظر ص١٠٢، ١٠٣.
(٤) تفسير أبى السعود: ٨/ ٨٤.

كان مقلوبا فإن الآية ليست من المقلوب، وذلك أن الحوض لا إدراك له، وأما النار فقد وردت النصوص بأنها يوم القيامة مدرِكة إدراك الحيوانات، بل إدراك أولى العلم[١].

- ويلخص القاضى البيضاوى كلام الزمخشرى، ويضيف إليه نكتة التفسير بالقلب؛ فيقول: «يعذبون بها. وقيل: تعرض النار عليهم؛ فقلب مبالغة».

- ويتناول الخفاجى بالشرح المسهب، والرجوع إلى العلماء قول القاضى، ثم يبدى رأيه فى هذه المسألة؛ فيقول:

« (قوله : يعذبون بها) يعنى: أن عرضهم على النار إما مجاز[٢] عن تعذيبهم من غير قلب، فهو كقولهم: عُرِض على السيف: إذا قتل به كما مر، أو بمعناه الحقيقى على القلب، وهو الوجه الثانى. ولما كان خلاف الأصل عرضه المصنف رحمه الله».

ثم يعرض لآراء بعض العلماء فيقول:

« وقال أبوحيان: إنه لا قلب فى قولهم : عرضت الناقة على الحوض؛ لأن عرض الناقة على الحوض ، والحوض على الناقة صحيحان. وأنكر القلب فى الآية وقال: إنه يرتكب للضرورة. ولا ضرورة تدعو إليه هنا[٣].

ولا يخفى أن الزمخشرى لم يخترع القلب فى المثال المذكور، بل سبقه إليه الجوهرى[٤]، وغيره[٥]. قال فى عروس الأفراح: المعروض ليس له

(١) الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال. بهامش (الكشاف) : ٣/ ٥٢٣ .

(٢) أى على سبيل الاستعارة التمثيلية.

(٣) نقله الشهاب الخفاجى باختصار وتصرف من البحر المحيط: ٨/ ٦٣ وقد عقب أبوحيان على المثالين بقوله: «إذ العرض أمر نسبى، يصح إسناده لكل واحد من الناقة والحوض».

(٤) انظر الصحاح (عرض).

(٥) انظر الفصل الأول : أبو عبيدة ، والفراء، والأصمعى.

اختيـار، والاختيار إنما هو للمعـروض عليه، فإنه قد يقبل وقـد يُرد. فعرض الناقـة على الحوض مـقلوب لفظا. والقلب قـد يكون لفظا كـخرق الثـوب المسمار، ومعنى[1] كقوله[2]:

« كأنَّ لون أرضيـه سماؤهُ »

وأما الآية ففي كونها من المقلوب ما سمعته.

وقال السبكى[3]: إنهـا من القلـب المعنوى، لا اللـفظى، لأن الكفـار مقهورون، فكأنهم لا اخـتيار لهم. والنار متصرفة فيـهم. فهم كالمتاع الذى يتصرف فيه من يعرض عليه، كقولهم: عرضت الجارية على البيع.

ومن الغريب قول ابن السكيت[4] فى كتاب التوسعة[5]. يقول:

عرضت الحوض على الناقة، وإنما هو: عـرضت الناقة على الحوض على عكس ما مر، وهو مخالف للمشهور[6].

---

(١) انظر الفرق بينهما ص٥١ (هامش).

(٢) رجز لرؤبة بن العجاج. وقبله:
« ومَـهْمَـه مـغـبرة أرجـاؤهُ »
وهو فى مفتاح العلوم: ٢١١، والإيضاح: ١/ ١٦٤، والمطول: ١٣٨.

(٣) هو أحمـد بن على بن عبد الكافى العلامـة بهاء الدين أبوحامـد السبكى ولد سنة تسع وعشـرين وسبـعمـائة وبرع فى العلم وهو شاب، وتولى الـتدريس ثم القـضاء. ألف: عروس الأفراح، وشـرح مطول على مختصر ابن الحـاجب فى الأصول توفى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمكة المكرمة.

(٤) عرف به ص١١٨.

(٥) كتاب التوسعة فى كلام العرب.

(٦) آخر النقل من السبكى. عروس الأفراح: ١/ ٤٩١ ضمن (شروح التلخيص).
أقول: وثمة فـرق بين مثالى ابن السكيت وهو «أن الحكم الثابت لـلحوض هو العرض بلا واسطة حرف الجـر، فيكون معروضـا. وللناقة هو العرض بواسطة حرف الجـر، فتكون معروضا عليها» حاشية الشيخ مخلوف المنياوى: ٩٢.

ويذكر الخفاجي رأيه في هذه المسألة بقوله: «أقول: الذى لاح لى هنا...».

وملخص ما قاله: أنه نظر فى المراد بالعرض إلى أمرين: إما متلازمين، أو منفكين، ورتب على هذا وجهة الخلاف. وذلك أن العرض إما أن يعتبر فيه أمران:

١- حركة المعروض، أو تحريكه نحو المعروض عليه .

٢- إرادة المعروض عليه لما عرض باختياره، أو ترجيحه، وتمييزه مثل: عرضت الرأى عليه.

وإما أن يعتبر فيه أمرا واحد .

فعلى الأول : لا يكون عرض الناقة على الحوض، وكذا عرض الكفار على النار، وكذا عرض النار على الكفار من التفسير بالنظم، بل هو من القلب.

وأما على الثانى : فإن اعتبر حركة المعروض أو تحريكه نحو المعروض فقط كما فى نحو: عرضت الناقة على الحوض، وكذلك فى عرض الكفار على النار بمعنى: سوقهم إليها كان هذا من التفسير بالنظم، وعكسه من القلب.

وإن اعتبر إرادة المعروض عليه فقط كان من باب القلب.

وأخيرا فالرأى ما رآه جمهور العلماء فى تفسير الآية الكريمة بالنظم. والله أعلم.

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى : ٨/ ٣٣,٣٤ .

الآية السادسة عشرة

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم: ٨، ٩).

هاتان الآيتان في سياق الحديث عما كان من لقاء جبريل ومحمد -عليهما الصلاة والسلام- ليلة الإسراء والمعراج. قال الله تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم: ٤-٩).

والآيتان : (٨، ٩) اختلفت الآراء في تفسيرهما بوجوه من النظم، أو القلب البلاغي. وسأبين هذا الاختلاف ذاهبا إلى تحقيق الصواب.

أولا: قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾.

نقل ابن قتيبة عن العلماء أن هذه الآية من المقلوب، وبينها بقوله: «أي: تدلى فدنا، لأنه تدلى للدنو، ودنا بالتدلي»[1].

- وفسرها الزجاج بما يناسب النظم بجعل معنى الجملتين واحداً.

فقال «ومعنى : «دنا و«تدلى» واحد؛ لأن المعنى أنه قرب وتدلى: زاد في القرب كما تقول: قد دنا فلان وقرب. ولو قلت: قد قرب مني ودنا جاز»[2].

- وحكى الآمدي رأى من قال بالقلب؛ فقال: «وإنما هو : ثم تدلى، فدنا» ثم ردَّه بقوله: «إنما كان تدليه عند دنوه، واقترابه» وهذا قريب مما قاله الزجاج.

(١) تأويل مشكل القرآن : ١٩٣ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ٧٠ .

- ورد القلب هذا الإمام محمد بن أحمد بن جزى بقوله: «. . . وهو عند بعضهم من المقلوب»[١].

- وفسر الزركشي الآية بالنظم ثم ردّ القلب بقوله: «وقيل». فقال:

«وقوله : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أى تدلى فدنا؛ لأنه بالتدلى نال الدنوّ والقرب إلى المنزلة الرفيعة، وإلى المكانة ، لا إلى المكان. وقيل: لا قلب. والمعنى: ثم أراد الدنو فتدلى»[٢].

- وقال الزمخشرى : « (ثم دنا) من رسول الله ﷺ (فتدلى) فتعلق عليه فى الهواء. ومنه: تدلت الثمرة، ودلَّى رجليه من السرير»[٣] وهذا تفسير بالنظم.

- وذكر الرازى فى تفسير الآية ثلاثة آراء بعيدة عن القلب وهى[٤]:

«**أحدها:** فيه تقديم وتأخير تقديره: ثم تدلى من الأفق الأعلى، فدنا من النبى ﷺ .

الثانى: الدنو والتدلى بمعنى واحد. .

الثالث: دنا. أى قصد القرب من محمد ﷺ . فتدلى؛ فنزل إلى النبى ﷺ ».

والرازى متأثر فى الرأى الثانى بالزجاج، وأما الثالث فهو من المجاز المرسل بعلاقة المسببية.

وقال الخطيب : «ثم أراد الدنو من محمد ﷺ (فتدلى) فتعلق عليه فى الهواء «فهو أيضا من المجاز المرسل ومن التفسير بالنظم وقد تأثر فيه بالزمخشرى.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل : ٤/ ٧٥ .
(٢) البرهان : ٣/ ٢٩٢ . (٣) الكشاف : ٤/ ٢٨.
(٤) التفسير الكبير. المجلد الرابع عشر : / ٢٧٤ .

وجمع العلامة العمادى[١] فى تفسير الآية بين رأى كل من الزمخشرى والخطيب القزوينى .

وحمل القاضى البيضاوى المعنى على الاستعارة التمثيلية ثم حكى القلب، ولم يرتضه بقوله: «وقيل»:

يقول القاضى : «(فتدلى) فتعلق به، وهو تمثيل لعروجه بالرسول وقيل: ثم تدلى من الأفق الاعلى فدنا من الرسول؛ فيكون اشعاراً بأنه عرج به غير منفصل عن محله ، تقريراً لشدة قوته؛ فإن التدلى: استرسال مع تعلق كتدلى الثمرة».

- وعلق عليه شيخ زادة ؛ فقال :

« (وقوله : فتعلق عليه) دفع لما يقال : الظاهر أن يقال : ثم تدلى إليه؛ فدنا منه ، لأن التدلى سبب للدنو؛ فلا يتفرع على الدنو، بل الدنو يتفرع عليه.

ووجه الدفع : أن التدلى هو الاسترسال مع التعلق، وجرد ههنا لمعنى التعلق الذى هو متفرع على الدنو. روى عن الإمام الواحدى أنه قال: تقديره ثم تدلى فدنا من محمدﷺ حتى صار بعد ما بينهما قدر قوسين على التقديم والتأخير. وقيل: (دنا) بمعنى: قصد القرب منه -عليه السلام- وتحول عن المكان الذى كان فيه؛ فتدلى. أى فنزل إليه. .»[٢].

وبين الخفاجى قول القاضى فقال:

« (قوله : فتعلق به الخ) فالتدلى مجاز عن التعلق بعد الدنو منه، لا بمعنى التنزل من علو كما هو المشهور. . . أو هو دنو خاص بحالة التعلق،

---

(١) تفسير أبى السعود : ٨/١٥٥ .

(٢) حاشية محيى الدين شيخ زادة على تفسير القاضى البيضاوى. ٤/٤٠٨ .

فلا قلب ، ولا تأويل بأراد الدنو كما فى الإيضاح[١].

وقوله : « وهو تمثيل لعروجه بالرسول». الضمير لقوله: (فتدلى) بمعنى تعلَّق؛ لأن تعلقه به عبارة عن رفعه من الأرض للعروج به.. وقوله : «وقيل: «الخ، ففيه قلب على هذا؛ ولذا لم يرتضه»[٢].

فقد بين «شيخ زادة» معنى: (تدلى) بأنه: التعلق المتفرع على الدنو ، أو أن المعنى على التقديم والتأخير كما نقل عن الواحدى، أو على المجاز المرسل بعلاقة: المسببية، ولذا فسر «دنا» بمعنى: قصد القرب ووافقه الخفاجي فى المراد بالتدلى، أو أنه دنو خاص بحالة التعلق ورد كلاً من التأويل بالقلب، والحمل على المجاز المرسل بمعنى: أراد الدنو وبين المراد بالتمثيل فى قول القاضى. ولم يرتض القلب، ولذا قال: «وقيل».

ثانيا: قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾.

قال القاضى: «(فكان) جبريل -عليه السلام- كقولك: هو منى معقد الإزار، أو المسافة بينهما (قاب قوسين) مقدارهما (أو أدنى) على تقديركم... والمقصود : تمثيل ملكة الاتصال، وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بنفى البعد الملبس».

- وبينه «شيخ زادة» فقال[٣]: «(قوله: كقولك هو منى معقد الإزار) أى: فى كونه عبارة عن غاية القرب.. فإن أصل الكلام أن يقال: فكأن قرب جبريل من محمد -عليهما الصلاة والسلام- مثل قرب إحدى القوسين من الأخرى؛ فحذف المضاف، وأداة التشبية؛ للمبالغة فى بيان قربه منه كما يقال: هو منى معقد الإزار. والأصل أن يقال: قربه منى واتصاله بى كاتصال معقد الإزار بى؛ فعدل عنه إلى هذه العبارة؛ لقصد المبالغة».

---

(١) جـ١ ص١٦٧ . (٢) حاشية الشهاب الخفاجى : ٨/١١١ .

(٣) حاشيته. الموضع السابق .

- وقال الخفاجى : «قاب القوس[1]، وقيبه: ما بين الوتر ومقبضه. المراد به: المقدار؛ فإنه يقدر بالقوس كالذراع؛ ولذا قال: «مقدارهما».

وقد قيل : إنه مقلوب، ولا حاجة إليه؛ فإن هذا إشارة إلى ما كانت العرب فى الجاهلية تفعله إذا تحالفوا أخرجوا قوسين ، ويلصقون إحداهما بالأخرى؛ فيكون القاب ملاصقا للآخر حتى كأنهما ذوا قاب واحد ثم ينزعانهما معا، ويرميان بهما سهمًا واحدا؛ فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدهما رضا الآخر،وسخطه سخطه، لا يمكن خلافه. كذا قال مجاهد ، وارتضاه عامة المفسرين»[2].

فتفسير الآية على التشبية البليغ؛ للمبالغة فى شدة قرب جبريل من النبى عليهما الصلاة والسلام. ولذا قال القاضى: «والمقصود تمثيل ملكة الاتصال، وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بنفى البعد الملبس».

وبينه الزمخشرى بقوله: «تقديره: فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين؛ فحذفت هذه المضافات»[3].

ورفض الخفاجى التأويل بالقلب وهوّن منه، وأشار إلى ما عرِف عند العرب فى هذا الشأن.

وبذلك لم يبق شبهه للتفسير بالقلب البلاغى فى هاتين الآيتين.

---

(١) قال ابن عطية : «(قاب) معناه : قدر، وقال قتادة وغيره: معناه من طرف العود إلى طرفه الآخر. وقال الحسن ومجاهد: من الوتر إلي العود فى وسط القوس عند المقبض... وقوله: (أو أدنى) معناه : على مقتضى نظر البشر» - المحرر الوجيز: ١٩٧/٥ .

(٢) حاشية الشهاب الخفاجى. الموضع السابق .

(٣) الكشاف : ٢٩/٤ .

الآية السابعة عشرة

قوله تعالى: ﴿ بَلِ الإنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ (القيامة: ١٤).

والآية عند الفراء من أمثلة القلب، فهو يقول: «على الانسان من نفسه رقباء يشهدون عليه بعمله: اليدان والرجلان والعينان والذكر»[١] وأوردها ابن قتيبة ضمن أمثلة المقلوب، وذكر عبارة الفراء بتصرف. ثم بين رأيه وهو إنكار القلب في القرآن الكريم[٢].

وجمهور المفسرين لا يقولون بالقلب فى الآية. فالزمخشري يقول: «(بصيره) حجة بينة.. والمعني أنه ينبأ بأعماله، وإن لم ينبأ ففيه ما يجزئ عن الإنباء؛ لأنه شاهد عليها بما عملت؛ لأن جوارحه تنطق بذلك»[٣].

وتأثر به أبو السعود[٤] فلا قلب إذا في الآية الكريمة.

الآية الثامنة عشرة

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾(العاديات: ٨).

الضمير فى «وإنه» للإنسان فى الآية السابقة: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾[٥] والخير هنا: المال. قال الراغب فى هذه الآية «أى المال الكثير. وقال بعض العلماء: إنما سمى المال هنا خيراً تنبيها على معنى لطيف، وهو أن الذى يحسن الوصية به ما كان مجموعاً من المال من وجه محمود، وعلى هذا قوله: ﴿قُلْ ما أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾[٦] وقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ

(١) معانى القرآن: ٣/ ٢١١.
(٢) تأويل مشكل القرآن: ١٩٣، ٢٠٠.
(٣) الكشاف: ٤/ ١٩١.
(٤) تفسير أبى السعود: ٧/ ٦٦، وانظر. البحر المحيط: ٨/ ٣٨٦.
(٥) سورة العاديات الآية: ٦.
(٦) سورة البقرة الآية: ٢١٥.

الله ﴾(١).

وقد فسرت هذه الآية الكريمة على النظم وعلى القلب ، ولكن الأول أولى وهو الصواب .

يقول أبو عبيدة «وإنه من أجل حب الخير لشديد: لبخيل».

يقال للبخيل : شديد، ومتشدد . قال طرفة :

أرَى الموت يعتامُ النفوس ويصطفي عقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشدِّدِ

وي روي : يعتامُ الكرام»(٢).

ويقول القاسمي : «وإنه لحب الدنيا وإيثارها لقوي، ولحب تقوي الله، وشكر نعمته ضعيف متقاعس، وإنه لحب الخير الموصل إلي الحق شديد منقبض، غير هش منبسط»(٣).

(١) سورة البقرة الآية : ١٩٧ .

وقد أحصت الدكتورة عائشة عبد الرحمن المراد بلفظ «الخير» فى القرآن الكريم ومن ذلك قولها:

وقد جاء الخير مرة واحدة للخيل فى آية (ص٣٢) على لسان داود:

﴿ إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياذ. فقال أنى احببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب. . . ﴾.

على أن لفظ الخير أكثر ما يستعمل فى القرآن بمعنى الأفضل. وقد أحصيت من هذا الاستعمال نحو ١٢٥ مرة، ويقرن بلفظ «آدم» المعادلة. أو يجئ تمييزاً، أو معطوفا عليه بأفعل التفضيل ، كما يأتى فى القرآن نقيضا للشر صراحة في مثل آيات: الإسراء ١١ . ﴿ويدع الإنسانُ بالشرّ دُعاءَهُ بالخيرِ وكانَ الإنسانُ عجُولاً﴾ أو مقابلا بالسوء والضر.

الأعراف ١٨٨ ﴿ولو كُنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ من الخيرِ وما مسّنى السُوءُ﴾ واللغة تحتمل أن يكون الخير للمال. والخيل ، وضد الشر والخيار والفضيلة. غير أن سياق آية (العاديات) يُرجح أن الخير فيها هو الخير المادى من مال أو شبهه. فهذا الانسان الكفور بنعمة ربه. الشاهد على نفسه بالكنود لا يكون حبه للخير الذى هو فضيلة، وإنما حب للمال شديد». التفسير البيانى للقرآن الكريم: ١/ ١١٤.

(٢) مجاز القرآن : ٢/ ٣٠٧. (٣) تفسير القاسمى : ١٧/ ٦٢٤٠ .

فهذا التفسير وما قبله يناسب نظم الآية.

وفسرها كذلك على النظم كل من ابن عطية[١]، وأبى حيان غير أنه ذكر رأى الفـراء فقـال: «وقـال الفراء : نظم الآية أن يقـال: وإنه لشـديد الحب للخير، فلمـا تقدم الحب قال: لشديد، وحـذف من آخره ذكر الحب ، لأنه قد جرى ذكره، ولروس الآى. . »[٢].

فالفراء فسـر الآية على القلب البلاغى مراعاة للفاصلة، وفـيه الحذف من الثانى لدلالة الاول عليه للإيجاز.

وحكى ابن قتيبة عن بعض العلماء القلب بقوله:

« وقال آخر فى قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أى: وإن حبه للخير لشديد» ثم رده بقوله: «أى: وإنـه لحب المال لبخيل. والشدة: البخل ههنا»[٣]. كما بين الزركشى أيضا هذين الرأيين[٤].

واختم الكلام هنا فى رد القلب هنا بقول حازم القرطاجنى :

« وقد حمل قوم قـوله سبحانه : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ على القلب .

وحمل الكلام على القلب فى غير القرآن إذا أمكن حـمله على الاستقامة تعسف شديد، فكيف فى الكتاب العزيز!»[٥].

---

(١) المحرر الوجيز : ٥/ ٥١٥ .

(٢) البحر المحيط : ٨/٥٠٥ .

(٣) تأويل مشكل القرآن : ٢٠٠، ٢٠٤ .

(٤) انظر البرهان : ٣/ ٢٩١ .

(٥) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ١٨٤ ، وانظر . سر الفصاحة : ١٠٦ .

المبحث الثانى

الأغراض البلاغية للتفسير بالنظم والقلب

جاء فى تفسير بعض النصوص القـرآنية والتى دار حولها البحث ذكر عدد من الأغراض البلاغية وهذه بيانها:

١-المبالغة: وهى أن يذكر المتكلم وصفاً فيزيد فيه حتى يكون أبلغ فى المعنى الذى قصده[١] وهذا لا يقـتضى التـفـاضل بين آية وآية، فكل مـعنًى له نظم يلائمه؛ وبذلك تكون آيات القرآن الكريم كلها قمة الإعجاز البيانى. والمبالغة إنما هى بالنسبة لمداركنا فقط .

١- وفى تفسيـر قوله تعالى: ﴿**خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾ يقول الزجاج : المعنى خلقت العـجلة من الإنسـان وحقـيـقتـه يدل عليهـا ﴿**وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**﴾. . والعرب تقول للذى يكثر الشـىء: خلقت منه، كما تقول: أنت من لعب. . تريد المبالغة بوصفه باللعب»[٢].

وفى قوله تعالى: ﴿**فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ**﴾[٣] يفسر أبو السعود هذه الآية على القلب ويبين السر البلاغى المقتضى له ، فيقول:

« (فاختلط به) اشتبك بسببه (نبات الأرض) فالتف وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه. . فـمقتضى الظاهر حينئذ: فـاخـتـلـط بنـبات الأرض. وإيـثار ما عليه النظم الكريم للمبالغة فى الكثـرة ، فإن كلاً من المختلطين موصوف بصفقة صاحبه»[٤].

ويردُ عليـه أن هذا التـعليل صـالح كذلك لـلتفـسـير بالنـظم، فإن أحـد المختلطين إذا قُدِّم أو أُخر كان فى موقعه.

---

(١) الإتقان : ٣/ ٢٨٢ .
(٢) انظر ص٨١ .
(٣) آية الكهف: ٤٥ .
(٤) تفسير أبى السعود : ٥/ ٢٢٤ .

وتأثر القاضى البيضاوى بأبى السعود فى بيانه لأصل النظم، وسر العدول عنه إلى القلب فقال:

« فالتف بسببه وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه . . وعلى هذا كان حقه: فاختلط بنبات الأرض، لكن لما كان كل من المختلطين موصوفا بصفة صاحبه عكس؛ للمبالغة فى كثرته».

وسار الشهاب الخفاجى فى أثر القاضى فبرَّر ما قاله. قال الشهاب: « ولما كان القلب مقبولا إذا كان فيه نكتة أشار إلى نكتته بعدما بين المصحح له، وهو أن كلاً منهما مختلِطَ ومختلَط به، وهى المبالغة فى كثرة الماء حتى كأنه الأصل الكثير.

وأشار الزركشى إلى فائدة القلب فى قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ بقوله: «وفائدته: المبالغة؛ بجعل المفاتح كأنها مستتبعة للعصبة القوية بثقلها[١].

هذا من حيث التفسير بالقلب .

وكانت المبالغة كذلك من أغراض التفسير بالنظم، فالشريف المرتضى يذكر وجوهاً فى تأويل قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ فيقول: «أولها: أن يكون معنى القول: المبالغة فى وصف الإنسان بكثرة العجلة وأنه شديد الاستعجال لما يؤثره من الأمور . . »[٢]. وعلى هذا كثير من العلماء.

ويبين محيى الدين شيخ زادة قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ فيقول[٣] « أصل الكلام أن يقال: فكان قرب جبريل من محمد -عليهما

---

(١) البرهان : ٣/ ٢٨٩ .

(٢) أمالى المرتضى : ١/ ٤٦٥ .

(٣) حاشية على تفسير القاضى البيضاوى: ٤/ ٤٠٨ .

الصـلاة والسـلام- مثل : قـرب إحـدى القـوسين من الأخـرى، فحـذف المضاف، وأداة التشبية للمبالغة فى بيان قربه منه».

ففى الكلام إيجـاز وهو مبنى على التشـبية لغـرض المبالغة. وهو تفسـير بالنظم.

٢-التخصيص: يفاد من كـلام الزمخـشرى هذا الغرض فى تفـسيـر قوله تعالى: ﴿ فلا تحسبنَّ اللهَ مخلفَ وعدِه رسلَه﴾ حيث قال:

« فإن قلت: هلاَّ قيل: محلف رسله وعـده، ولم قدم المفعول الثانى على الأول؟

قلت: قدم الوعـد ليعلم أنه لا يخلف الوعـد أصلا كـقوله: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾»[1].

وتقديمه عند أبى البقاء « على سبيل الاتساع»[2].

٣-العناية والاهتمام:

ذكر ابن المنير الاسكندرى فى حـاشيته[3] على الكشاف أن تقـديم المفعول الثانى فى الآية السابقـة يدل على العناية والاهتمام؛ لأن الآية سبـقت لتهديد الظالمين بما وعد الله، وكونه على ألسنة الرسل -علـيهم الصلاة والسلام- لا يتوقف عليه التهديد والتخويف.

وقال بذلك صاحب الكشف[4] والشيخ الفاضل ابن عـاشور فى التحرير والتنوير[5]؛ حيث قال:

---

(١) الكشاف : ٢/ ٣٨٤ .

(٢) التبيان فى إعراب القرآن. القسم الأول : ٥٤ .

(٣) الكشاف : ٢/ ٣٨٤ (هامش).

(٤) انظر ص١٧٧ . (٥) جـ١٣ . ص٢٥١ .

« وأضيف «مـخلف» إلى مفعولـه الثانى وهو «وعده». وإن كان المفـعول الأول هو الأصل فى التقديم والاضافة إليـه لأن الاهتمام بنفى إخلاف الوعد أشد؛ فلذلك قدم «وعدَه» على «رسلِه».

وفســر الإمام الواحدى قـوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ على الـقلب بمعنى: وإ يردك بك الخير؛ فرد عليه الرازى بقوله:

«التقديم فى اللفظ يدل على زيادة العناية فقوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يدل على أن المقصود هو الإنسان وسائر الخيرات مـخلوقة لأجله؛ فهذه الدقيقة لا تستفاد إلا من هذا التركيب»[١].

فقد رأينا فـى هذا الفصل جهود كثـير من العلماء فى تفسـير تلك الآيات القرآنية بالنظم؛ فقد أوردوا من الأدلة الكثيرة والحجج القوية ما يبطل التفسير بالقلب؛ ولذا فإن تفسـير هذه الآيات بما يقتضيه النظم هو التـفسير والرأى. والله أعلم.

---

(١) انظر ص٤١ .

خاتمة

صدرت هذا البحث بمقدمة بدأتها بالحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ثم ذكرت الدافع إلى كتابة هذا البحث وذكرت أن القلب البلاغى صورة من صور تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وذكرت خطة البحث وأنه يتكون من مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول وخاتمة.

وفى التمهيد بينت المراد بالقلب عند كل من علماء اللغة والبلاغة، وأنه يخرج بالقلب البلاغى كل من : التقديم والتأخير، والبناء لما لم يسم فاعله، والعكس.

والقلب البلاغى عرف عند المبرد باسم «التحويل» كما جعله بعض العلماء مرادفا للعكس. وهذا القلب يتردد فى علوم البلاغة: المعانى والبيانُ البديع .

وفى الفصلين : الأول والثانى درست القلب دراسة تاريخية -منهجية عند كل من المجيزين له والمانعين فى القرآن الكريم؛ فبدأت بإمام المفسرين «عبد الله بن عباس» رضي الله عنهما وانتهيت بالتفسير الوسيط للقرآن الكريم. وتبين أن من المجيزين للقلب من اقتصر فى تفسيره للنص القرآنى على هذا القلب ، ومنهم من جمع بينه وبين التفسير بالنظم فعلى سبيل المثال: أبو العباس المبرد يفسر فى غير موضع من «الكامل» قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ على القلب فيقول: « المعنى : إن العصبة تنوء بالمفاتح» .

وأبو بكر بن الأنبارى بعد أن فسر هذه الآية على القلب، فسرها على النظم فقال: « ثم انظر ماذا يرجعون وتول عنهم فقدم وآخر ». والتقديم والتأخير من بلاغة -النظم القرآنى.

والقلب البلاغى جائز عند وضوح المـعنى، فالمبرد يقول: «والكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب». ويذكر الإمام الطَّبَرسى أن القلب «يشجع عليه أمن الإلباس».

وأما المانعـون للقلب فقد وجدوا فى تفـسير بعض مفـردات النص القرآنى كما وجدوا فى قواعد اللغة وألوان البيان مايعين على تفسير النصوص القرآنية بما يناسب النظم والسـياق، فـالزمخـشرى يفـسر «ثم تول عنهم» من قـوله تعالى: ﴿**اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ**﴾ بما يتمكن معه الهدهد من أداء مهمته، فيقول: «تنحَّ عنهم إلى مكان قريب، تتوارى فيه، ليكون ما يقولونه بمسمع منك».

وكان لتفـسير ابن عباس ﷺ لـقوله تعالى: ﴿ **لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ** ﴾ وهو: لتنوء: لتثقل « أثر كبير عند من فسَّره بما يناسب النظم، فقد أخذه الفراء عن ابن عباس ثم أخذه عن الفراء عدد كـبير من المفسرين، ولكنهم بينوا أن الباء فى «بالعصبة» للتـعدية. وكان للتشبية البليـغ، والمجاز بنوعيه، والكناية دور هام فى التفسير بالنظم القرآنى.

ومن هؤلاء المانعين من يقتصر على التفـسير بالنظم، ومنهم من يذكر معه التفســير بالقلب ويصدره بنحو: «وقيـل»، «وقال قوم» إلخ مما يدل على أنه رأى غيره، وأنه لا يرضاه، فمثلا: القاضى البـيضاوى فى تفسير قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ**﴾ يفسر: «فتدلى» أولا على النظم، ثم يتـبعه بقوله: «وقيل: ثم تدلى من الأفق الأعلى، فدنا من الرسول ﷺ.

ويبينه الشهاب الخفاجى بقوله: «وقيل: إلخ» ففيه قلب، ولذا لم يرتضه».

ولهؤلاء المانعين من قوة الحجة، ووضوح الأدلة، وصَواب الرأى، وشدة الغيرة على كتاب الله ـ تعالى ـ، وهذا مـا جعلهم يؤلون النصوص القرآنية بما يتفق مع النظم الذى جاءت به من عند الله.

والتفسير بالقلب البلاغى فى القرآن تفسير غير سديد. ومما يدل على ذلك أنه لا يصلح أن يكون قاعدة مطردة فى تفسير بعض الآيات.

فابن جنى يرد القلب فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، فيقول: «.. وأيضا فإن كل مستعيذ بالله واجبة عليه القراءة.. وهذا صحيح؛ فكثيرا، ما يستعيذ المسلم من سماع منكر أو رؤيته أو فعله؛ فلا تلازم بين الاستعاذة وقراءة القرآن.

ويذكر النيسابورى فى تفسير قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أن القلب يحتاج إلى تأويل؛ فلا فائدة فى القلب.

وإذا كان القلب «يصغر المعنى» كما قال ابن جنى، وأنه «ضعيف» كما قال «الطبْرَسى » و«لا حاجة إليه» كما قال أبو البقاء» ، ويُحتاج فى بيانه إلى «وجوه من المجاز» كما قال الإمام الرازى ، وإنه ليس بجيد كما قال أبوحيان؛ فما فائدته فى تفسير النص القرآنى؟!.

وهذه نصوص من أقوال العلماء.

قال ابن قتيبة :

« وهذا ما لا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب الله -عزوجل- لو لم يجد له مذهبا، لأن الشعراء تقلب اللفظ، وتزيل الكلام على الغلط أو على طريق الضرورة.. والله -تعالى- لا يغلط ولا يضطر».

وقال الرازى :

« وأبعد الأقوال هذا القلب؛ لأنه إذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو أولى من أن يحمل على أنه مقلوب».

وقال حازم القرطاجنى:

«وحمل الكلام على القلب فى غـير القرآن إذا أمكن حمله على الاستـقامة تعسف شديد؛ فكيف فى الكتاب العزيز»؟!.

وقال أبو حيان :

« وادعـاء القلب على لفظ كتـاب الله دون ضرورة تدفع إلـى ذلك عجـز وسوء نظر.. والقلب عند اصحابنا يختص بضرورة الشعر فلا نُخرِّج عليه كلام الله» .

وقال الشيخ الفاضل ابن عاشور :

« وأما قول أبى عبيدة بأن تركيب الآية فيه قلب فلا يقبله من كان له قلب».

وفى الفصل الثالث درست «أسباب الخـلاف وأدلته بين المجيزين والمانعين للقلب» وقد بينت فى المبحث الأول أن أسباب الخلاف ترجع إلى: الاختلاف فى المراد بالكلمة، أو فى المحل الإعرابى، أو فى مقدار النص المفسَّر.

وفى المبحث الثانى ذكرت أن من هذه الأدلة، ما هو مشترك بين الفريقين. ومنها: الاستشهاد بكلام العـرب، وإشتراك الطرفين فى المعنى. ومنها ما هو خاص بالمجـيزين مثل: الاستـشهاد على نظم آية بآية أخـرى، أو على تقدير القلب فى آية بتـقديره فى آية أخـرى.. ومنها مـا هو خاص بالمانعـين مثل: إمكان التأويل بما يتفق مع النظم القرآنى، وحمل المعنى على المبالغة..إلخ.

والفصل الرابع دراسة تطبيقية لآراء كثير مـن العلماء فى تفسير سبعة عشر نصا من القرآن الكريم من حيث النظم أو القلب، ويتـبين فيه ما كان من رد المانعين ومعارضتهم لهـذا القلب وأصحابه وهذا مع بيان الرأى الصواب، ثم دراسة الأغراض البلاغية عند كل من المجـيزين والمانعين كما وردت فى كتب التراث.

وفى الخاتمة أوجزت ما جاء فى البحث وذكرت نصوصا لبعض المانعين للقلب تبين منهجهم وصواب تفسيرهم.

ومن الوفاء أن أدعو بالرحمة والمغفرة لشريكة حياتى والتى فارقتنا إلى الدار الآخرة أثناء طبع هذا الكتاب، فقد كانت مخلصة، وعاشت مريضة زمنا طويلا وهى صابرة وشاكرة ومحتسبة. أسأل الله أن يجزيها خير الجزاء، وأن يجعلها مع ﴿ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾.

وآخر دعوانا أن ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

دكتـــور

مصطفى السيد جبر

استاذ مساعد البلاغة والنقد بكلية
الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة

فهارس الكتاب

أولا : الآيات القرآنية *:

* لم أذكر ارقام الصفحات التي وردت فيها هذه الآيات ، لأن معظمها ذكر في هذا البحث كثيرا ، ولذا اكتفيت ببيان أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت فيه.

ثانياً : الأحاديث الشريفة

الحـديث الشريف	رقم الصفحة
« إذا أتى أحدُكم الجمعة فليغتسل ».	١١٧
« إذا بايعْت فقل : لا خِلابة »	٦٢
« إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعْنت فاستعنِ بالله.. »	٦٣
« ثم أتى على وادٍ ؛ فسمع صوتاً منكراً .. »	٥١
« لا تتم صلاة أحـدكم حتى يسبغ الوضوء كـما أمر الله ، فيـغسل وجهـه ويديه إلى المرفقين ، ويمسح برأسـه وجليه إلى الكعبين ».	١٦٢

ثالثا : الشعر والرجز

أولا : الأبيات :

حرف الفاء

لقـــد زاد الحـــيـــاة إليّ حـــبـــاً	بنـاتي إنـهن مـن الضِّـــعـــاف	
أحــاذر أن يـرين البـــؤس بـعــدي	وأن يشـــربْن رنـقـــاً بعـــد صـــاف	٣١

حرق القاف

فـــديت بنفـــســـه نفـــسى ومـــالى	ومـــــا آلـوك إلا مـــــا أطيـق	١٠٤ ,١٨

حرف اللام

يود الفـتى بعـد اعـتـدال وصـحـة	ينـوءُ إذا رام القـــيـــام ويحـــمل	٢٦
ألا أصـبحت أسـمـاءُ جـاذمة الحـبلِ	وضنَّتْ علـينا والضنين من البـــخل	٨٦
لقـد خفتُ حـتى ما تزيد مـخافـتى	علـى وعل فى ذى المطارة عـــاقل	١٣
إن الكـريم وأبيـك يعـــتـــمل	إن لم يجـــد يـومـــاً على من يـتكل	٧٤

إذا اشــتــاقت الخـــيلُ المناهلَ أعـــرضت
عن الماء فـــاشـــتـــاقتْ إليـــهـــا المناهلُ ٥٢

حرف الميم

جالت لتصرعنى فقلت لها: اقصرى	إنى امـــرؤٌ صـــرعى عليكِ حـــرامُ	١٢٩

حرف النون

حـسرتُ كـفى عن السـربالِ آخـذه	فـــرداً يـجـــر علـى أيدى المفـــدِينا	١٠٤ ,١٢

(ب) أنصاف الأبيات

* * * * *

ثانيا : الرجز

رابعا : أهم المراجع

١- اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر- البنا. تحقيق د: شعبان محمد اسماعيل- ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م- ط الكليات الأزهرية.

٢- أثر النحاة فى البحث البلاغى د. عبد القادر حسين- دار نهضة مصر ط أولى .

٣- أسد الغابة فى معرفة الصحابة - عز الدين بن الأثير الجزرى- ط دار الفكر.

٤- الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة - محمد بن على الجرجانى - تحقيق د. عبد القادر حسين- دار نهضة مصر.

٥- الأضداد . ابن الأنبارى . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية. بيروت .

٦- إعراب القرآن. النحاس - تحقيق د. زهير غازى - ط ثانية- ١٤٠٥ -مكتبة العلوم والحكم.

٧- الأعلام . خير الدين الزركلى- بيروت.

٨- أمالى الشريف المرتضى - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية. ط. أولى ١٣٧٣هـ -١٩٥٤م.

٩- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف عن الاعتزال -ابن المنير الإسكندرى. هامش (الكشاف) ط. عيسى البابى الحلبى.

١٠- الإيضاح بشرح الشيخ عبد المتعال الصعيدى (بغية الايضاح). مكتبة الكليات الأزهرية ط سادسة .

١١- البحر المحيط - لأبو حيان- دار الفكر- الطبعة الثانية - ١٤١٣هـ.

١٢- البرهان فى علوم القرآن -الزركشى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار التراث .

١٣- بغية الوعاة. السيوطيدار التراث.

١٤- البيان فى إعراب القرآن. ابن الأنبارى. تحقيق د. طه عبد الحميد طه. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

١٥- تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة - شرح السيد أحمد صقر - دار التراث - ط ثانية- ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

١٦- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها- أحمد مصطفى المراغى- ط. مصطفى الحلبى.

١٧- التبيان فى إعراب القرآن - أبو البقاء العكبرى- تحقيق على محمد البجاوى- ط. عيسى البابى الحلبى - ١٩٧٦م.

١٨- تحقيق ودراسة لغوية للجزء السادس من البسيط للواحدى المتوفى سنة ٤٦٨هـ من سورة الحج إلى آخر سورة السجدة. د: محمد حسن عثمان. رسالة دكتوراة بمكتبة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة.

١٩- تفسير أبى السعود. المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم- دار إحياء التراث الإسلامى. بيروت.

٢٠- تفسير ابن عباس ومروياته فى التفسير من كتب السنة -د. عبد العزيز بن عبد الله الحميدى- جامعة أم القرى. مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى .

٢١- تفسير التحرير والتنوير- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان بتونس. ط أولى.

٢٢- تفسير القاسمى المسمى محاسن التأويل -محمد جمال الدين القاسمى- ط أولى ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م.

٢٣- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار - ط رابعة ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م مكتبة القاهرة.

٢٤- تفسير القرآن العظيم . ابن كثير . ط. دار الشعب.

٢٥- التفسير الكبير - الفخر الرازى - دار الكتب العلمية . بيروت.

٢٦- التفسير والمفسرون - د. محمد حسين الذهبى - مكتبة وهبة - ط سادسة ١٤١٦هـ -١٩٩٥م.

٢٧- تلخيص الحبر فى تخريج أحاديث الرافعى الكبير - ابن حجر العسقلانى . تصحيح: السيد عبد الله هاشم اليمانى . المدنى.

٢٨- تلخيص البيان فى مجازات القرآن -الشريف الرضى- تحقيق د. على محمود مقلد - منشورات دار مكتبة الحياة بيروت .

٢٩- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس - ط مصطفى البابى الحلبى.

٣٠- ثلاثة كتب فى الأضداد - للأصمعى وللسجستانى ولابن السكيت- دار الكتب العلمية . بيروت .

٣١- جامع البيان من تأويل آى القرآن. ابن جرير الطبرى - مصطفى البابى الحلبى - ط ثالثة .

٣٢- حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى المسماة: عناية القاضى وكفاية الراضى- دار إحياء التراث العربى - بيروت .

٣٣- حاشية الشيخ مخلوف المنياوى على شرح حلية اللب المصون -ط . مصطفى البابى الحلبى ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م.

٣٤- حاشية محيى الدين شيخ زادة على تفسير القاضى البيضاوى- دار إحياء التراث العربى- بيروت.

٣٥- خزانة الأدب وغاية الأرب- ابن حجة الحموى- دار ومكتبة الهلال - بيروت.

٣٦- الخصائص - ابن جنى - تحقيق: محمد على النجار - ط ثانية .

٣٧- خطوات التفسير البيانى - د. محمد رجب البيومى - ط مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

٣٨- درة الغواص فى أوهام الخواص- الحريرى. تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم. دار نهضة مصر.

٣٩- الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون - السمين الحلبى - تحقيق الشيخ: محمد معوض، والدكتور: جاد مخلوف جاد (بالاشتراك) - دار الكتب العلمية. بيروت.

٤٠- ديوان امرئ القيس. تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف ط خامسة .

٤١-ديوان النابغة الذبيانى - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم- ط. دار المعارف.

٤٢- روح المعانى - الألوسى - دار الفكر العربى - بيروت- ١٩٧٨م.

٤٣- سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجى - شرح وتعليق الشيخ عبد المتعال الصعيدى. مكتبة صبيح ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

٤٤- سنن أبى داود - تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. بيروت .

٤٥- سنن الترمذى. تحقيق. أحمد محمد شاكر . مصطفى البابى الحلبى ط ثانية ١٣٩٨هـ-١٩٨٧م.

٤٦- سير أعلام النبلاء. الذهبى. أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: شعيب الأرناؤط- مؤسسة الرسالة - ط. أولى -١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٤٧- شرح البيجورى على الجوهرة المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد

تصحيح : حسين عبد الرحيم مكى. صبيح ط أولى ١٣٧٤هـ-١٩٥٤م.

٤٨- الصاحبى - ابن فارس - تحقيق : السيد أحمد صقر - دار إحياء الكتب العربية.

٤٩- الصحاح -الجوهرى . تحقيق : أحمد عبد الغفور عطا. دار العلم للملايين.

٥٠- صحيح البخارى ط دار الشعب.

٥١- صفوة التفاسير - الشيخ محمد على الصابونى - دار الرشيد -سوريا- حلب.

٥٢- صور من تطور البيان العربى د. كامل إمام الخولى - دار الأنوار بالقاهرة.

٥٣- عروس الأفراح - بهاء الدين السبكى. ضمن (شروح التلخيص).

٥٤- علم البديع رؤية جديدة د. أحمد أحمد فشل - دار المعارف- ١٩٩٦م.

٥٥- غريب الحديث - أبوعبيد القاسم بن سلام الهروى- دار الكتاب العربى بيروت.

٥٦- فتح القدير الجامع بين فنَّى الرواية والدِّراية من علم التفسير- محمد بن على الشوكانى - المكتبة التجارية. مصطفى أحمد الباز - مكة المكرمة.

٥٧- الفريد فى إعراب القرآن المجيد- المنتجب الهمذانى ت ٦٤٣هـ - تحقيق: د. فهمى حسن النمر ، د. فؤاد على مخيمر - الدَّوحة- دار الثقافة.

٥٨- الكامل فى اللغة والأدب - المبرد - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم- دار الفكر العربى.

٥٩- كتاب التسهيل لعلوم التنزيل - ابن جزِّى الكلبى - دار الكتاب العربى- بيروت.

٦٠- الكشاف - الزمخشرى - ط دار إحياء الكتب العربية.

٦١- لسان العرب ابن منظور - ط دار المعارف .

٦٢- ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد- المبرد - ط السلفية.

٦٣- المجاز فى اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع - د. عبدالعظيم المطعنى - مكتبة وهبة- ط أولى .

٦٤- مجاز القرآن - أبو عبيدة - علَّق عليه: محمد فؤاد سزكين - مكتبة الخانجى .

٦٥- مجمع البيان فى تفسير القرآن - الشيخ أبوعلى الفضل بن الحسن الطَّبَرسِى - منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.

٦٦- المحتسب . ابن جنى -تحقيق: على النجد ناصف، د. عبد الفتاح شلبى- ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية -١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

٦٧- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية الأندلسى - تحقيق: عبد السلام عبد الشافى محمد. دار الكتب العلمية. بيروت.

٦٨- مسند الإمام أحمد. دار صادر بيروت.

٦٩- مطول على التلخيص - ط تركيا سنة ١٣٣٠هـ.

٧٠- معانى القرآن وإعرابه- الزجاج - تحقيق د. عبد الجليل شلبى. عالم الكتب.

٧١- معانى القرآن - الفراء- تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٢م.

٧٢- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص -العباسى- تحقيق : محمد

محيى الدين عبد الحميد- المكتبة التجارية الكبرى -١٣٦٧هـ- ١٩٤٧م.

٧٣- مغنى اللبيب - ابن هشام - تحقيق : د. مازن المبارك (بالاشتراك) ط دار الفكر - بيروت- ١٩٩٢م.

٧٤- مفتاح العلوم - السكاكى - علّق عليه: نعيم زرزور - دار الكتب العلمية- بيروت.

٧٥- المفردات فى غريب القرآن - الراغب الأصفهانى - ط. مصطفى البابى الحلبى.

٧٦- من كتاب البسيط للعلامة على بن أحمد بن محمد الواحدى المتوفى سنة ٤٦٨هـ من أول سورة الزخرف إلى آخر القرآن الكريم (تحقيق ودراسة لغوية)- د. جاد مخلوف جاد- ١٤١١هـ-١٩٩٠م - رسالة دكتوراة بمكتبة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة -جامعة الأزهر.

٧٧- منهاج البلغاء وسراج الأدباء - حازم القرطاجنى - تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة- دار الكتب الشرقية.

٧٨- الموازنة بين أبى تمام والبحترى -الآمدى - ط دار المعارف.

٧٩- مواهب الفتاح - ابن يعقوب المغربى. ضمن (شروح التلخيص). دار السُرور. بيروت.

٨٠- النهاية فى غريب الحديث والأثر. مجد الدين بن الأثير. دار الفكر.

٨١- الوساطة بين المتنبى وخصومة - القاضى الجرجانى - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (بالاشتراك) - دار إحياء الكتب العربية.

خامسا : الفهرس العام

الفصل الثانى

المانعون للقلب البلاغى فى القرآن الكريم

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية
٢٠٠٢/٥٣٨١
تحريراً فى ١٠/ ٣/ ٢٠٠٢

